رواية

الرواية الحائزة على جائزة «ستريغا» الايطالية، ترجمت إلى أكثر من 30 لغة

باولو كونيّتي

مكتبة ٣٨٤

الجبال الثمانية

Le Otto Montagne

ترجمة: د. أماني فوزي حبشي

دار الخيال

مكتبة

مكتبة 384

الجبال الثمانية

t.me/ktabpdf

الجبال الثمانية

باولو كونيتّي

ترجمت من الأصل الإيطالي: **Le Otto Montagne**

ترجمة: د. أماني فوزي حبشي

Copyright © 2016 by Paolo Cognetti.
First published in Italy by Giulio Einaudi editore, Torino, 2016.
This edition published in agreement with the Author through
MalaTesta Lit. Ag., Milano

حقوق الترجمة العربية محفوظة للناشر ©

دار الخيال
DAR AL KHAYAL

المنارة ـ رأس بيروت
بناية يعقوبيان بلوك B طابق 3
لبنان تلفاكس: 009611740110

Email: alkhayal@inco.com.lb
www.daralkhayal.com

التنفيذ الفني: «TRIGRAPHICS»

الطبعة الأولى: 2018

ISBN: 978-9953-65-016-6

مكتبة ٢١٥ ٢٠١٩

مكتبة

باولو كونيّتي

مكتبة 384

الجبال الثمانية

ترجمة: د. أماني فوزي حبشي

دار الخيال
DAR AL KHAYAL

t.me/ktabpdf

مكتبة

telegram @ktabpdf

telegram @ktabrwaya

تابعونا على فيسبوك

جديد الكتب والروايات

مكتبة

وداعًا، وداعًا! ولكن أقول هذا
لك، أيها المدعو للعرس:
يجيد الصلاة من يجيد الحب،
سواء كان إنسانًا، طائرًا أم حيوانًا.

ص. ت. كولريدج – رقصة البحار المسن

t.me/ktabpdf

مكتبة

المحتويات

الجزء الأول - جبل الطفولة

واحد 23
اثنان 45
ثلاثة 71
أربعة 93

الجزء الثاني - منزل المصالحة

خمسة 115
ستة 139
سبعة 161
ثمانية 171

t.me/ktabpdf

الجزء الثالث – صديق في الشتاء

تسعة 193

عشرة 211

أحد عشر 231

اثنا عشر 253

مكتبة

كان لأبي طريقته لتسلق الجبل. كانت طريقة تميل للتأمل، كلها صلابة وشجاعة. فهو يصعد دون أن يعاير القوى، دائمًا في سباق مع شخص أو شيء ما، وحيثما يبدو له المعبر طويلًا كان يقطعه من أكثر الخطوط انحدارًا. كان ممنوعًا معه التوقف، والشكوى بسبب الجوع أو التعب أو البرد، ولكن يمكن للمرء أن يغني أغنية جميلة، وخصوصًا أسفل العاصفة أو الضباب الكثيف. ويمكنه أن يطلق الصيحات وأن يلقي بنفسه في أكوام الثلج.

كانت أمي، التي عرفها منذ صباه، تقول إنه لم يكُن ينتظر أحدًا، ولا حتى آنذاك، مشغولًا كليةً باتباع أي شيء يراه في أعلى: لذلك لا بد أن تكون للمرء ساقان قويتان ليصبح مرغوبًا فيه في نظره، وتضحك وبذلك يُفهم أنها استطاعت الحصول عليه بهذه الطريقة. أما هي، ففي مرحلة متقدمة من العمر أصبحت تُفضل أن تجلس في المروج، أو أن تضع قدميها في مجاري المياه، أو التعرف على أسماء الأعشاب والزهور. حتى من القمة كان أكثر ما يعجبها هو النظر إلى القمم البعيدة، تفكر في تلك التي تسلقتها في شبابها، وتتذكر كيف كانت ومع من، بينما يجتاح أبي عند تلك اللحظة نوع من الإحباط ويرغب فقط في العودة مرة أخرى إلى المنزل.

أعتقد أنها كانت ردود فعل متناقضة للحنين نفسه. هاجر أبواي إلى المدينة وهما في عمر الثلاثين، تاركين منطقة «الفينيتو» الريفية التي وُلدت فيها أمي وتربى أبي فيها بعد أن يتمته الحرب. كانت جبالهما الأولى وحبهما الأول هي جبال «الدوليت»، وكانا يذكرانها أحيانًا

t.me/ktabpdf

في أحاديثهما، حتى عندما كنت صغيرًا جدًّا عن أن أتمكن من متابعة أحاديثهما، ولكن كنت أستمع إلى كلمات معينة تبرز كأنها أصوات أكثر رنينًا، وتحوي معنى أكبر. «الكاتيناتشو»، «الساسولونجو»، «التوفاني»، «المارمولادا»[1]. كان يكفي أن ينطق أبي بإحدى تلك الأسماء لتلمع عينا أمي.

كانت هي الأماكن التي فيها وقعا في الحب، وبعد ذلك بقليل فهمت أنا أيضًا: كان هناك قس يأخذهما وهما صبية، وكان القس نفسه هو من زوجهما، أسفل القمم الثلاثة «للافاريدو»[2]، أمام الكنيسة هناك، في صباح أحد أيام الخريف. كان ذلك الزواج الجبلي هو الأسطورة التي أسست عائلتنا. زواج قاطعه والدا أمي لأسباب لم أعرفها، واحتفل به فقط أربعة أصدقاء بالسترات الواقية من الرياح كأنها سترات العرس، وعلى فراش في الملجأ الجبلي «أورونزو» قضيا ليلتهما الأولى كزوج وزوجة. كان الثلج يتلألأ بالفعل فوق نتوءات القمة العظمى. كان يوم سبت من أيام شهر أكتوبر عام 1972، نهاية موسم تسلق الألب لهذا العام، ولأعوام عديدة تالية: في اليوم التالي وضعا في السيارة الأحذية الجلدية، والبناطيل القصيرة، ما تحمله في أحشائها، وعقد التعيين الخاص به، وذهبا إلى ميلانو.

لم يكُن الهدوء أحد الفضائل التي يضعها أبي في الاعتبار، ولكنه في المدينة يحتاج إليه أكثر من الأنفاس. في ميلانو يوجد منظر طبيعي: في

1- أسماء مجموعة من جبال الدوليت الواقعة في شمال إيطاليا:
Catinaccio, Sassolungo, Tofane, Marmolada

2- Tre Cime di Lavaredo: من أشهر المجموعات الجبلية في الألب، تقع ضمن جبال الدوليت.

مكتبة

السبعينيات كنا نسكن في عمارة سكنية تطل على شارع مروري واسع، قيل عنه، أن تحت اسفلته، يوجد مجرى نهر «أولونا». صحيح أنه في الأيام الماطرة يفيض الشارع - وكنت أتخيل النهر تحت الشارع هناك يزأر في الظلام، وينتفخ حتى يفيض من فتحات تصريف المياه - ولكنه كان النهر الآخر، ذلك الذي صنعته السيارات، والشاحنات، والدراجات البخارية، وعربات النقل، والحافلات وعربات الإسعاف التي تسير دائمًا بأقصى سرعة لها. كنا نسكن في الأعلى، في الدور السابع، يضخم الصفان من المباني المتطابقة المتراصة على جانبي الطريق، الضجيج. في بعض الليالي لم يكُن أبي يتحمل هذا، كان ينهض من الفراش، ويفتح النافذة على مصراعيها كأنه يرغب في أن يشتم المدينة ليعيدها إلى الصمت، أو أن يلقي فوقها بالقار المغلي؛ يقف هناك لوهلة لينظر إلى الأسفل، ثم يرتدي سترته ويخرج ليتجول.

من خلال تلك النوافذ الزجاجية كنا نرى مساحة كبيرة من السماء. بيضاء متناسقة، لا تهتم بالفصول، يقطعها فقط طيَّران الطيور. تُصر أمي على زرع الورود في شرفة سوَّدها الدخان وملأها مطر المدينة المستمر بالعفن. في الشرفة تعتني بنبتاتها الصغيرة، وفي أثناء ذلك تحكي لي عن كروم أغسطس/ آب، في الحقل الذي تربت فيه، أو عن أوراق التبغ المعلقة على دعامات في المجففات، أو نباتات الهليون «الاسباراجوس» التي للحفاظ عليها طرية وبيضاء كان لا بد من أن تُقطف قبل أن تبرز، ولذلك يتطلب الأمر مهارة خاصة ليتمكن المرء من رؤيتها تحت الأرض.

t.me/ktabpdf

الآن أصبحت نظرتها الثاقبة تلك؛ تفيدها بطريقة مختلفة تمامًا، فقد عملت كممرضة في «فينيتو»، ولكن في ميلانو، حصلت على منصب إخصائية صحة في حي «الأولمي»، في الضاحية الغربية من المدينة، بين البيوت الشعبية. تخصصًا نشأ حديثًا، مثله مثل عيادات الأسرة التي كانت تعمل فيها، عيادات هدفها مساعدة النساء في أثناء فترة الحمل، ثم متابعة المولود في العام الأول من حياته، وكان هذا عمل أمي، وكانت تحبه. إلا أنه، حيث أرسلوها لتقوم به، كان يشبه كثيرًا عمل الإرساليات. كانت أشجار الدردار في ذلك الحي قليلة جدًّا، كانت كل الأسماء الممنوحة للحي وأسماء شوارعه: أشجار «جار الماء»، و«التنوب»، و«للاركس»، و«البتولة»، توحي بالسخرية بين البنايات المكونة من اثني عشر طابقًا وتغزوها الأمراض من كل نوع. من بين واجبات أمي أيضًا كان فحص البيئة التي ينمو فيها الطفل، وكانت بعض الزيارات تتركها مصدومة لأيام. وفي الحالات الحرجة جدًّا كان عليها الإبلاغ في محاكم القاصرين. يكلفها الوصول لمثل هذا القرار كثيرًا، بالإضافة إلى جرعة ما من الإهانات والتهديدات، إلا أنها لم تكُن تشك قط في أنه القرار الصائب. ولم تكُن الوحيدة التي لديها هذه القناعة، فقد كانت الإخصائيات الاجتماعيات والتربويات والمعلمات مرتبطات في وحدة روحية عميقة، كأنه نوع من الإحساس النسائي الجماعي بالمسؤولية تجاه أولئك الأطفال.

إلا أن أبي كان وحيدًا. كان يعمل ككيميائي في مصنع به عشرة آلاف عامل، مضطرب باستمرار بسبب الإضرابات وعمليات التسريح، وكان أي شيء يحدث هناك بالداخل يجعله يعود في المساء

مشحونًا بالغضب. على العشاء كان يحدق بصمت في التلفاز، معلقًا أدوات الطعام في الهواء، كأنه ينتظر، بين لحظة وأخرى، اندلاع حرب عالمية أخرى، وكان يلعن في سره عند سماع أي خبر خاص باغتيال أحدهم، أي أزمة حكومية، أي ارتفاع في أسعار البترول، أو قنبلة لا أحد يعرف المحرضين عليها. ومع الزملاء القليلين الذين كان يدعوهم إلى المنزل كان يتناقش، فقط تقريبًا، في السياسة، وينتهي الأمر به للشجار. كان يقوم بدور مناهض الشيوعيين مع الشيوعيين، والأصولي مع الكاثوليك، والمفكر الحر مع أي شخص يحاول أن يقيده بكنيسة ما، أو بشعار حزب معين، ولكن لم تكُن تلك الأزمنة التي يمكن للمرء أن ينزع نفسه فيها من كل الانتماءات. وبعدها بقليل توقف زملاء أبي عن التردد على منزلنا. ولكن استمر هو في الذهاب إلى المصنع كأن عليه أن يهبط في خندق المعركة في كل صباح. واستمر في عدم النوم ليلًا، وأن يضغط على الأشياء بقوة زائدة، استمر في وضع سدادات الأذن في أذنيه، وتناول حبوب لألم الرأس، وأن ينفجر في نوبات غضب عنيفة، عندئذٍ تدخل أمي إلى المشهد، وكان من بين واجباتها الزوجية أيضًا واجب تهدئته، وأن تخفف من حدة النزاع بين أبي والعالم.

في المنزل كانا ما زالا يتحدثان لهجة «فينتو»، وكانت تبدو لي كلغة سرية بينهما، صدى لحياة سابقة وغامضة. كانت تبدو كأنها من عبق الماضي مثلها مثل تلك الصور الثلاث التي وضعتها أمي على المائدة الصغيرة في مدخل المنزل. كنت كثيرًا ما أتوقف لأنظر إليها: الأولى تصور والديها في فينتسيا، في أثناء الرحلة الوحيدة التي قاما

t.me/ktabpdf

بهـا في حياتهـما وكانت هدية من جـدي لجدتي بمناسـبة عيد زواجهما الفـضي. وفي الصـورة الثانيـة تقف العائلـة كلها أمام آلـة التصوير في موسـم الحصاد: جداي جالسـين في وسـط المجموعـة، وتقف ثلاث فتيات ومعهن فتى، وحولهم سلال العنب في فناء المزرعة. في الصورة الثالثة، ذلك الابن الذكر الوحيد، خالي، وهو يبتسم بجوار أبي بجوار صليب إحدى القمم، مرتديًا بدلة متسلقي الجبال، وحزمة من الحبال موضوعـة على كتفه. مات خالي في ريعان شـبابه، ولهذا السـبب أحمل اسمه، إلا أنني أنا أدعى بيترو بينما كان اسمه هو بييرو في لغة العائلة. إلا أنني لا أعرف أيًّا منهم. لم يكونا يأخذانني قط لزيارتهم، ولم يزوروا هم ميلانو. في بعض مرات السـنة كانت أمي تأخذ القطار صباح يوم السـبت، وتعود مسـاء الأحد، أكثر حزنًا مما ذهبت، ثم يمضي الحزن وتسـتمر الحيـاة. كانت هنـاك أشـياء كثيرة جـدًا عليها أن تقـوم بها، وأشخاص عليها العناية بهم مما لا يسمح لها بالغرق في الحزن.

ولكـن كان ذلـك المـاضي يقفز خارجًـا حين لا يكـون متوقعًا. في السيارة، وفي أثناء الرحلات الطويلة التي لا بد أن تقلني إلى المدرسة، وأمي للعيادة، وأبي إلى المصنع. كانت هي تبدأ، في بعض الصباحات، في ترديد أغنية قديمة. تبدأ الشـطر الأول في أثناء الزحام، وبعد قليل ينضـم هـو إليها. كانت أغانٍ تنبع من الجبـل في أثناء الحرب الكبرى: «قطار القوات»، «وادي سوغانا»، «شهادة القائد». كانت أغانٍ تحكي حكايـات، كنـت أنا أيضًـا أحفظها عـن ظهر قلب: سـبعة وعشرون رحلـوا إلى الجبهـة عـاد منهم خمسـة فقط. وهنـاك، في ميـدان معركة «البيـافي»، أقيم صليب، سـتأتي أم عن قريب بحثًا عنـه. وهناك بعيدًا

كانت عروس تنتظر، تنتظر، وعندما تعبت من الانتظار تزوجت آخر، وسيرسل لها المحتضر قبلة، ويطلب وردة في المقابل. فهمت من لهجة كلمات تلك الأغاني أن والديّ قد حملاها معهما من حياتهما السابقة، ولكن شعرت أيضًا بشيء مختلف وغريب- أن تلك الأغنيات تحدثت مباشرةً عنهما، لا أعرف لماذا. أقصد أنها تتحدث عنهما هما الاثنين بالتحديد: كيف يمكن تفسير درجة الانفعال التي كان صوتاهما يشي بها بوضوح؟

ثم في أيام نادرة تسودها الرياح، في الخريف، أو الربيع، وفي نهاية شارع ميلانو العريض كانت تظهر الجبال. كان يحدث هذا بعد منعطف ما، فوق جسر علوي، فجأة أمام عيني والدي، دون الحاجة لأن يشير أحدهما إلى الآخر، كانت نظراتهما تحلق على الفور إلى هناك. كانت القمم بيضاء والسماء زرقاء، على غير العادة، شعور عجيب. فهنا في أسفل حيث كنا تعمل المصانع في صخب، والمنازل الشعبية كثيرة الازدحام، المصادمات في الميادين، والأطفال المُساء إليهم، والصبايا الأمهات. أما هناك فوق يوجد الثلج. تسأل أمي عندئذٍ أي الجبال تلك، وينظر أبي حوله كأنه يحرك بوصلة ما في الجغرافيا المدنية. ما هذا، شارع «مونزا» أم شارع «زارا»؟ إذًا إنه جبل «غرينيا»، كان يقول، بعد أن يفكر بعض الوقت في الأمر. أجل، أعتقد أنه هو. أتذكر جيدًا تلك القصة: كانت غرينيا محاربة رائعة الجمال ومتوحشة، كانت تقتل بالسهام الفرسان الذين كانوا يصعدون ليطلبوا حبها، وهكذا عاقبها الله وحولها إلى جبل. والآن ها هي ذي هناك، في زجاج السيارة، تتركنا نُعجب بها، كل منا بفكرته المختلفة والمسكوت عنها.

t.me/ktabpdf

ثم تُفتح الإشارة، ويعبر أحد المشاة بسرعة، يضرب أحدهم من الخلف نفير السيارة، يسبه أبي، ويدعس على ضاغط السرعة بغضب وينطلق من تلك اللحظة الممتعة.

وحلت نهاية السبعينيات، وبينما ميلانو في حالة طوارىء، وضعا هما أحذيتهما الجبلية في أقدامهما. لم يتجها إلى الشرق من حيث أتيا، ولكن إلى الغرب، كأنهما يكملان مسيرة الهروب، سارا تجاه «أوسولا»، «فالسيا»، «فال دوستا»، نحو جبال أكثر ارتفاعًا وأكثر قسوة. حكت لي أمي بعد ذلك أن المرة الأولى كان يغزوها شعور غير متوقع بالقمع. مقارنةً بالمناظر العذبة لجبال «فينيتو» و«تريتنيتو»، كانت تلك الأودية الغربية تبدو لها ضيقة، مظلمة ومغلقة كأنها حناجر، كانت الصخور رطبة وسوداء، ومجاري المياه والشلالات تتساقط في كل مكان. وتساءلت من أين تأتي كل هذه المياه! لا بد أنها تمطر كثيرًا جدًّا هنا. ولم تكُن تُدرك أن كل تلك المياه تنبثق من ينبوع استثنائي تسير هي وأبي نحوه. صعدا الوادي حتى أصبحا في ارتفاع يسمح لهما بالخروج مرة أخرى إلى الشمس، وهناك انفتح المشهد، وفجأة، أمام أعينهما، وجدا جبل «مونتي روزا». عالم القطب الشمالي، شتاء أبدي يحل على المراعي الصيفية. شعرت أمي بالفزع، ولكن أبي كان يقول إن الأمر مثل اكتشاف نظام آخر للعظمة، أن يصل من جبال الآدميين ليجد نفسه في جبال العمالقة. وبطبيعة الحال سقط في حبها من أول نظرة.

مكتبة

لا أعرف موقع ذلك اليوم بالتحديد. من يدري إذا كان جبل «الماكونياغا» أم «الألانيا»، «الغريسوني» أم «الآياس»[1]. كنا نتحرك كل عام، عندئذٍ، متبعين نزعة الغريسوني الترحال القلقة لأبي، وكانت حركتنا كلها في الجبال التي غزاها. أتذكر المنازل أكثر من الوديان، إذا كان يمكن تسميتها بهذا الاسم، كنا نستأجر كوخًا في معسكر، أو حجرة في أحد نُزُل البلدة، وهناك كنا نمكث أسبوعين. لم تكُن هناك قط مساحة كافية لتجعل تلك الأماكن مُريحة، ولا الوقت الكافي ليرتبط المرء بأي شيء، ولكن لم تكُن تلك الأشياء تهم أبي كثيرًا، بل لم يكُن حتى يدركها. بمجرَّد أن نصل، كان يبدل ملابسه، يأخذ من الحقيبة قميصه المربع، والبنطال القطيفة، الكنزة الصوفية، ومن جديد، في ملابسه القديمة يصبح رجلًا آخر. كان يقضي تلك الإجازة الصغيرة يتجول بين المعابر، يخرج في الصباح الباكر ويعود في المساء أو في اليوم التالي، مغطى بالأتربة، ومحروقًا من الشمس، متعبًا وسعيدًا. وعلى العشاء يحكي لنا عن حيوانات الشاماواه أو وعول الجبل عن النوم في العراء ليلًا والسماء المغطاة بالنجوم، عن الثلج الذي يسقط أيضًا في شهر أغسطس/ آب على هذا الارتفاع، وعندما يكون مسرورًا بالفعل، يختتم قائلًا: كنت أتمنى بالفعل أن تكونا هناك معي.

واقع الأمر أن أمي كانت ترفض أن تصعد على الجليد. تخاف من ذلك خوفًا غير منطقي لا يتزعزع، كانت تقول إن الجبل بالنسبة إليها ينتهي على ارتفاع ثلاثة آلاف متر، ارتفاع جبالها، جبال الدولميتي.

1- Macugnaga, Alagna, Gressoney, Ayas.

t.me/ktabpdf

وتفضل أيضًا ارتفاع الألفين عن الثلاثة -المروج ومجاري المياه، والغابات - وتحب أيضًا كثيرًا ارتفاع الألف، حياة تلك القرى المصنوعة من الخشب والحجارة. عندما كان يخرج أبي كانت تحب أن تخرج لتتمشى معي، وتحتسي القهوة في الميدان، تقرأ لي كتابًا ونحن جالسان في أحد المروج، وتثرثر قليلًا مع من يمر. إلا أنها كانت تعاني من تنقلاتنا الكثيرة. كانت تريد منزلًا تجعله منزلها، وبلدة تعود إليها، كانت تطلب ذلك كثيرًا من أبي. وكان هو يقول إنه لا يوجد ما يكفي من النقود لدفع إيجار منزل آخر، بخلاف ذلك الذي في ميلانو، واقترحت هي مبلغًا يسمح بذلك، وفي النهاية وعدها هو بأن يبدأ البحث.

في المساء، وبمجرَّد أن تُجمع بقايا العشاء، كان أبي يبسط على المائدة خريطة، ويبدأ في دراسة مسار اليوم التالي. يضع بجانبه كتابًا صغيرًا رماديًا للكاي[1] (لنادي الألب الإيطالي) ونصف كأس من الجرابّا، يحتسيه من حين إلى آخر. و تستمتع أمي بنصيبها في الحرية، بأن تجلس على الأريكة أو على الفراش، وهي غارقة في رواية ما، تختفي بداخلها لساعة أو لساعتين كمن انتقل لمكان آخر. وكنت أنا أصعد، عندئذٍ، على ركبتي أبي لأرى ما يفعله. أجده سعيدًا، كثير الكلام، متناقضًا تمامًا مع الأب الذي كنت معتادًا عليه في المدينة. كان مسرورًا بأن يطلعني على الخريطة وأن يعلمني كيف تُقرأ. هذا مجرى مائي، يشير لي، وهذه بحيرة صغيرة، وهذه هي مجموعة من الأكواخ الجبلية. وهنا

1- CAI: Clup Alpino Italiano تأسس في تورينو عام 1863، وهي أقدم مؤسسة لمتسلقي الألب وهواة تسلق الجبال الإيطالية.

مكتبة

مـن اللون يمكنك أن تميز الغابة، هذا مـرج ألبي، وهذه حصاة، كتلة جليديـة. وهذه الخطـوط المنحنية تشـير إلى الارتفـاع: وكلما ازدادت الخطـوط تقاربًـا أو تلاصقًـا ، ازدادت حِـدة الجبـل، إلى الدرجة التي يسـتحيل معها تسـلقهِ، وهنا حيـث ندرة الخطوط المـكان عذب وتمر خلالـه الطرقـات، أتـرى؟ هذه الخطـوط التـي تعلم الارتفاع تشـير إلى القمـم. ونحـن سـنذهب فوق القمم. سـننزل فقـط عندما يكون الصعود مستحيلًا. هل تفهم هذا؟.

لا، لم يكُـن باسـتطاعتي أن أفهـم. كان لا بـد لي أن أراه، ذلـك العـالم الـذي يجلب إليـه كل تلك السـعادة. سـنوات بعدهـا، عندما بدأنـا الذهـاب معًا، يقول أبي إنه يتذكر بوضوح شـديد كيف ظهرت موهبتي. في صباح أحد الأيام كان هو على وشـك الخروج بينما كانت أمي نائمة، وبينما هو يربط رباط حذائيه الجبليين وجدني أمامه، مرتديًا ملابسي ومسـتعدًا لمرافقتـه. لا بد أنني جهزت نفسـي وأنا في فراشي. وفي الظـلام أفزعتـه، كأنني أكبر بكثير من أعوامي السـتة أو السـبع، كنـت بالفعـل ذلك الذي سـأصبحه في ما بعد، حسـب حكايته، كان حدسًا داخليًا لما سيكونه الابن الناضج، شبحًا من المستقبل.

– ألا تريد أن تستكمل النوم قليلًا؟ سألني بصوت منخفض حتى لا يوقظ أمي.

– أنـا أريد أن أذهب معك، أجبتـه، أو هكذا يؤكد هو: ولكن ربما كانت فقط العبارة التي يحب أن يتذكرها.

t.me/ktabpdf

مكتبة

الجزء الأول

جبل الطفولة

t.me/ktabpdf

مكتبة

واحد

كانـت بلدة «غرانا» تقع في ضاحية أحـد تلك الأودية، يجهلها من يمـر من هنـاك كأنها مكان لا جـدوى له، فهي محاطة مـن أعلى بقمم حديديـة رماديـة، ومن أسـفل بجـرف يعـوق الدخول إليهـا. وعلى الجـرف، تحـرس أطـلال أحد الأبـراج الحقـول التي أصبحـت برية. يوجد بها طريق ترابي يتفرع عن ذلك الإقليمي ويصعد بشـكل حاد، في دوائر حتى قدم البرج، بتجاوزه يسـتمر بشكل أقل حدة، ثم يدور حول الجبل ويؤدي إلى منتصف وادٍ عريض، ثم يسـتكمل في انحدار خفيف. كنا في شـهريوليو/ تموزعندما اتخذناه، سنة 1984. في الحقول كانوا يقطعون العشـب. كان الوادي الكبير أكثر اتسـاعًا مما يبدو عليه من أسـفل، كلـه غابات في الجـزء الواقع في الظل وشرفـات في الجزء الواقع في الشمس، وهناك في الأسفل، بين بقع الأحراش الأكثر كثافة

t.me/ktabpdf

يجري نهر، لمحته يلمع من حين إلى آخر، وكان هذا أول شيء يعجبني في «غرانا». كنت أقرأ روايات مغامرات تلك الحقبة، وجذبني مارك توين نحو حب الأنهار. أفكر أن فيها يمكن الصيد، والغوص والعوم، قطع بعض غصون الأشجار وبناء طوافة، ومأخوذًا بتلك الخيالات لم أدرك البلدة التي ظهرت بعد انحناءة.

قالت أمي: إنه هناك، تقدم ببطء.

أبطأ أبي السيارة كأننا نسير على الأقدام. منذ أن رحلنا كان يتبع بخضوع إرشاداتها. أحنى رأسه وأخذ ينظر يمينًا ويسارًا، في الأتربة التي ترفعها السيارة، وهو ينظر إلى الإسطبلات والحظائر، ومخازن التبن الخشبية، المباني المحطمة، الجرارات على حافة الطريق، ورزم التبن.

خرج كلبان أسودان يتعلق برقبة كل منهما جرس من أحد الممرات. في ما عدا منزلين جديدين، تبدو كل البلدة مبنية من الحجر الرمادي نفسه للجبل، وكانت تمكث فوقه كأنها نتوء صخري، أو انهيال صخري قديم، وفي الأعلى بعض الشيء، كانت النعاج ترعى.

لم يقل أبي شيئًا. أمي، التي اكتشفت ذلك المكان بمعرفتها، جعلته يوقف السيارة في أحد الميادين، ونزلت منها، وذهبت تبحث عن صاحبة المنزل، في الوقت الذي بدأنا نحن فيه إنزال الحقائب.

أحد الكلبين أتى نحونا ينبح، وفعل أبي شيئًا لم أره يفعله قط، مد له إحدى يديه ليشمها، ثم قال له كلمة لطيفة، وربت عليه بين أذنيه. ربما يجيد التصرف مع الكلاب أكثر من بني جنسه.

مكتبة

سألني بينما يفك الحبال عن ناقلة الأمتعة: إذًا، كيف يبدو لك المكان؟

كنت أود لو أجبته «رائع الجمال». حيث أحاطت بي رائحة التبن، والإسطبلات والخشب، والدخان ومن يدري ماذا أيضًا، بمجرَّد أن ترجلت من السيارة، حاملةً معها الكثير من الوعود. ولكنني لم أكن متأكدًا من أنها الإجابة الصحيحة، وهكذا قلت: لا بأس، وماذا عنك؟

هز أبي كتفيه. رفع عينيه فوق الحقائب وألقى نظرة على الكوخ الواقع أمامنا. كان منحنيًا من ناحية، وربما يسقط دون القائمتين اللتين ترفعانه. وفي داخله تقبع كرات من التبن، وفوق التبن يوجد قميص من الجينز خلعه أحدهم ونساه في الداخل.

قال: لقد كبرت في مكان كهذا.

دون أن يدعني أفهم إذا كانت تلك ذكرى جيدة أو سيئة.

أمسك بمقبض حقيبة، وبينما هو على وشك أن يشدها، خطر بباله شيء آخر. نظر إليَّ بفكرة في ذهنه، لا بد أنها كانت تسليه كثيرًا.

- في رأيك، هل يمكن للماضي أن يتكرر مرة أخرى؟

قلت، حتى لا أقع في إجابة خاطئة: صعب.

كان يطرح دائمًا عليَّ أحجيات من هذا النوع. كان يرى فيَّ ذكاءً يشبه ذكاءه، مُعدًا للمنطق وللرياضيات، ويظن أنه من واجبه أن يدربه.

t.me/ktabpdf

قال: انظر إلى هذا المجرى، هل تراه؟ فلنفترض أن المياه هي الزمن الذي يمضي. وهنا حيث نقف الحاضر، في أي اتجاه تظن يوجد المستقبل؟

فكرت. أحجية صعبة. وأعطيته أكثر إجابة وضوحًا: المستقبل يوجد حيث تجري المياه، من هنا لهناك.

أجاب أبي بحسم: خطأ! لحسن الحظ.

ثم كأنه أزال حملًا عن كاهله، قال: «أوبالا»، وهي الكلمة التي كان يستخدمها حتى عندما يحملني، وسقطت الحقيبة الأولى من اثنتين على الأرض بصوت مكتوم.

يقع المنزل الذي استأجرته أمي في الجزء الأعلى من البلدة، في ساحة تحيط بحوض ماء صالح للشرب. تُميز البلدة علامات حقبتين مختلفتين: العلامة الأولى هي الأسوار والشرفات المصنوعة من خشب اللاركس الداكن، والأسقف من ألواح تغطيها الطحالب، والمدخنة الكبيرة التي يغطيها السخام، من أصول عتيقة. والحقبة الثانية تبدو قديمة. حقبة كانت يوضع فيها، داخل المنازل، مشمع اللينوليوم لفرش الأرضية، وورق حائط مزين بالزهور، وتثبت فيه الخرانات المعلقة والحوض في المطبخ، التي عليها الآن بقع الرطوبة وقد فقدت لونها. الشيء الوحيد الذي يبدو أنه هرب من ضآلة الجودة تلك، كان موقدًا أسود اللون، مصنوعًا من حديد الزهر، ضخمًا ومتينًا، بمقبض من النحاس وأربعة مشاعل للطهو. لا بد أنه جُلب من مكان آخر، ومن حقبة زمنية أخرى أيضًا. ولكن أعتقد أن أكثر ما أعجب أمي

مكتبة

هـو ما لم يكُن موجودًا، لأنها وجدت أكثر بقليل من مجرَّد منزل فارغ، وطلبت من صاحبة المنزل إذا كان من الممكن ترتيبه، واكتفت هي بأن أجابت: افعلوا ما يحلو لكم.

لم تكُـن تؤجره منذ أعوام، ومن المؤكد أنها لم تكُن تتوقع أن تؤجره ذلـك الصيـف. كان أسـلوبها خشـنًا ولكن لم تكُـن فظـة. أعتقد أنها شعرت بالحرج، حيث كانت تعمل في الحقل، ولم تتمكن من استبدال ملابسها. سـلمت لأمي مفتاحًا ضخمًا من الحديد، وشرحت لها شيئًا مـا حول اسـتخدام الميـاه السـاخنة، واعترضـت قليلًا قبـل أن تقبل الظرف الذي جهزته لها أمي.

لم يكُن أبي موجودًا منذ بعض الوقت. بالنسـبة إليه أي منزل يشـبه الآخـر، وفي اليـوم التـالي لا بـد أن يعـود إلى المكتـب. خـرج ليدخن في الشرفـة، واضعًـا يديـه عـلى مقبـض السـور المصنوع من الخشـب الخشـن، متطلعًا نحـو القمم الجبلية. بدا كأنه يدرسـها ليفهم من أين يبـدأ هجومـه. دخل بعـد أن رحلت صاحبة المنـزل، وهكذا وفر على نفسه التحيات، وحل عليه مزاج سيئ، وقال إنه سيذهب ليبتاع شيئًا للغداء لأنه يريد أن يتخذ طريق العودة قبل المساء.

في ذلـك المنـزل، بمجرَّد أن رحل هـو، عادت أمي إلى نسـخة من نفسـها لم أكـن قـد عرفتها مـن قبل. في الصبـاح، بمجرَّد أن تسـتيقظ مـن الفراش تراكـم الحطب في المدفأة، ثم تكرمـش ورقة من صحيفة وتحـك عود ثقـاب في خشـونة الخشـب. ولم يكُـن يزعجهـا الدخان المنتـشر عندئـذٍ في المطبـخ، ولا الغطاء الـذي نضعه فوقنـا حتى يتدفأ

t.me/ktabpdf

المنـزل، ولا الحليب الذي تسـخنه أكثر من الـلازم ويحترق على لهيب النار المتأججة. للإفطار تعطيني خبزًا محمصًا ومربى. تحممني أسـفل الصنبور، وتغسل لي وجهي وعنقي وأذنيّ، ثم تجففني بمنشفة المطبخ، وترسـلني للخارج: هناك حيث الريح والشمس، ربما أفقد بعضًا من رقة تركيبتي المدنية.

في تلـك الأيـام أصبح المجـرى النهري هـو منطقة استكشـافي. كانت لـدي منطقتان حدوديتـان ممنوعًا عليَّ تجاوزهمـا: أعلى، فوق جسر صغير من الخشـب وراءه كانت الأنهار أكثـر سرعة، وتنتهي بمضيـق، وتحت في منطقة الغابة الواقعة أسـفل الجـرف حيث تتبع الميـاه مسـاراتها حتى قاع الـوادي. ذلك هو الطريق الذي تسـتطيع أمـي أن تراقبـه من شرفة المنزل، ولكن بالنسـبة إليَّ كان بمثابة النهر بأكملـه. يصل المجرى إلى أسـفل في اندفاعات قويـة في البداية، ثم يسـقط في سلسـلة من الزبد السريع بين كتل الحجارة الضخمة التي كنـت أتطلع مـن ورائها لأراقب الانعكاسـات الفضيـة في العمق. في نقطة أبعد يبطئ من حركته ويسـكن كأنه شـاب تحول لشـخص راشـد، ويقطـع جـزرًا صغيرة تحتلهـا أشـجار البتـولا، حيث كان يمكنني العبور قفزًا حتى الشـاطئ المقابل. وفي ما وراء ذلك يشكل تشابك الأخشاب حاجزًا. وعند تلك النقطة ينزل وادٍ عميق، وكان الانهيار الثلجي في الشـتاء هو ما جذب لأسفل الجذوع والأغصان التي تسـير الآن على المياه، ولكنني لم أكن أعرف شـيئًا عن كل تلك الأمـور في تلك الحقبة. بالنسـبة إليَّ كانت لحظة مـن لحظات حياتي التـي فيهـا يوجد عائق في مجرى النهر، وأنه يتوقف ويسـتقر. في كل

مكتبة

مـرة ينتهي الأمر بأن أجلس هناك، لأنظر إلى الطحالب التي تتموج بالكاد أسفل السطح.

كان هنـاك صبي صغير يرعى أبقاره في المراعـي القريبة من النهر. في رأي أمي كان ابن شـقيق صاحبـة منزلنا. كان يحمل دائمًا معه عصًا صفـراء بلاسـتيكية، ذات مقبـض منحـنٍ ينخـس الأبقـار مـن أحد جانبيها ليدفعها إلى أسفل تجاه العشب. كان عددها سبعًا، شابة، كلها بلون الكستناء، وكانت قلقة. ينتهرها الصبي عندما تسير على هواها، ويجـري أحيانًـا خلف واحـدة أو الأخرى وهو يسـب، بينما في طريق العـودة وهو يعـاود صعود المنحـدر يلتفت خلفه لينـادي عليها وهو يصيـح: أوه، أوه، أوه، أو إيه، إيه، إيه، حتى تتبعه هي، رغمًا عنها، إلى الإسطبل. في المرعى يجلس ويراقبها من أعلى، وهو يحفر قطعة خشب صغيرة بمطواة.

قـال لي في المـرة الوحيدة التـي تحدث فيها معـي: لا يمكنك البقاء هنا.

سألته: لماذا؟

- لأنك تدوس العشب.

- وأين يمكنني المكوث؟

- هناك.

وأشـار إلى الشـاطئ الآخر للمجـرى. لم أكن أرى كيـف يمكنني الوصـول، مـن حيـث أقـف، ولكـن لم أرغـب في أن أسـأله، ولا أن أتفـاوض معه على الانتقال فوق عشـبه. وهكذا دخلت إلى المياه دون

t.me/ktabpdf

أن أخلع حذائي. حاولت أن أسير مستقيمًا في التيار، وألا أظهر أي تردد، كأن عبور الأنهار شيء أفعله بشكل يومي. عبرت، وجلست على صخرةٍ، ببنطالي المبلل، وحذائي تتقطر منهما المياه، ولكن عندما استدرت لم يكُن الصبي يهتم بأمري.

قضينا أيامًا بهذه الطريقة، هو على ضفة وأنا على الأخرى، ولم يتنازل أحدنا وينظر إلى الآخر.

سألتني أمي ذات مساء أمام المدفأة: لماذا لا تذهب وتصادقه؟

كان المنزل متشبعًا بالرطوبة بسبب الشتاءات القوية، وهكذا أشعلنا النيران للعشاء ثم جلسنا لنستدفئ حتى الساعة التي نذهب فيها للنوم. كان كل منا يقرأ كتابه، ومن حين إلى آخر وبين صفحة وأخرى، تشتعل النيران من جديد ومعها الحوار. والمدفأة السوداء الضخمة تستمع إلينا.

أجبت: ولكن ماذا أفعل، لا أعرف ماذا أقول.

- قل له مرحبًا واسأله عن اسمه، واسأله عن اسم البقرات.

- أجل، تصبحين على خير.

قلت وأنا أتظاهر بالانهماك في القراءة.

في العلاقات الاجتماعية كانت أمي متقدمة بالفعل عني كثيرًا. فبينما أكتشف أنا المجرى المائي ونظرًا لعدم وجود متاجر في البلدة، اكتشفت هي الإسطبل حيث يمكنها ابتياع الحليب والجبن، والبستان الذي يبيع بعض أنواع الخضراوات، وورشة النشارة التي منها يمكنها

مكتبة

شراء بقايا الخشب. واتفقتْ أيضًا مع العامل في معمل الألبان الذي يمر صباحًا ومساءً في شاحنته ليجمع زجاجات الحليب الفارغة، أن يحضر إليها الخبز وبعض المشتريات. ولا أعرف كيف، بعد أسبوع، علقت مزهريات في الشرفة وملأتها بالجارونيا. الآن أصبح منزلنا يُعرف من بعيد، وسمعت بالفعل السكان النادرين في «غرانا» يحيونها وهم ينادونها باسمها.

قلت، بعد دقيقة واحدة: على العموم الأمر غير مهم.

- ما هو الأمر غير المهم؟

- تكوين الصداقات. يعجبني أيضًا البقاء بمفردي.

قالت أمي: آه فعلًا؟ ورفعت عينيها عن الصفحة ودون أن تبتسم، كأن الأمر يتعلق بمسألة في غاية الجدية، أضافت: هل أنت جاد؟

وهكذا قررت أن تساعدني. ليس للجميع الرأي نفسه، ولكن تعتقد أمي بشدة بضرورة التدخل في حياة الآخرين. بعد ذلك بيومين، وفي المطبخ نفسه، وجدت صبي الأبقار يتناول الإفطار جالسًا على مقعدي. في الحقيقة، شممت رائحته قبل أن أراه، لأنه كان ما زال يحمل رائحة الإسطبل، والتبن، والحليب المتخثر، والأرض الرطبة، ودخان الخشب، التي بالنسبة إليَّ، منذ تلك اللحظة، أصبحت رائحة الجبل، وعثرت عليها في أي جبل في العالم. كان يُدعى برونو غوليلمينا. وكان اللقب هو لقب الجميع في «غرانا»، أخذ يشرح لي، ولكن الاسم برونو، هو اسمه هو فقط. كان أكبر مني ببضعة أشهر، نظرًا إلى أنه هو أيضًا قد وُلد عام 1972، ولكن في شهر نوفمبر. إلتهم

t.me/ktabpdf

البسكويت الذي قدمته أمي إليه كأنه لم يأكل مثله قط في حياته كلها. والاكتشاف الأخير: لم أكن فقط من يراقبه هناك في المرعى، ولكنه هو أيضًا كان يدرس تصرفاتي، بينما كلانا يتظاهر بتجاهل الآخر.

قال لي: أنت تحب النهر، أليس كذلك؟

- أجل.

- أتعرف السباحة؟

- بعض الشيء.

- والصيد؟

- لا أعتقد.

- تعالَ، سأريك شيئًا.

قال هكذا وقفز من المقعد، تبادلت النظرات مع أمي، ثم هرعت خلفه دون أن أفكر في الأمر مرتين.

أخذني برونو في مكان كنت أعرفه، حيث النهر يمر في ظل الجسر الصغير. وبصوت هامس، عندما أصبحنا على الضفة، أمرني بأن أصمت بقدر المستطاع واختبئ، ثم وضع نفسه خلف صخرة، ما يكفي فقط ليتجسس من هناك. وبيده أشار لي أن أنتظر. وبينما أنتظر كنت أنظر إليه، كان شعره أشقر فاتحًا، وعنقه قد حرقته الشمس. يرتدي بنطلونًا أكبر من حجمه، مثنيًا إلى كاحليه وساقطًا على وسطه، صورة هزلية لرجل ناضج. تشبه طريقته أيضًا طرق الراشدين، بشيء من الجدية في صوته وفي إيماءاته. بإشارة من يده أمرني بأن ألحق به

مكتبة

وأطعته. برزت من خلف الصخرة لأنظر حيث ينظر هو. لم أكن أعرف ما يجب أن أراه، هناك في الخلف يكوِّن المجرى شلالًا صغيرًا، وبئرًا صغيرة مُظللة، عميقة ربما إلى مستوى الركبتين. كانت المياه تتحرك على السطح، هائجة بسبب خضخضة السقوط. على الحواف تطوف رغاوٍ بارتفاع إصبع، وفرع ضخم محشور بالعرض جمع فوقه العشب والأوراق الساقطة. لم يكُن منظرًا استثنائيًا، مجرَّد مياه تجري إلى الأسفل على الجبل، إلا أنها تسحرني في كل مرة ولم أكن أعرف السبب.

بعد فترة حدقت في أثنائها بشدة في البئر ورأيت السطح ينكسر بعض الشيء، أدركت أن هناك شيئًا حيًّا هناك بالداخل. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة ظلال صغيرة بخطامها ضد التيار، فقط الذيل يتحرك ببطء أفقيًا. وأحيانًا تنتقل تلك الظلال فجأة وتتوقف في نقطة أخرى، وأحيانًا أخرى تبرز بظهرها، ثم تهبط إلى الأسفل، ولكن شاخصة دائمًا نحو شلال المياه. كنا نقف تجاه الوادي أكثر، ولهذا لم أكن قد رأيتها بعد.

همست: هل هي سلمون مرقط؟

قال برونو: أسماك.

- وتوجد هنا دائمًا؟

- ليس دائمًا. أحيانًا تغير مخبأها.

- ولكن ماذا تفعل؟

- تصطاد.

t.me/ktabpdf

أجاب هو، وكان الأمر يبدو له طبيعيًا جدًّا، بينما أتعلمه أنا فقط في تلك اللحظة. لطالما فكرت في أن السمك يسبح في اتجاه الماء، حيث إنه الاتجاه الأسهل، وأنه لا يهدر طاقته في مقاومة التيار. وكانت أسماك السلمون تحرك أذيالها بما يكفي لتبقى ساكنة. وكنت أريد أن أعرف ماذا تصطاد. ربما البعوض الذي رأيته يدور على سطح الماء، ويبقى فوقه كأنه سقط في فخ. راقبت المشهد لبعض الوقت في محاولة لأفهمه أكثر، قبل أن يكتفي برونو فجأة، ويقف على قدميه ويحرك ذراعيه، وفي لحظة كانت أسماك السلمون تهرب بسرعة. ذهبت لأرى. هربت من وسط البئر إلى كل اتجاه. نظرت في المياه وكان كل ما رأيته هو الحصى الأبيض والأزرق في الأعماق، ثم كان عليَّ أن أترك المكان لأتبع برونو الذي عاود صعود الضفة المقابلة للنهر.

وهناك في أعلى بعض الشيء يوجد مبنى منعزل يطل على النهر كأنه منزل أحد الحراس، تحول لأطلال بين القُراص والعليق، وأعشاش الدبابير التي جففتها الشمس. في البلدة عديد من الأطلال مثل هذا. وضع برونو يديه على الجدران الحجرية، حيث أمسك بزاوية كلها شقوق، ورفع نفسه لأعلى، وبحركتين سريعتين وصل إلى نافذة الطابق الأول.

نظر من فوق وقال: هيا! ولكنه بعد ذلك نسي أن ينتظرني، ربما لأن الأمر يبدو له يسيرًا، أو ربما لم يخطر بباله أنني سأحتاج إلى مساعدة، أو فقط لأنه معتادًا على هذا، فكل شخص عليه التصرف بمفرده سواء كان الأمر سهلًا أم صعبًا. قلدته على قدر استطاعتي. شعرت بالحجر

مكتبة

قاسيًا، فاترًا وجافًا أسفل أصابعي. تعلقت بذراعي على عتبة النافذة، نظرت في الداخل ورأيت برونو وهو ينحني خلال باب السقيفة الصغير على السلم الذي يقود إلى الحجرة السفلى، وكنت قد قررت بالفعل أن أتبعه حيثما يذهب.

هناك في الأسفل، في شبه الظلام، كانت توجد قاعة مقسمة بجدران منخفضة إلى ثلاث حجرات متساوية المساحة كأنها خزانات، تثقل الهواء رائحة عطن وخشب متعفن. وبالتدريج، وحينما اعتادت عيناي على الظلام، رأيت أن الأرض تغطيها معلبات، وزجاجات وصحف قديمة، وقمصان تحولت لأسمال، وأحذية بلا نعول، وأجزاء من معدات غطاها الصدأ. كان برونو منحنيًا على صخرة كبيرة ملمعة على شكل عجلة موضوعة في زاوية إحدى الحجرات.

سألته: ما هذا؟

قال: حجر الرحى. ثم أضاف: حجر المعصرة. انحنيت بالقرب منه لأنظر، كنت أعرف ما هو حجر الرحى، ولكنني لم أكن قد رأيته قط بعيني. مددت يدي. كان ذلك الحجر باردًا، ناعمًا، وفي الثقب المركزي تكون شيء كالطحالب يترك أثرًا على أطراف الأصابع كأنه طين أخضر. شعرت بذراعي تحرقانني من خشونة الحجر السابق.

قال برونو: لا بد أن نقيمه.

- لماذا؟

- هكذا يمكنه أن يدور.

t.me/ktabpdf

- ولكن إلى أين؟

- كيف إلى أين؟ إلى أسفل، أليس كذلك؟

هززت رأسي، لأنني لم أفهم. شرح لي برونو بصبر: سنقيمه، وندفعه إلى الخارج، ونلقي به إلى أسفل في النهر. عندئذٍ ستقفز الأسماك خارج النهر، وسيمكننا التهامها.

بدت الفكرة رائعة ومستحيلة في الوقت نفسه. كان ذلك الحجر الرهيب ثقيلًا جدًّا بالنسبة إلينا، ولكن تخيّلهُ وهو يدور إلى الأسفل فكرة جميلة جدًّا، وكان أيضًا شيئًا جميلًا تَخَيُّل أننا جديران بفعل الكثير، وهكذا قررت ألا أعترض. لا بد أن أحدهم قد جرب هذا بالفعل، حيث كان يوجد وتدان لفلق الأخشاب، أسفل حجر الرحى، محشوران بين الحجر والأرضية. كانا قد وُضعا بما يكفي لرفع الحجر من الأرض. وجد برونو عصى ضخمة، ذراع بلطة أو جاروف، وبصخرة بدأ يدقها داخل ذلك الشق كأنها المسمار. وعندما دخلت، دفع الصخرة أسفل الذراع وأوقفها بقدمه.

قال: الآن ساعدني.

- ماذا يجب عليَّ أن أفعل؟

وذهبت لأقف بجواره. كان علينا أن ندفع نحن الاثنان باتجاه الأسفل، مستخدمين ثقل جسدينا لرفع حجر الرجى. وهكذا انحنينا فوق الذراع، وعندما ارتفعت قدماي عن الأرض شعرت، للحظة، أن الحجر الضخم قد تحرك. كان النظام الصحيح، ذلك الذي ابتكره

مكتبة

برونو، وربما مع رفعة أفضل يمكن أن ينجح، ولكن انحنى ذلك الخشب القديم أسفل ثقلينا، تشقق، وفي النهاية تكسر فجأة، وطرحنا أرضًا. جرح برونو إحدى يديه. سب وهزها في الهواء.

سألته: هل تأذيت؟

مكتبة

- حجر قذر- قال وهو يمتص الجرح- إن آجلًا أم عاجلًا سأحركك من هنا.

صعد على السلالم واختفى فوق يدفعه غضب مفاجئ، وبعد قليل سمعته يقفز إلى أسفل من النافذة ويجري بعيدًا.

في تلك الليلة على فراشي لم أستطع النوم. كانت الإثارة هي ما أبقتني يقظًا: فقد أتيت من طفولة وحيدة، ولم أكن معتادًا على أن أفعل الأشياء مع أحد. وكنت أعتقد، أيضًا في هذا، أنني أشبه أبي. ولكن ذلك اليوم اختبرت شيئًا ما، شعورًا مفاجئًا بالحميمية يجذبني ويفزعني في آن، كأنه شعور العبور إلى أرض مجهولة. لأهدئ نفسي بحثت عن صورة في ذهني. فكرت في مجرى النهر، والبئر، والمسقط الصغير، والسلمون وهو يحرك ذيله ليبقى ثابتًا، في أوراق الشجر وغصونه التي تجري بعيدًا. ثم في صورة السلمون وهي تطير لملاقاة فريستها. بدأت في فهم أمر ما، وهو أن كل الأشياء، بالنسبة إلى سمكة نهرية، تأتي من الجبل، الحشرات والأوراق وكل شيء آخر. ولهذا كانت تنظر إلى أعلى، في انتظار ما سوف يجيء. فإذا كانت اللحظة التي تغوص فيها في النهر هي الحاضر، فكرت، إذًا فالماضي هو المياه التي غطتك، تلك التي تذهب إلى أسفل، حيث لا يوجد شيء لك،

t.me/ktabpdf

بينما المستقبل هو المياه التي تندفع من أعلى، حاملةً معها المخاطر والمفاجآت. الماضي يوجد في الوادي، بينما المستقبل في الجبل. إذًا هكذا كان يجب أن أجيب أبي. فأيما كان القدر، فهو يسكن في الجبال التي تحلق فوق رؤوسنا.

ثم ببطء أيضًا تلاشت هذه الأفكار ومكثت أستمع. الآن أصبحت معتادًا على الضوضاء الليلية، كنت أستطيع التعرف عليها واحدة واحدة. هذه، فكرت، هي نافورة الشرب. وهذا صوت جرس كلب يسير في الليل. وهذا الطنين الكهربائي للمصباح الوحيد في «غرانا». سألت نفسي إذا كان برونو في فراشه يستمع إلى الأصوات نفسها. قلبت أمي صفحة في المطبخ بينما كانت طقطقة المدفأة تهدهدني نحو النعاس.

حتى نهاية شهر يوليو، لم يمر يوم دون أن نلتقي، سواء كنت أنا من يلحق به في المرعى، أو يشد برونو حبلًا حول بقراته، ويربطها في بطارية إحدى العربات ويأتي إلى مطبخنا. أعتقد أنه كان يحب أمي أكثر من البسكويت. يحب عنايتها. تسأله هي مباشرةً، دون الدوران حول الكلمات، كما تفعل عادةً في عملها، ويجيبها هو بكل فخر، حيث إن قصته تهم سيدة من المدينة، ودودة جدًّا. قص علينا كيف أنه أصغر سكان «غرانا»، وأنه الصبي الأخير في البلدة نظرًا إلى أنه لا يوجد أحد آخر على وشك الوصول. أبوه يظل بعيدًا جزءًا كبيرًا من العام، ولا يراه إلا نادرًا، فقط في الشتاء، وبمجرَّد أن يشعر باقتراب نسائم الربيع يعاود الرحيل إلى فرنسا أو إلى سويسرا، أو إلى أي مكان يوجد

مكتبة

فيه موقع بناء بحاجة إلى عمال. بينما في المقابل، لم تتحرك أمه قط من هنا، لديها في الحقول فوق المنازل بستان وحظيرة دجاج، ومعزتان، ومناحل، وكان همها الوحيد هو العناية بمملكتها الصغيرة تلك. عندما وصفها، فهمت على الفور من تكون. كانت امرأة قد رأيتها بالفعل، أحيانًا تدفع عربة يد، وأحيانًا أخرى تحمل فأسًا وجرافة، وكانت تتخطاني برأس منحنٍ دون حتى أن تدرك من أكون. تسكن هي وبرونو منزل أحد أعمامه، زوج صاحبة منزلنا، الذي يملك بعض الماشية وأبقارًا للحلب. الآن هذا العم موجود في الجبل مع ابني العم الأكبر سنًا: أشار برونو إلى النافذة التي منها في تلك اللحظة لم أكن أرى سوى غابات وأحجار، وأضاف أنه سيلحق بهم هناك في أغسطس/ آب، مع الأبقار الأصغر سنًا التي سيتركونها هناك.

سألت: في الجبل؟

- أعني في المراعي الجبلية. هل تعلم ما هو المرعى الجبلي؟

هززت رأسي بالنفي.

قاطعته أمي: وهل أعمامك يعاملونك معاملة حسنة؟

- بالطبع، قال برونو، لديهم الكثير ليشغلهم.

- ولكنك تذهب إلى المدرسة؟

- نعم، نعم.

- وهل تعجبك؟

هز برونو كتفيه. لم ينجح في أن يقول نعم، حتى وإن كان ذلك سيفرحها.

t.me/ktabpdf

- وهل يحب أبوك وأمك كلاهما الآخَر؟

عندئذٍ نظر بعيدًا. زم شفته في حركة ربما تعني لا، أو ربما قليلًا، أو أن ذلك ليس موضوعًا نتحدث عنه. إجابة كافية توقف إلحاح أمي، إذ أدركت أن في هذا الحوار شيئًا ما لا يعجبه. لولا هذا، لما تركت الموضوع.

عندما نتواجد أنا وبرونو بمفردنا لم نكن نتحدث قط عن عائلتينا. كنا نتجول حول القرية ولكن لم نبعد قط عن بقراته التي ترعى. ولنخوض المغامرات كنا نكتشف المباني المهجورة. في «غرانا» يوجد منها أكثر مما نتمنى، إسطبلات قديمة، وأجران قديمة، ومخازن حبوب، ومحل قديم بأرففه التي تغطيها الأتربة، وفرن خبز قديم مغطىً بالسواد من كثرة الدخان. أينما ذهبنا توجد الحطام نفسها التي عثرنا عليها في المعصرة، كأنه لفترة طويلة، بعد أن توقف الناس عن استعمال تلك المباني، شغلها أحدهم رغمًا عنه، ثم تركها من جديد. في بعض المطابخ نجد المائدة والمصطبة ما زالتا هناك، وبعض الصحون أو الأكواب في خزانة المطبخ، والمقلاة معلقة على المدفأة. في «غرانا» عام 1984، كان يسكن فقط أربعة عشر شخصًا، بينما في أزمنة أخرى كان يمكن أن يصل عددهم لمائة.

كان هناك مبنى يحتل وسط البلدة، حديث، ويفرض نفسه أكثر من المنازل المحيطة، فيه ثلاثة طوابق يكسوها اللون الأبيض، سلم خارجي، وفناء يحيط به سور سقط جزء منه. دخلنا من هناك، وتخطينا الأعشاب الضارة التي غزت الفناء. في الدور الأرضي كان الباب

مكتبة

مواربًا فقط، وعندما دفعه برونو وجدنا نفسينا في مدخل مظلل، مؤثث بمصاطب وشماعات خشبية. فهمت على الفور أين كنا، ربما لأن المدارس كلها تتشابه، ولكن في مدرسة «غرانا» الآن تتربى فقط أرانب ضخمة رمادية اللون، تتجسس علينا مرتعبة من وراء مخابئها. يحمل الفصل رائحة التبن، والعلف، والبول، ونبيذ يتحول إلى خل. على منصة خشبية، حيث يوضع مكتب المدرس، تركت بعض المعلبات الفارغة، ولكن لم يكُن لدى أحد الشجاعة ليُنزل تمثال المسيح المصلوب من على الحائط، ولا أن يستخدم المكاتب المرصوصة في نهاية الصالة كخشب للمدفأة. جذبتني المكاتب أكثر من الأرانب. ذهبت لأنظر إليها عن قرب، كانت طويلة وضيقة، في كل منها أربعة ثقوب للحبر، خشبها صقلته آثار كل الأيادي التي وُضعت فوقه. على اللوحات الداخلية حفرت الأيادي نفسها حروفًا، بسكين أو ربما برأس مسمار. الحروف الأولى. كان حرف الغين لغوليلمينا يظهر كثيرًا.

- هل تعرف من يكونون؟

قال برونو: أجل أعرف بعضهم. البعض الآخر لا أعرفه، ولكنني سمعتهم يتحدثون عنهم.

- ولكن متى كان هذا؟

- لا أعرف. فهذه المدرسة مغلقة منذ الأزل.

لم يسمح لي الوقت أن أسأل عن أي شيء آخر، فقد سمعنا خالة برونو وهي تناديه. وهكذا عادة تنتهي مغامراتنا: يصلنا ذلك النداء

t.me/ktabpdf

المُلح، تصرخ مرة، واثنتين ثم ثلاث مرات، ويصلنا صوتها أينما كنا. تأفف برونو، ثم صافحني وجرى مبتعدًا. كان يترك كل شيء في منتصفه، لعبة، حوارًا، وهكذا أعلم أنني لن أراه ثانيةً في ذلك اليوم.

مكثت بعض الوقت في المدرسة القديمة، فحصت كل المكاتب، وقرأت كل الحروف الأولى، وحاولت أن أتخيل كل أسماء أولئك الصبية. وبينما أنا أتجول بفضول، عثرت على حفر أكثر عناية وأحدث. كانت آثار الحفر بالسكين تبرز من الخشب المتسخ كأنه قطع طازج، مررت بإصبعي على حرفي الغين والباء، وكان من المستحيل أن يكون هناك أي شك حول هوية من كتبهما. عندئذٍ فهمت أشياءً أخرى، أشياء رأيتها ولم أفهمها في الحطام الذي يأخذني برونو إليه، وبدأت أفهم نوعية الحياة السرية لبلدة الأشباح تلك.

- خلال ذلك كان شهر يوليو/ تموز يطير. وبدأ العشب المقصوص عند وصولنا ينمو من جديد وأصبح ارتفاعه نحو قدم، وطوال مسار الحيوانات، تمر الماشية متجهة إلى المراعي العالية. أشاهدها وهي تختفي أعلى الوادي العميق، وأسمع صوت حوافرها والأجراس بينما تسير في طريقها في الغابة، لتظهر مجددًا من بعيد فوق خط الأشجار، مثل أسراب الطيور التي كانت تطير فوق الجبل. في أمسيتين أسبوعيًا نسير أنا وأمي في الاتجاه المعاكس، تجاه قرية أخرى- قرية توجد فيها بالكاد منازل بعدد أصابع اليد في قاع الوادي. يستغرق الأمر نصف ساعة للوصول إلى هناك سيرًا على الأقدام، وفي نهاية الطريق يبدو

مكتبة

كأننا دخلنا من جديد إلى العالم الحديث. تضيء أضواء إحدى الحانات الجسر عبر النهر، ويمكن رؤية السيارات الذاهبة والعائدة على الطريق الإقليمي، يختلط صوت الموسيقى مع أصوات سكان القرية الجالسين في الخارج. هناك في الأسفل الجو أكثر دفئًا، والصيف مرحًا وصاخبًا مثل الصيف على البحر. كانت توجد زمرة من الصبية على تلك الموائد يدخنون، ويضحكون، وأحيانًا يمر أصدقاؤهم ليصحبوهم بالسيارة إلى حانات الوادي الأعلى. أما أنا وأمي فقد كنا نقف في صف الهاتف ذي العملات. نقف في انتظار دورنا، ثم ندخل كلانا إلى تلك الكابينة التي أنهكتها الأحاديث. كان والداي يتكلمان بسرعة، حتى في المنزل لا يضيعان الوقت، عادة، في الثرثرة، وعند الاستماع إليهما يبدوان كصديقين قديمين، تكفي مجرَّد نصف عبارة ليفهم كل منهما الآخر. كان أبي يتحدث معي كثيرًا عندما كانت تمرر لي الهاتف.

كان يقول: إيه يا رجل الجبل، كيف الحال؟ هل تسلقت بعض القمم الجميلة؟

- ليس بعد، ولكنني أتمرن.

- حسنًا فعلت. وكيف حال صديقك؟

- بخير. إلا أنه بعد قليل سيذهب إلى المرعى الجبلي، ولن أراه أبدًا. يستغرق الأمر ساعة للوصول إلى هناك.

- ولكن ساعة ليست بالشيء الكثير. أقصد أننا يمكننا أن نذهب لنزوره معًا، ما رأيك؟

- أحب هذا. متى ستأتي؟

t.me/ktabpdf

– في أغسطس/ آب – يقول أبي، وقبل أن يحييني يضيف: أعطِ قبلة لأمك مني. واعتنِ بها، هه؟ لا تجعلها تشعر بالوحدة.

كنت أعده بذلك، ولكن أفكر بيني وبين نفسي في أنه هو من يشعر بالوحدة. أتخيله في شقة ميلانو، الخالية تمامًا والنوافذ مفتوحة على مصراعيها وصوت سيارات النقل. كانت أمي في أحسن حال. وكنا نعود إلى «غرانا» من خلال المعبر نفسه في الغابة، الذي عليه في ذلك الوقت قد حل الظلام. عندئذٍ تنير مصباحًا وتوجهه على أقدامنا. لم يكُن الليل يخيفها. كان هدوؤها الشديد يطمئنني أنا أيضًا، نسير متتبعين حذاءيها الكبيرين في ذلك الضوء الواهن، وبعد فترة أسمعها تغني بنبرة خافتة، كأنها تغني لنفسها. إذا كنت أعرف الأغنية أغني أنا أيضًا خلفها بصوت خافت. يبدأ ضوضاء المرور، والراديو، وضحكات الصبية تختفي خلف ظهرينا. أعلم أننا تقريبًا وصلنا قبل أن تظهر النوافذ المنيرة بقليل، عندما تحمل الرياح إليَّ روائح المداخن.

مكتبة

اثنان

لا أعـرف مـا التغيـيرات التي رآهـا فيَّ ذلك العـام، ولكن أبي قرر بالفعل أن الساعة قد حانت ليأخذني معه.

صعـد من ميلانـو في أحد أيـام السـبت، مقتحـمًا عاداتنـا اليومية بسـيارته الألفا البالية، عاقدًا العزم بألا يفقد دقيقة واحدة من إجازته القصيرة. ابتاع خريطة، علقها بدبابيس على الحائط، وقلمًا ينوي به أن يضع علامات على المعابر التي سنسير فيها، كأنها غزوات الجنرالات. وكانـت حقيبة الظهر العسـكرية والبنطال القطيفـة القصير، والكنزة الحمراء للمتسلق الدولميتي، هي زيه الرسمي.

فضلت أمي أن تظل خارج تلك العملية، مختبئة بين زهور الجارونيا وكتبها. كان برونو بالفعل في المرعى الجبلي، وكنت أنا أعود إلى أماكننا

t.me/ktabpdf

بمفردي وأفتقده، ولذلك استقبلت الخبر بكل سرور، وبدأت تعلم طريقة الذهاب إلى الجبل الخاصة بأبي، أكثر شيء مشابه للتعلم أخذته منه.

كنا نرحل مبكرًا في الصباح، يقود السيارة حتى المناطق الواقعة أسفل مونتي روزا. كانت مواقع سياحية منتشرة أكثر من موقعنا، وأرى، في نعاسي، الفيلل المصطفة تجري بجواري ومعها الفنادق على النظام الألبي لبداية القرن العشرين، والمباني القبيحة للستينيات، ومواقع المخيمات بمحاذاة النهر. كان الوادي بأكمله ما زال في الظل يبلله الندى. يحتسي أبي القهوة في أول مقهى مفتوح، ثم يعلق حقيبة الظهر على كتفه، بجدية رجل الألب. يبدأ المعبر من خلف كنيسة، أو بعد جسر من الخشب، ثم يدخل إلى الغابة ويميل بحدة على الفور. قبل أن ندخله ألقيت بنظرة أخيرة نحو السماء. فوق رأسينا يتلألأ الثلج في ضوء الشمس، وكان برد الصباح على أقدامنا العارية يتسبب لي في القشعريرة.

على المعبر يتركني أبي أسير أمامه. يسير خلفي بخطوة، وهكذا يمكنني أن أسمع صوته عندما يستلزم ذلك، وكانت أنفاسه في كتفَي. لدي قواعد قليلة وواضحة عليَّ اتباعها: الأولى: أن أتخذ إيقاعًا ما، ثم أستمر عليه دون أن أتوقف. الثانية: ألا أتكلم، الثالثة: عندما أجد نفسي عند مفترق أي طريق، أختار الطريق الصاعد. يتنفس هو بصعوبة ويتأفف أكثر بكثير مني، بين التدخين وحياة المكاتب التي يعيشها، ولكن على الأقل لمدة ساعة لم يسمح بأن

مكتبة

نجلس ولا حتى أن نتوقف لنلتقط أنفاسنا، ولا لنشرب ولا حتى لننظر إلى أي شيء. لم يكُن للغابة أي سحر بالنسبة له. كانت أمي، خلال جولاتنا في «غرانا»، هي من يشير إليَّ بالنباتات والأشجار وكانت تعلمني أسماءها كأنها شخصيات لكل منها خصائصه، بينما بالنسبة إلى أبي لم تكُن الغابة إلا طريق الدخول إلى الجبال العالية. كنا نصعد ورأسينا منحنيين، مركزين في إيقاع أقدامنا، ورئتينا وقلبينا، في علاقة خاصة وصامتة مع جهدنا، ندوس بأقدامنا على حصى متهرئ بفعل مرور الحيوانات والآدميين عليه لقرون طويلة. أحيانًا كنا نمر على صليب من خشب، أو لافتة من البرونز تحمل اسمًا، أو مقام موضوع فيه تمثال صغير للعذراء وبعض الزهور التي تمنح أركان الغابة ذلك الجو الكئيب للمقابر. ثم يتخذ الصمت بيننا طابعًا مختلفًا، كأنها الطريقة الوقورة الوحيدة للمرور بجوارها.

نرفع أعيننا فقط نحو نهاية الأشجار. بمحاذاة الكتلة الجليدية يصبح الطريق أقل حدة، وبالخروج للشمس نقابل القرى المرتفعة الأخيرة. كانت أماكن مهجورة، أو شبه مهجورة، أسوأ حتى من «غرانا»، لم يكُن فيها سوى إسطبل منعزل، أو نافورة ما زالت تعمل، وكنيسة صغيرة في حالة جيدة. فوق وأسفل المنازل الأرض ممهدة، والأحجار مُجمعة في أكوام، ثم كانت هناك خنادق محفورة للري والتخصيب وضفاف النهر مرصوفة لتُصنع منها حقول وبساتين. أشار لي أبي بتلك الأعمال وكان يحدثني بإعجاب عن مهارة متسلقي الجبال القدماء. أولئك الذين وصلوا من شمال جبال الألب في القرون

t.me/ktabpdf

الوسطى واستطاعوا زراعة أراضي لم يسبقهم أحد إليها. كانت لديهم تقنيات خاصة وقدرة مقاومة خاصة للبرد وللحرمان. في أيامنا هذه، قال، لا أحد يمكنه مقاومة الشتاء هناك في أعلى الجبل، وأن يكون لديه الاكتفاء الذاتي التام من الطعام ومن الوسائل الأخرى مثلما استطاعوا هم أن يفعلوا لقرون.

كنت أنظر إلى المنازل المتهدمة وأحاول أن أجبر نفسي على تخيل سكانها. لم أكن أفهم كيف يمكن لأحدهم أن يختار حياة بهذه القسوة. وعندما سألت أبي هذا أجابني بطريقته المُلغزة، كان يبدو دائمًا غير قادر على إعطائي حلًا ولكن مجرَّد إشارات، وأن عليَّ أنا أن أجتهد في الوصول إلى الحقيقة وحدي.

قال: لم يختاروها بالتأكيد. إذا ذهب أحدهم للبقاء في أعلى، سيكون ذلك لأنهم في أسفل لم يتركوه في سلام.

- ومن يوجد في أسفل؟

- مُلاك البيوت. جيوش. كهنة. رؤساء العمل. حسب الحال.

بدا لي غير جاد تمامًا من نبرة إجابته. الآن يبلل رقبته في النافورة ويبدو أكثر فرحًا مقارنةً بما كان عليه في الصباح الباكر. يهز الماء عن رأسه، ويعصره من لحيته، وينظر إلى أعلى. في الأودية العميقة التي تنتظرنا لم يكُن أي شيء يعوق بصرنا، وبالتالي كنا سرعان ما نلمح شخصًا ما هناك فوق، يسبقنا على الطريق. كانت عيناه حادتين كالصياد، وبهما يميز بين النقاط الحمراء أو الصفراء، لون حقيبة الظهر أو المعطف الواقي. وكلما ابتعدت المسافة، زادت نبرة صوته

سخريةً وهو يشير إليهم ويسألني: ما رأيك يا بيترو، هل نلحق بهم؟

- بالتأكيد. أجيبه أنا بغض النظر عن موقعهم.

يتحول صعودنا عندئذٍ إلى مطاردة. كانت عضلاتنا ساخنة جدًّا، وما زال لدينا المزيد من الطاقة. نصعد فوق عشب أغسطس/ آب ونحن نمر على مراعٍ جبلية منعزلة، ومجموعات من الأبقار اللامبالية، وكلاب تجري حول كواحلنا، وأسراب من الحشرات تقرص قدمَيّ العاريتين.

- فلتقطع الطريق، يقول أبي ذلك عندما يتخذ الطريق منحىً أسهل مما يعجبه، تقدم إلى الأمام. اصعد على هذا الطريق.

في النهاية يزداد الطريق انحدارًا، وهناك فوق تلك المنحنيات القاسية النهاية كنا نلحق بفرائسنا. عادةً ما يكون عددهم اثنين أو ثلاثة رجال، في سن أبي ويرتدون ملابس مثله. وبذلك يؤكدون لديَّ فكرة أن هذا الأمر الخاص بصعود الجبل كان موضة أزمنة أخرى، ويتبع قوانين عتيقة. والطريقة نفسها التي بها يفسحون الطريق كانت صاخبة، ينتقلون إلى الجانب، بجوار المعبر، يتوقفون ويتركوننا نتجاوزهم. من المؤكد أنهم رأونا من أعلى، وحاولوا المقاومة، ولم يسرهم أننا لحقنا بهم.

يقول أحدهم: سلام، سريع هذا الصبي، أليس كذلك؟

وكان أبي يجيب: هو يشد الخطى وأنا ألحق به.

t.me/ktabpdf

- ليت لدينا قدمين مثله.

- يا ليت. ولكنها كانت لنا يومًا.

- أجل بالتأكيد، ربما من عقود مضت. هل ستذهبان حتى القمة؟

- إذا استطعنا.

- حظًّا سعيدًا. كان يختتم الآخر، وينتهي الحوار عند ذلك الحد.

ثم نتحرك في صمت، تمامًا كما وصلنا. لم يكُن الاحتفال مسموحًا، ولكن بعد ذلك بقليل، عندما كنا نبتعد بالقدر الكافي، كنت أشعر بيدٍ فوق كتفي، هذا فقط، يد توضع على كتفي وتضغطها، وكان هذا كل شيء.

ربما كان الأمر حقيقيًّا، كما تؤكد أمي، أن لكل منا حصته المفضلة من الجبل، صفحة أرض تشبهه وفيها يجد راحته. بالنسبة إليها كانت بالتأكيد الغابة على ارتفاع 1500 متر، تلك المنطقة المليئة بالصنوبريات واللاركس، التي ينمو في ظلالها التوت البري والعرعر والورديات، وحيث تختبئ الأيائل الصغيرة. كنت أنا أنجذب أكثر لصفحة الجبل التي تلي منطقتها: حيث المراعي الألبية والسيول، والأراضي الرطبة وأعشاب المناطق العليا، والحيوانات التي ترعى. وفي المناطق الأكثر ارتفاعًا كانت الخضرة تختفي، ويغطي الثلج كل شيء حتى بداية الصيف، ويصبح اللون السائد هو رمادي الصخور، يتخلله الصخر البلوي ولون الحزاز الأصفر. وهناك يبدأ عالم أبي. بعد ثلاث ساعات من المشي تترك المروج والغابات مكانًا للكتل الصخرية والبحيرات المختبئة في التجويفات الثلجية، وللقنوات التي حفرتها الانهيالات

مكتبة

الصخرية، وينابيع المياه المثلجة. يتحول الجبل إلى مكان أكثر قسوة، غير مضياف وصافٍ، هناك فوق يصبح أبي أكثر سعادة. ربما يعود إليه شبابه مرة أخرى من خلال العودة إلى جبال أخرى وأزمنة أخرى. هناك تبدو خطوته كأنها فقدت ثقلها وعثرت على رشاقتها المفقودة.

أما أنا فعلى العكس، كنت أشعر بالإنهاك. كان التعب وقلة الأكسجين يغلقان لي معدتي وأشعر بالغثيان. يحول ذلك الشعور بالتعب كل متر إلى مشقة. لم يكُن أبي قادرًا على إدراك ذلك، وعند ارتفاع ثلاثة آلاف متر بدأ الطريق يفقد ملامحه، ومن كتل الحجارة لم يبقَ سوى بعض الصخور وعلامات دهان، واتخذ هو أخيرًا ذهن المُكتشف، ولم يلتفت لينظر على حالي، وإذا فعل ذلك كان ليصرخ: انظر! وهو يشير إلى فوق، إلى قرون الوعول التي تراقبنا من فوق القمة، كحراس لذلك العالم الخام. عندما رفعت عيني بدت القمة لي بعيدة جدًّا. وفي أنفي كانت توجد رائحة الثلج المتجمد والحجر الصوان.

إلا أن نهاية هذا العذاب حدثت بطريقة غير متوقعة، بينما أخطو قفزتي الأخيرة وأنا أدور حول صخرة بارزة، وجدت نفسي فجأة أمام كومة من الصخور، وصليب من الحديد أسقطته الصواعق، وحقيبة أبي ملقاة على الأرض، ولا يوجد وراء ذلك سوى السماء. كنت أشعر بالارتياح أكثر من النشوة. لم تكُن هناك أي جوائز لنا هناك فوق، في ما عدا واقع أننا لا يمكننا الصعود أبعد أكثر من هذه البقعة، لم تكُن

t.me/ktabpdf

القمة تتميز بشيء خاص. كنت سأشعر أكثر بالسعادة إذا وصلت إلى مجرى للمياه أو قرية.

وعلى قمم الجبال يصبح أبي شخصية متأملة. ينزع قميصه ورداءه الداخلي، ويعلقهما على الصليب ليجفا. كنت نادرًا ما أراه عاري الجذع، وفي هذه الحالة كان جسده يشي عن شيء من الضعف: بساعديه المحمرين، وكتفيه القويتين البيضاوين، والسلسلة الذهبية الصغيرة التي لا يخلعها قط، وعنقه الأحمر أيضًا الذي يغطيه التراب. جلسنا لنأكل الخبز والجبن ونتأمل المشهد. أمامنا كان يظهر جبل «مونتي روزا» الضخم بأكمله، قريبًا جدًّا لنميز الملاجئ الجبلية فوقه، وعربات الجبل والبحيرات الصناعية، والمسارات الطويلة للأشكال المتصلة بالحبال في طريق عودتهم من كوخ مارغريتا. عندئذٍ ينزع أبي الغطاء عن عبوة النبيذ، ويشعل سيجارته الوحيدة منذ الصباح.

قال: لا يُدعى روزا لأنه وردي اللون. إن الاسم يأتي من كلمة قديمة معناها ثلج. فهو جبل الثلج.

ثم يسرد عليَّ أسماء القمم التي تتجاوز الأربعة آلاف متر من الشرق إلى الغرب، في كل مرة من البداية، لأننا قبل أن نذهب إلى هذه القمم من الضروري معرفتها، وأن يكون المرء قد تمنى الذهاب إليها لفترة طويلة: القمة المتواضعة لـ«غورداني»، الهرم «فينسنت» الذي يتجاوزها، قمة «البالمينهورن» التي عليها يبرز التمثال الكبير لمسيح القمم، قمة «الباروت» ذات المظهر الرقيق جدًّا إلى حد أنه لا

مكتبة

يُرى، ثم القمم النبيلة «لنيفيتي، زومستين، دوفور»، الإخوة الثلاثة ذوو القمم الحادة، وقمتا «الليسكام»، **ملتهمة الرجال**، بالذروة التي تجمعهما، وصولًا للانحناءة الأنيقة للـ «كاستور»، و «بولوتشي» القاسي والصخرة السوداء المحفورة بعمق في قمم «البريثورن» ذات الهواء الصحي. وأخيرًا من الغرب، منحوتة ووحيدة، تقف قمة الشيرفينو[1] التي كان أبي يطلق عليها اسم «بيكا الكبيرة» كأنه يتحدث عن عمته العجوز. لم يكُن يجب أن يلتفت إلى الجنوب، نحو السهل، فهناك كان يظهر ضباب أغسطس/ آب ومن مكان ما أسفل ذلك الغطاء الرمادي كانت ميلانو تحترق.

كان يقول: يبدو كل شيء صغيرًا، أليس كذلك؟

ولم أكن أفهم.

لم أكن أفهم بأي معنى يمكن أن يبدو له هذا المشهد الطبيعي العظيم صغيرًا. أو إن أشياءً أخرى هي ما تبدو له صغيرة، أشياء يتذكرها عندما يكون هناك في أعلى. ولكن لم يستمر الحزن طويلًا. عندما تنتهي السيجارة يخرج من بركة أفكاره، يلملم أشياءه ويقول: هل نذهب؟

كنا ننزل بسرعة، وفي الأسفل عند عنق كل منحنى، نطلق صرخة الحرب وعواء الهنود الحمر، وفي أقل من ساعتين ننقع أقدامنا في مياه إحدى نافورات البلدة.

1- أسماء قمم تقع على جبل المونتى روزا Monte Rosa، يمكن العثور على معلومات وصور عنها في مواقع البحث إذا كُتبت بالإيطالية كما يلي: Punta Giordani، Piramide Vincent، Bal-menhorn، Punta Parrot، Punte Gnifetti، Zumestein، Durfour، Lyskamm، castore، Cervino، Breithorn، Monte Polluce

t.me/ktabpdf

في «غرانا» تقدمت أمي في تحرياتها. كنت أراها كثيرًا في الحقل حيث تقضي أم برونو أيامها. عندما ترفع عينيك تراها دائمًا هناك، امرأة نحيفة جدًّا، ترتدي قبعة صفراء اللون، منحنية تعتني بالبصل والبطاطس. لم تكُن تتبادل كلمتين مع أحد، ولم يكُن أحد يذهب لزيارتها إذا لم تذهب أمي، كانت إحداهما في الحديقة، والأخرى تجلس على جذع شجرة هناك بجوارها، ومن بعيد يبدو كأنهما تثرثران لفترات طويلة.

قال أبي، الذي كنا قد قصصنا عليه عن تلك المرأة الغريبة: إذًا فهي تتحدث.

أجابت أمي: بالتأكيد تتحدث. أنا لم أعرف قط شخصًا أبكم.

- ياللأسف. علق هو، ولكنها لم تكُن في مزاج يسمح بالمزاح. فقد اكتشفت أن برونو، ذلك العام، لم ينجح في امتحانات الصف الأول من المدرسة المتوسطة، وكانت غاضبة جدًّا، لأنهم لم يرسلوه إلى المدرسة في شهر إبريل، ومن الواضح أن أحدًا لم يتدخل، وأن تعليمه قد توقف عند هذا الحد، وكان هذا هو نوع الأشياء الذي يثير سخط أمي، سواء في ميلانو أو في قرية جبلية.

قال أبي: ولكنك لا يمكنك دائمًا إنقاذ الجميع.

- لقد أنقذك أنت شخص ما، أليس كذلك؟

- كيف لا. ولكن بعد ذلك اضطررت أنا أن أنقذ نفسي منهم.

مكتبة

– ولكنك في ذلك الوقت درست. لم يكلفوك بحراسة الأبقار عندما كنت تبلغ من العمر أحد عشر عامًا. في سن الحادية عشرة يجب على المرء الذهاب إلى المدرسة.

– أقول فقط إن الوضع هنا مختلف. في هذا الموقف الأبوان موجودان. لحسن الحظ.

– أجل حظ سعيد بالفعل. اختتمت أمي، وتجنب أبي الرد عليها. لم يكُن يحدث تقريبًا قط أن تحدثا عن طفولته، وفي تلك المرات القليلة كان هو يهز رأسه ويترك المناقشة.

وهكذا أُرسلنا إلى رحلة استكشافية، أبي وأنا، لنوثق العلاقات بيننا وبين رجال عائلة غوليلمينا. وكان المرعى الجبلي الذي يسكنونه في الصيف هو مجموعة من ثلاثة أكواخ جبلية، تقريبًا على بعد ساعة من «غرانا» بمحاذاة المعبر الذي يصعد إلى الأعلى من الوادي العميق. رأيناها من بعيد، جاثمة هناك في وسط الجانب الأيمن، حيث الجبل أقل حدة، وقبيل الانحدار مرة أخرى ثانية، حتى يصل إلى المنبع نفسه الذي يجري وسط القرية. كنت أحب بالفعل ذلك النهر الصغير، وأشعر بالسعادة لأن ألتقي به مرة أخرى هناك. في ذلك الموقع بدا الوادي ينغلق، كأن انهيالًا رهيبًا أغلق المنبع العلوي، وانتهى بحوض تغذيه ينابيع أخرى صغيرة واكتسحته السراخس والأحراش، والروائد والقراصيات. وبالعبور من خلالها أصبح الطريق موحلًا. ثم، بعبورنا الطريق المائي، استمر الطريق في ما وراء النهر، ليصعد إلى ضوء الشمس ثم الأرض الجافة نحو الأكواخ. ومن النهر إلى ما ورائه كانت كل المراعي معتنى بها جيدًا.

t.me/ktabpdf

- إيه - قال برونو- أخيرًا وصلت.

- اعذرني. كان عليَّ المكوث قليلًا مع أبي.

- ذلك هو أبوك؟ وكيف هو؟

- لا أعرف -قلت- ماهر.

كنت قد بدأت التحدث مثله. لم نكن قد رأينا بعضنا منذ نحو خمسة عشر يومًا، ونتصرف بالفعل كصديقين قديمين. حياه أبي كأننا بالفعل كذلك، وأيضًا حرص عم برونو على أن يُظهر لنا ترحيبه، دخل إلى أحد الكوخين، وخرج وهو يحمل قطعة من جبن التوما، والسلامي، وزجاجة نبيذ كبيرة، ولكن لم تكُن تعبيرات وجهه تتفق مع إيماءات ترحيبه. بدا كرجل تركت عليه الأفكار السيئة آثارها، كأنها حُفرت على معالمه. كانت لحيته غير معتنًى بها، خشنة وتقريبًا بيضاء، شارباه أكثر سُمكًا، ولونهما رمادي، وحاجباه مقوَّسان يوحيان بشك أزليّ، وعيناه زرقاوان بلون السماء. فاجأته يد أبي الممتدة، وخرجت إيماءة الشد عليها غير واثقة، وغير طبيعية، ثم عندما نزع غطاء النبيذ وبدأ في ملء الأكواب عاد إلى منطقة نفوذه.

أراد برونو أن يطلعني على شيء ما، وهكذا تركناهما هناك ليشربا وذهبنا لنتجول. أخذت أشاهد المرعى الجبلي، الذي كان قد حدثني عنه كثيرًا، باهتمام شديد. كان يحوي نوعًا من النبل القديم يظهر في جدران الحجارة الجافة، وفي بعض أحجار الزاوية الضخمة، وفي دعامات الأسقف التي نُحتت يدويًّا، ويحوي أيضًا بؤسًا حديثًا، كأنه طبقة من الشحم والتراب وُضعت على كل شيء.

مكتبة

يُستخدم الكوخ الأطول كإسطبل، يملؤه طنين الذباب وأكوام من الفضلات حتى عتبته. وفي الكوخ الثاني، تغطي الأسمال النوافذ المكسورة والسقف ترقعه قطع من الصفيح، وفيه يسكن لويجي غوليلمينا وورثته. أما الثالث كان المخزن، أخذني برونو لأراه، بدلًا من أن يطلعني على الحجرة التي ينام فيها. حتى في «غرانا» لم يدعني قط إلى منزله.

قال: إنني أتعلم أن أكون لبّانًا.

- أي؟

- ذلك الذي يصنع جبن التوما. تعالَ.

فاجأني المخزن. كان باردًا ومظللًا، المكان الوحيد النظيف بالفعل في كل المرعى. غُسلت الأرفف السميكة من خشب اللاركس منذ قليل، وقوالب الجبن مُخزنة فوقها، تغطيها الطبقة الرطبة من المحلول الملحي. كانت لامعة، مستديرة، مُرتبة، وتبدو كأنها في معرض ما، لمسابقة ما.

سألت: هل صنعتها أنت؟

- لا، لا. في الوقت الحالي أقلبها فقط. جميلة، أليس كذلك؟

- ماذا تعني تقلبها؟

- مرة في الأسبوع أقلبها على الناحية الأخرى وأضع عليها الملح. ثم أغسل كل شيء وأحافظ على المكان هنا نظيفًا.

قلت: بالفعل جميلة.

t.me/ktabpdf

أما في الخارج تقبع دلاء من البلاستيك، وكومة من خشب شبه متعفن، وفرن مصنوع من نصف برميل، وزيت الديزل، وحوض تحول إلى وعاء للشرب، وقشر بطاطس ملقى أرضًا، والعظام التي نظفتها الكلاب. لم يكُن الأمر يتعلق بمجرَّد غياب النظافة، ولكن بنوع من احتقار الأشياء، مزاج ما في معاملتها معاملة سيئة وتركها لتفسد، وهو الشيء الذي بدأت أتعرف عليه أيضًا في «غرانا». كأن لتلك الأماكن قدرها المحتوم، وصيانتها ليست سوى جهد لا فائدة منه.

كان أبي وعم برونو يحتسيان الكأس الثاني، ووجدناهما يتناقشان حول اقتصاد المراعي الجبلية. من المؤكد بدأ أبي النقاش، فالوظيفة هي ما يهمُّه من حياة الآخرين، وعدد الحيوانات، ومساحة المرعى، وعدد لترات الحليب يوميًّا، وكمّ الأرباح من صناعة الجبن. وكان لويجي غوليلمينا سعيدًا لأن يتحدث في كل هذا مع رجل كفء، يسرد الحسابات بصوت مرتفع، ليريه أن، بالأسعار الجارية والقوانين المفروضة على المزارعين، لم يعد للعمل الآن أي معنى، وأنه يقوم به فقط لأنه يحبه.

قال: بعد موتي، سيتحول هذا المكان كله هنا إلى غابة. سيكونون مسرورين عندئذٍ.

سأله أبي: ألا تعجب هذه المهنة أولادك؟

- إيه! لا يعجبهم سوى النوم.

وعندما سمعته يتحدث بهذه الطريقة صدمتني نبوءته. لم أكن أفكر قط أن المرعى كان في البداية غابة، ولا أنه يمكن أن يعود إلى ذلك مرة

مكتبة

أخرى. نظرت إلى الأبقار المتفرقة على المرعى، وحاولت أن أتخيل تلك المراعي تحتلها في البداية طبقة مكثفة من الأعشاب الضارة، ثم تبدأ في النمو وهي تبتلع كل ما يدل على المكان. الخنادق، الجدران، المعابر، وفي النهاية المنازل أيضًا.

في ذلك الوقت أشعل برونو النيران في الفرن الخارجي. ودون أن يطلب منه أحد شيء، ذهب إلى الحوض ليملأ الطنجرة بالمياه، وأخذ يقشر بطاطس بالسكين الصغيرة. كانت توجد أشياء يجيدها، أعد المعكرونة ووضعها على المائدة بجوار البطاطس المسلوقة، وجبن التوما، والسلامي والنبيذ. عندئذٍ ظهر أيضًا ابنا عمه. صبيان كبيران وضخمان عمرهما نحو الخامسة والعشرين، جلسا معنا، وأكلا برأسين منحنيين، نظرا إلينا لدقيقة، ثم عادا لينا ما. راقبهما عم برونو يبتعدان وتضمنت الطريقة التي زم بها شفتيه قدر احتقاره لهما.

لم يكُن أبي يهتم بهذه الأشياء. في نهاية الوجبة فرد ظهره، وضم يديه تحت رقبته ورفع عينيه نحو السماء كأنه يستمتع بعرض ما. وبالفعل قال: يا له من عرض. كانت عطلته على وشك الانقضاء، وكان قد بدأ بالفعل ينظر إلى الجبال بنوع من الحنين، إلى بعض القمم التي لن يتمكن من الذهاب إليها في هذا العام. كان يوجد العديد منها فوق رؤوسنا، كلها حصى، وأبراج صخرية، وأنهار من الحجارة الساقطة، وأخاديد من الحطام، وحواف متكسرة. تبدو كأنها أطلال قلعة ضخمة حطمتها طلقات المدافع، ما تبقى منها لا بد له أن يسقط إن آجلًا أم عاجلًا، في الواقع، يمكن أن يكون هذا عرضًا فقط لشخص مثل أبي.

t.me/ktabpdf

سأل: ما اسم هذه الجبال؟

وفكرت أنه سؤال غريب، نظرًا إلى الفترة الزمنية التي يقضيها أمام خريطته المعلقة على الحائط.

رفع عم برونو رأسه كأنه ينظر إذا كانت على وشك أن تمطر، وبإيماءة مبهمة قال: «غرينون».

- أيهما «غرينون»؟

- هذا. بالنسبة إلينا هو جبل «غرانا».

- كل تلك القمم معًا؟

- بالطبع، فنحن لا نعطي أسماءً للقمم هنا. إنه الإقليم.

بعد الأكل والشرب بدأ يشعر بالضيق من وجودنا.

أصر أبي: هل سبق لك وذهبت إلى هناك؟ أقصد إلى القمم.

- في شبابي، كنت أذهب مع أبي لنصطاد.

- وهل ذهبت إلى المنطقة الجليدية؟

- لا، لم تسنح ليّ الفرصة قط. ولكن أعترف أنني كنت سأحب هذا.

قال أبي: أفكر في الذهاب إلى هناك غدًا. سآخذ الصبي ليطأ على الجليد. لو كان الأمر يناسبك، يمكنني أن آخذ صبيك أيضًا.

كان هذا ما يهدف إليه أبي طوال الوقت. استغرق الأمر لويجي غوليلمينا وهلة ليفهم ماذا كان يقصد بقوله. صبيك؟ ثم تذكر برونو الجالس هناك بجواري، كنا نلعب مع أحد الكلاب، جرو وُلد ذلك

مكتبة

العام، ولكننا لم نفقد كلمة واحدة من الحوار.

سأله: هل تود الذهاب؟

قال برونو: أجل، أجل.

عقد العم حاجبيه. كان معتادًا أكثر على أن يقول لا، ولكن ربما شعر بأن ذلك الغريب قد ضيق عليه، أو من يدري، ربما لوهلة حن على الصبي الصغير.

قال: إذًا فلتذهب. ثم وضع الغطاء على الزجاجة، وترك المائدة، دون أي رغبة في أن يتظاهر بشيء يخالف طبيعته.

يسحر الجليد رجل العلم الكامن بداخل أبي، قبل أن يؤثر في متسلق الألب. كان يذكِّره بدراسته للفيزياء والكيمياء، والأساطير التي تربى عليه. في اليوم التالي، وبينما كنا نصعد إلى ملجأ «ميتزالاما»، حكى لنا قصة تشبه إحدى الأساطير. قال لي أنا وبرونو على المعبر: إن الجليد هو ذكرى كل فصول الشتاء السابقة التي يحفظها الجبل لنا. وعلى ارتفاع معين يحتفظ بالسجل، وإذا أردنا معرفة شيء عن شتاء بعيد علينا أن نذهب إلى هناك، إلى أعلى.

وشرح: يُدعى هذا **مستوى الثلج الدائم**، حيث لا يستطيع الصيف أن يذيب الثلج المتساقط في الشتاء. بعض منه يظل حتى الخريف، ويُدفن تحت الثلج المتساقط في الشتاء التالي، ولهذا يُحتفظ به أسفل الثلج الجديد، ورويدًا رويدًا يتحول إلى جليد، ويضيف إلى طبقات نمو الجبل الجليدي، تمامًا مثل نمو طبقات جذوع الشجر التي عندما

t.me/ktabpdf

نحصيها نعرف عمرها، في ما عدا أن الجليد لا يقف فقط هناك فوق القمم الجبلية، بل إنه يتحرك، وكل وقت لا يفعل سوى أن يتزحلق إلى أسفل.

سألت: لماذا؟

- لماذا في رأيك؟

قال برونو: لأنه ثقيل.

قال أبي: بالضبط. الجليد ثقيل، والصخرة القابع فوقها ناعمة جدًّا. هكذا يهبط إلى الأسفل. ببطء، ولكن دون أن يتوقف أبدًا. يتزحلق إلى أسفل على الجبل حتى يصل إلى المستوى الذي فيه الجو حار جدًّا بالنسبة إليه، وذلك يُطلق عليه **مستوى الانصهار**. هل تريانه هناك في أسفل؟

كنا نسير على تراكم جليدي يبدو أنه مصنوع من الرمال، يندفع لسان من الجليد والرواسب حتى يصل إلى الأسفل، أسفل بكثير من مستوى المعبر. تقاطعه مجاري مياه تتجمع في بحيرة صغيرة قاتمة اللون، معدنية، جليدية الشكل.

قال أبي: تلك المياه هناك، لا تأتي من الثلج الخاص بهذا الشتاء. إنه ثلج حفظه الجبل، لا أحد يعرف لكم من الزمن. ربما المياه التي به الآن تأتي من شتاء عمره مائة عام.

سأل برونو: مائة؟ حقًا؟

مكتبة

- أو ربما أكثر من ذلك. إنها عملية حسابية صعبة. لا بد أن نعرف بالتحديد درجة الميل والاحتكاك. يمكنك أن تقوم بتجربة أولًا.

- كيف؟

- آه، هذا أمر سهل. هل ترى تلك الشقوق الجليدية هناك في الأعلى؟ غدًا نذهب إلى هناك، نضع بالداخل عملة معدنية ثم نجلس بجوار المجرى النهري وننتظر وصولها.

ضحك أبي، ومكث برونو يراقب التشققات الجليدية، واللسان الجليدي، من الواضح أن الفكرة تسحره. كنت أنا أقل اهتمامًا منه بالشتاءات القديمة. بدأت أشعر في معدتي بأننا تجاوزنا الارتفاع، الذي فيه، في المرات السابقة، كنا ننهي صعودنا. وكان الطقس أيضًا غير معتاد، في العصر سقطت علينا بعض قطرات الأمطار، والآن وقد اقترب المساء بدأنا ندخل في الضباب. وكان شيئًا غريبًا جدًّا أن نكتشف في نهاية التراكم الجليدي، مبنى من الخشب يرتفع لطابقين. أعلن عن اقترابه رائحة الدخان المنبعثة من المولد الكهربائي القريب، ثم تلتها أصوات صياح بلغة لم أتعرف عليها. وعلى المنصة الخشبية للمدخل، التي ملأتها مسامير الأحذية الجبلية بالثقوب، تراكمت حقائب الظهر، والحبال، والكنزات، والسترات، وكانت الجوارب السميكة مُعلقة في كل مكان لتجف، يعبرها المتسلقون الذين يرتدون أحذيتهم المرتفعة بلا أربطة وهم يحملون ملاءاتهم.

في ذلك المساء كان النزل ممتلئًا. لا يمكن ترك أحد بالخارج، ويضعون الناس لتنام حتى فوق الأرائك والموائد. كنا أنا وبرونو

t.me/ktabpdf

الأصغر سنًا في تلك الصحبة، كنا أول من أكل، ولنترك مساحة في المكان ذهبنا إلى أعلى على الفور، في الحجرة الكبيرة حيث سنتقاسم فراشًا. وهناك فوق، ونحن نرتدي الملابس من رأسنا إلى أقدامنا، وأسفل بعض الأغطية الخشنة، مكثنا طويلًا في انتظار النوم. ومن النافذة لم نستطع رؤية النجوم ولا الأضواء من الوادي في الأسفل، فقط خطوط دخان سجائر من يخرج منهم ليدخن.

كنا نسمع أصوات الرجال في الدور الأرضي: بعد العشاء كانوا يقارنون بين برامجهم في التسلق لليوم التالي، يتناقشون حول التقلبات الجوية، ويحكون عن ليالٍ أخرى قضوها في ملاجئ جبلية أخرى، واكتشافات قديمة.

من حين إلى آخر يصل إليَّ صوت أبي الذي طلب لترًا من النبيذ وانضم للآخرين. ونظرًا إلى أنه ليس لديه قمم ليغزوها اكتسب شهرة لكونه الرجل الذي يصعد بصبيين على الجليد، وكان هذا الدور يشعره بالفخر. عثر على أناس من حيث أتى، وكنت أسمعه يطلق النكات بلهجته، لهجة «فينيتو». ونظرًا إلى أنني شخصًا خجولًا، كنت أشعر بالإحراج لما يفعله.

قال برونو: أبوك يعرف الكثير، أليس كذلك؟

قلت: أجل، بالفعل.

- أحسنَ، بأنه يعلمك إياه.

- لماذا، ألا يفعل أبوك الشيء نفسه؟

- لا أعرف. يبدو أنني أضايقه دائمًا.

مكتبة

فكرت في أن أبي كان ماهرًا في التحدث، ولكن لم يكُن جيدًا في الإصغاء، ولا حتى في أن يعتني بي، وإلا أدرك حالتي، فقد أكلت بصعوبة، ربما كان من الأفضل أن أصوم، لأن الشعور بالغثيان الآن يعذبني، وزادت رائحة الحساء التي تتصاعد من المطبخ الوضع سوءًا. أخذت أتنفس بعمق لأهدئ معدتي، وأدرك برونو هذا: هل أنت بخير؟

- ليس كثيرًا.

- هل تريد أن أذهب لأستدعي أبيك؟

- لا، لا. الآن سأشعر بتحسن.

ووضعت يدي فوق بطني لأدفئها. تمنيت، أكثر من أي شيء، لو كنت في فراشي وأنا أشعر بوجود أمي هناك، أمام المدفأة. مكثنا في صمت، حتى العاشرة، عندما أعلن مدير المكان حظر التجول، وأغلق المولد الكهربائي، وغرق الملجأ في الظلام، ورويدًا رويدًا برزت المصابيح اليدوية للرجال الذين صعدوا بحثًا عن فراش. مرّ أبي أيضًا، تفوح منه رائحة الجرابّا القوية، ليطمئن علينا، أغمضت عيني وتظاهرت بالنوم.

في الصباح خرجنا بمجرَّد أن طلع النهار. الآن يملأ الضباب الوادي أسفلنا والسماء صافية بلون اللؤلؤ، والنجوم الأخيرة التي تخبو بالتدريج كلما انتشر الضوء. لم نكن قد تجاوزنا الفجر بكثير، ولكن رحل متسلقو الجبال الذاهبون إلى القمم البعيدة بالفعل منذ فترة، سمعناهم يستعدون في قلب الليل، والآن نرى البعض منهم

t.me/ktabpdf

يتسلق بتلك الحبال بعيدًا في أعلى الجبل، كانوا يشبهون حطام سفن صغيرة في لون أبيض.

ربطنا أبي في الكلّابات التي استأجرها، على بعد خمسة أمتار الواحد من الآخر، في البداية هو، ثم برونو، ثم أنا. حزمنا من صدورنا، بلفة مركبة من الحبال فوق المعاطف الواقية، ولكنه لم يربط تلك العقد من سنوات، وهكذا كانت عملية إعدادنا طويلة ومنهكة، ولهذا كنا آخر من ترك النزل، وما زال أمامنا عبور منطقة انهيال تضربها مسامير الأحذية وتنحشر أحيانًا بينها، وكان الحبل يعوق خطوتي ويشعرني بالغرابة، حاملًا أشياءَ كثيرة. ولكن تغير هذا الشعور فجأة عندما وضعت قدمَيّ على الثلج. وعن معموديتي على الجليد أتذكر هذا: شعورًا مفاجئًا بصلابة قدمَي، المسامير المعدنية التي تعض الثلج القاسي، والكلابات التي كانت تمسك بنا بإحكام.

كنت قد استيقظت في حالة جيدة، ولكن بعد قليل ابتعد دفء النزل وعاد الغثيان ليزيد من جديد. كان أبي، هناك في الأمام، يشد المجموعة. أراه متعجلًا، على الرغم من تأكيده المتكرر بأنه لا يريد سوى أن نتجول، أراه مليئًا بالأمل الخفي بأن يصل إلى قمة ما، وأن يفاجئ متسلقي الألب الآخرين بظهوره معنا فوق إحدى القمم. وبين خطوة وأخرى كنت أشعر كأن هناك يدًا تضغط على معدتي، وعندما توقفت لألتقط أنفاسي اشتد الحبل بيني وبين برونو، فأجبره هو أيضًا على الوقوف، وفي النهاية وصل التوتر أيضًا إلى أبي الذي التفت بغضب ينظر إليَّ.

مكتبة

وسأل: ماذا يحدث؟ -كان يعتقد أنني أختلق حكاية ما- هيا لنتحرك.

عند طلوع الشمس ظهرت ثلاثة ظلال سوداء على الجليد بجوارنا. عندئذٍ فقد الثلج انعكاسه الأزرق وأصبح ناصع البياض، وتقريبًا على الفور بدأ يستسلم تحت مسامير الأحذية. بدأت السحب هناك في الأسفل تنتفخ من حرارة الصباح، حتى إنني فهمت على الفور أنها سرعان ما سترتفع مثلما حدث في اليوم السابق، وأصبحت فكرة الوصول إلى مكان ما أقل واقعية مع مرور الوقت، إلا أن أبي كان من النوع الذي يصعب عليه الاعتراف بهذا والانسحاب، على العكس، ازداد عندًا في التقدم إلى الأمام. عند لحظة ما قابل شقًّا جليديًّا، قاس المسافة بالعين، وعبره بخطوة واثقة، ثم ثبت المخرز في الثلج ولف الحبل حوله ليرفع برونو.

لم أكن أنا أشعر بأي اهتمام لما كنا نفعله. الفجر، الجليد، سلاسل القمم التي حولنا، السحب التي تفصلنا عن العالم: لم أكن أبالي بكل هذا الجمال الطبيعي. كنت أتمنى فقط أن يقول لي أحدهم كم من الوقت ما زال علينا المسير. وصلت على حافة الشق، ينحني برونو أمامي لينظر بداخله. قال له أبي أن يأخذ نفسًا عميقًا ويقفز، وبينما أنا أنتظر دوري، استدرت، وأسفل منا، في ناحية، كان انحدار الجبل يزداد، وينفصل الجليد في كتل شديدة الانحدار، وفي ما وراء ذلك الرعب من الكتل المحطمة، الساقطة والمسحوقة، ابتلع الضباب الملجأ الجبلي الذي رحلنا منه. عندئذٍ بدا لي أننا لن نعود أبدًا إلى الخلف،

t.me/ktabpdf

ونظرت إلى برونو بحثًا عن مساعدة، ورأيته وقد وصل بالفعل إلى الناحية الأخرى من الشق، وأبي يربت بإحدى يديه على ظهره يهنئه على القفزة. أما أنا، لم أنجح في العبور، فقد استسلمت معدتي وتقيأت الإفطار على الثلج. وهكذا لم يعد دوار الجبل الذي يصيبني سرًّا.

شعر أبي بالخوف. جرى لينقذني جزعًا. قفز الشق الجليدي من جديد، وتسبب في تشابك الحبال التي تربطنا نحن الثلاثة. فاجأني خوفه، لأنني كنت أنتظر منه أن يغضب، ولكن عندئذٍ لم أكن أدرك كم المخاطر التي قام بها ليصحبنا معه إلى أعلى الجبل، فعمر كل منا أحد عشر عامًا، مجهزين بشكل ما، يسحبنا على الجليد في جو سيئ خلف عناده. كان يعرف أن العلاج الوحيد لدوار الجبل هو أن ينزل إلى مستوى أقل، ولم يتردد في ذلك. بدل موضع الحبال بحيث أسير أنا في المقدمة وأستطيع أن أتوقف عندما أشعر بالإعياء، لم يعد هناك أي شيء في معدتي، ولكن من حين إلى آخر كنت أصاب بنوبات من التشنجات المعوية على معدةٍ فارغة، وأبصق فقط اللعاب.

وسرعان ما دخلنا في الضباب. سألني أبي من طرف الحبل الآخر: كيف حالك؟ هل تشعر بصداع؟

- لا أعتقد.

- وكيف حال معدتك؟

أجبت: أحسن بعض الشيء. على الرغم من أنني كنت أشعر بالضعف أكثر من أي شيء.

مكتبة

– خذ هذا. قال برونو، وأعطاني ما في قبضة يده من ثلج كان قد ضغط عليه حتى حوله لجليد. حاولت أن أمتصه. وبدأت معدتي، بفضل ذلك، وبفضل الارتياح من النزول، في الهدوء.

كان ذلك في صباح أحد أيام شهر أغسطس/ آب عام 1984، وكانت آخر ذكرى لي عن ذلك الصيف. في اليوم التالي عاد برونو إلى المرعى الجبلي، وعاد أبي إلى ميلانو. في تلك اللحظة كنا نحن الثلاثة فوق الجليد، معًا، يربطنا حبل الواحد في الآخر، وهو ما لن يحدث بعد ذلك أبدًا، سواء أردنا ذلك أم لا.

كنت أنا أتعثر في المسامير المعدنية ولا أستطيع السير باستقامة. برونو يسير خلفي مباشرةً، وبعد دقيقة، وفوق خطواتنا على الثلج، بدأت أسمع صوته أوه، أوه، أوه. كانت النغمات التي بها يعيد الأبقار إلى الإسطبل. إيه، إيه، إيه، أوه، أوه، أوه. يستخدمها ليعيدني أنا إلى النزل، نظرًا إلى أنني لم أكن أقوى على الوقوف، وكنت أثق في تلك النغمات، تركت قدمَيَّ لتخضعا لإيقاعه، وهكذا لم يكُن عليَّ التفكير في شيء آخر.

سألني: ولكن هل رأيت ذلك الشق الجبلي، سحقًا، كم كان عميقًا.

لم أجبه. كانت ما زالت أمام عيني اللحظة التي رأيتهما هناك فوق الجبل، متقاربين، وفخورين مثل أب وابنه. الآن يكوِّن الضباب والثلج معًا بياضًا متناسقًا أمامي، وكنت أحاول ألا أسقط. لم يقل برونو شيئًا آخر وعاد ليغني من جديد.

t.me/ktabpdf

مكتبة

ثلاثة

أصبح الشتاء في تلك الأعوام بالنسبة إليَّ فصل الحنين. كان أبي يكره المتزحلقين، ولم يكُن يرغب في أن يختلط بهم، كان يجد شيئًا مهينًا في لعبة النزول من على الجبل، دون أن يتعب المرء في تسلقه، على منحدرات منعمة بكاسحات الجليد، ومجهزة بمصعد بموتور. كان يكرههم لأنهم كانوا يصلون في مجموعات ولا يتركون خلفهم سوى الدمار. في بعض المرات، في الصيف، كان يتصادف ويقابل عمود إحدى المقاعد المعلقة، أو بعض ما تبقى من جرارة مزنجرة محشورة في ممر تزلج بالٍ، أو ما قد تبقى من محطة كابلات في إحدى الارتفاعات، لا تستخدم، عجلة يغطيها الصدأ على كتلة من الأسمنت في وسط الركام الصخري.

كان أبي يقول، ولم يكُن يمزح: لا بد أن نضع أسفلهم قنبلة.

t.me/ktabpdf

كانت الحالة التي يكون فيها، في أعياد ميلاد المسيح، عندما يشاهد البرامج الإخبارية التليفزيونية حول عطلات المتزلجين. كان آلاف المواطنين يغزون أودية الألب، يقفون في صفوف على تلك المحطات، ويتزلجون كالأسهم فوق معابرنا، وكان هو يفصل نفسه عن هذا كله بأن يحبس نفسه بعيدًا في شقة ميلانو. اقترحت أمي مرة أن نذهب في رحلة إلى «غرانا» حتى أرى الثلج، ولكن أبي أجاب بجفاف: لا؛ لن يعجبه. في الشتاء لا يناسب الجبل الآدميين ويجب أن يُترك في سلام. وفي فلسفته تلك حول الصعود والهبوط، أو حول الهروب إلى أعلى من الأشياء التي كانت تعذبه في أسفل، كان لا بد أن يتبع فصلَ الراحة فصل من الجِدة، أو الأفضل أن نقول فترة من العمل، والحياة في السهول، والمزاج الكئيب.

وهكذا الآن، أعرف أنا أيضًا معنى الحنين إلى الجبل، الألم الذي كنت قد رأيته يعذبه دون أن أفهم. أنا أيضًا الآن يمكن أن يسحرني ظهور قمة «الغرينيا» في نهاية الطريق. كنت أعيد قراءة صفحات مرشد نادي الألب كأنه يوميات، وأنهل من قصصهم المرتبطة بأزمنة أخرى، وأوهم نفسي بأنني أعيد المسار في المعابر خطوة تلو الأخرى: «تسلق حافات عشبية مائلة للوصول إلى جبال ألب مهملة»، «ومن هنا، وبالاستمرار عبر الجلاميد المنزلقة وبقايا الجليد»، «التي ستقودنا بعد ذلك لأعلى القمم ونحن على وشك اليأس الأكيد». ولكن في ذلك الوقت بدأت قدماي تشحبان بالتدريج، وتعافت الخدوش والتبقعات، ونَسيَّتا قَرصَات الحشرات، والشعور المثلج عند النزول في مجاري المياه بلا جوارب أو أحذية، والراحة التي توفرها الملاءات

مكتبة

المرطبة بعد ظهيرة في الشمس الحارقة. لا شيء، في شتاء المدينة، يمكنه أن يؤثر عليَّ بالقوة نفسها. كنت أراقبها من خلف مرشح يجعلها غير واضحة المعالم وشاحبة في عيني، مجرَّد ضباب من أشخاص وسيارات يعبر مرتين في اليوم، وعندما أنظر إلى الوادي السفلي من النافذة، تبدو لي أيام «غرانا» بعيدة جدًّا إلى حد أنني أتساءل إذا كنت قد عشتها بالفعل. ولكن هل يمكنني أن أخترعها بمفردي، أن تكون مجرد حلم؟ حتى لاحظت قطعًا جديدة من الضوء على النافذة، زهرة جيرمولين في العشب القليل بين جزر المرور، بدأ الربيع يعود حتى إلى ميلانو، وتحول الحنين إلى انتظار لأن تحين اللحظة التي سنعود فيها إلى هناك.

كان برونو ينتظر ذلك اليوم بحماسي نفسه. الفارق الوحيد أنني أنا من يذهب ويجيء، وهو ينتظر، أعتقد أنه كان يراقب العائدين من مركز مراقبة خاص به، لأنه جاء لينادي بعد أقل من ساعة من وصولي.

- بيريو! ينادي من الساحة. وكان ذلك هو الاسم الذي منحني إياه.

- هيا، اخرج. يقول دون أن يصافحني، كأننا كنا معًا اليوم السابق. وكان ذلك حقيقيًّا، كأن الشهور الأخيرة مُسحت فجأة، وبدا كأن صداقتنا تعيش صيفًا لا ينتهي.

ولكن كان برونو ينمو، في ذلك الوقت، أسرع بكثير مني. دائمًا متسخًا من الإسطبل، ويرفض الدخول إلى المنزل. ينتظر في الشرفة

t.me/ktabpdf

مستندًا إلى الدرابزين الذي لم يكُن أحد منا يستند إليه قط، لأنه يهتز بمجرَّد لمسه، وكنا واثقين أنه بين يوم وآخر سيسقط أرضًا. ينظر خلفه، كأنه يرغب في أن يتأكد أن لا أحد تبعه حتى هنا، هرب من أبقاره، وسيأخذني بعيدًا من كتبي، إلى مغامرات لم يكُن يرغب في أن يفسدها لي بالتحدث عنها.

- أين سنذهب؟ سألته وأنا أربط رباط حذائي الجبلي.

- إلى الجبل. واكتفى بهذه الإجابة، بنبرة غامضة خطرت بباله، ربما تلك التي يجيب بها على عمه. ثم ابتسم. لم يكُن يجب عليَّ سوى أن أثق به. تثق أمي بي. تردد هذه العبارة دائمًا، بأنها هادئة لأنها تعرف أنني لن أفعل شيئًا مؤذيًا. مؤذيًا، وليس متهورًا أو أحمق، كأنها كانت تشير إلى أخطار أخرى كثيرة ستقابلني في الحياة. ولم تسرد أية ممنوعات أو أية نصائح أخرى قبل أن تتركنا نرحل.

الذهاب إلى الجبل مع برونو لم يكُن له أي علاقة بالقمم. على الرغم من أننا نتبع المعبر نفسه إلى الغابة، متسلقين بسرعة لمدة نصف ساعة، وعند نقطة ما معروفة له، نترك الطريق الممهد، ونستمر من خلال طرق أخرى. بجوار الخنادق، أو ربما خلال الصنوبريات الكثيفة. بالنسبة إليَّ كانت الطريقة التي يتحرك بها غامضة، كأنه يتبع خريطة داخلية تشير إليه بالممرات حيث لم أكن أنا أرى سوى ضفاف مُدمرة، أو حواف صخرية حادة جدًّا. ولكن خلال الممر الأخير، بين شجرتي صنوبر ملتويتين، كشفت الصخرة عن شق يمكننا أن نصعد فوقه، وحافة لم تكُن مرئية في البداية، تركتنا نعبر بارتياح. بعض تلك الطرق

مكتبة

كان قد فُتح بضربات المعاول. وعندما سألته من كان يستخدمها، أجاب: عمال المناجم، وأحيانًا أخرى يقول: قاطعو الأخشاب، وهو يشير إلى علامات، لم أكن أنا قادرًا على ملاحظتها، جهاز رفع تليفريك صدئ وتغطيه الأعشاب. التراب الذي توجد في أسفله طبقة جافة ما زالت سوداء بسبب النيران، حيث كانت توجد مشاحر فحم. وكانت تنتشر في الغابة بقايا عمليات الحفر تلك والتراكمات والحطام، وبرونو يترجمها لي كأنها إشارات للغة مندثرة. وبالإضافة إلى تلك العلامات كان يعلمني لهجة، يجدها أصح من اللغة الإيطالية، كأنني لا بد، في الجبل، أن أستبدل اللغة التجريدية للكتب بلغة ملموسة للأشياء، الآن وقد بدأت ألمسها بيدي، فكانت شجرة اللاركس «لابرينجا» la brenga وشجرة الراتينج «لابيتزا» la pezza والصنوبر السويسري «أورولا» arula، وصخرة معلقة تحتها نحتمي من الأمطار «بارما» barma، والحجر «بيريو» berio، وكان هذا اسمي أنا أيضًا، بيترو، وكنت معجبًا جدًّا باسمي الحركي. كل نهر يقطع الوادي كان يُدعى «فالي» valey، وكل وادٍ له جانبان، متناقضان، «أردت» ardet، من الجانب المعرض أكثر للشمس، حيث توجد القرى والحقول، و«إينفرس» envers كان هو الجانب المرطب والمظلل، الذي تُرك للغابة والحياة البرية. ومن الجانبين كنا نفضل ذلك الخلفي.

هناك لم يكُن أحد يأتي ليزعجنا وكان يمكننا الذهاب بحثًا عن الكنوز، كانت توجد مناجم بالفعل، وفي الغابات حول «غرانا» توجد كهوف مغلقة ببعض اللوحات المُسمرة التي اقتحمها آخرون أيضًا قبلنا. وفي الأزمنة القديمة، حسبما يقول برونو، استخرجوا

t.me/ktabpdf

الذهب، وكانوا يبحثون عن العروق في كل مكان في الجبل، ولكن لا يمكن أن يكونوا قد أخذوه كله معهم، لا بد أنهم تركوا بعضه. وهكذا كنا ندخل سراديب مظلمة تنتهي للا شيء بعد بضعة أمتار، وأخرى ندخلها وفي العمق تصبح ملتوية ومظلمة. ذات أسقف منخفضة جدًّا، إلى حد أننا نقف فيها بالكاد. تتساقط المياه على الجدران وتمنح الشعور بأنه من لحظة لأخرى سينهار كل شيء، كنت أعرف خطورة ذلك، و أعرف أيضًا أنني أخون ثقة أمي، لأنه لم يكُن هناك أي حكمة على الإطلاق في أن ندخل إلى تلك الفخاخ، وكنت عندما أفعل ذلك أشعر بالذنب الذي يدمر أي شعور بالمتعة. تمنيت لو كنت مثل برونو، لدي الشجاعة في أن أتمرد على الملأ، وأن أقبل العقاب برأس مرفوع. إلا أنني كنت أعصي في الخفاء، وأفلت من العقاب وكان ذلك يخجلني. أفكر في هذه الأشياء بينما تبلل برك المياه قدمي هناك في الداخل. لم نعثر قط على أي ذهب، وسرعان ما كانت الأنفاق تُغلق أمامنا بكهف داخلي، أو تتحول فقط إلى الظلام الدامس فيصعب علينا التقدم أكثر، وأمام هذا لم يكُن أمامنا سوى الانسحاب.

وكنا نعوض ذلك الإحباط بأن نسرق بعض الحطام في طريقنا إلى المنزل. أكواخ الرعاة التي نمر عليها في الغابات، التي بُنيت بالمواد المتوفرة هناك، وتشبه الأنفاق. يتظاهر برونو بأنه يكتشفها معي. أعتقد أنه كان يحفظ بالفعل كل واحد من تلك الأكواخ البرية، ولكن توجد متعة خاصة في ضرب الباب بالكتف كأنها المرة الأولى. وفي الداخل نسرق آنية مثقوبة، أو النصل المتبلد تمامًا لمنجل، ونتخيلها

مكتبة

أشياءً قيمة، وفي القرية، قبل أن يذهب كل منا إلى حال سبيله، كنا نقتسم الغنائم.

في المساء كانت أمي تسألني أين كنت.

كنت أرد عليها وأنا أهز كتفي: هناك نتجول. ولا أرضيها كثيرًا ونحن نجلس أمام المدفأة.

- هل رأيت شيئًا جميلًا؟

- بالتأكيد يا أمي، الغابة.

تنظر إليّ بحزن، كأنها تفقدني. فهي تؤمن بالفعل بأن الصمت بين شخصين هو أصل كل المصائب.

- يكفيني أنك بخير. كانت تقول باستسلام وتتركني لأفكاري.

ولكنها كانت متمسكة بموقفها في المعركة الأخرى التي تخوضها في «غرانا». منذ البداية اتخذت مسؤولية تعليم برونو كأنه أمر شخصي، ولكنها عرفت أنها لن تستطيع أن تفعل كل شيء بمفردها، وكان لا بد أن تعقد التحالف مع نساء عائلته. عندما فهمت أن الأم لن تساعدها، قررت أن تركز على زوجة العم. كانت أمي تعمل بهذه الطريقة، تطرق الأبواب، وتضع قدمًا بداخل الأبواب، وتعود بلطف وبعناد، حتى التزمت زوجة العم بأن ترسله إلى المدرسة في فترة الشتاء، وترسله إلينا في فصل الصيف ليقوم بواجبات المدرسة. وكان هذا بالفعل انتصارًا. لا أدري كيف رأى العم ذلك، ولكنه ربما هناك في أعلى، في المرعى الجبلي، يطلق لعناته علينا جميعًا. أو ربما، في حقيقة الأمر، لم يكُن أحد يهتم بهذا الابن كثيرًا.

t.me/ktabpdf

وهكذا أتذكر الساعات الطويلة التي قضاها برونو في مطبخنا ليراجع التاريخ والجغرافيا، بينما في الخارج تنتظرنا الغابات ومجاري المياه والسماء. يرسلوه إلى منزلنا ثلاث مرات في الأسبوع، مُغتسلًا ومرتديًا ملابس المناسبات. تجعله أمي يقرأ بصوت عالٍ من كتبي- «ستيفنسون»، «جيل فيرن»، «مارك توين»، «جاك لندن»- وتتركها له، بعد الدرس، لكي يتمرن عليها أثناء وجوده في المرعى. كانت الروايات تعجب برونو، ولكن أزمته الفعلية كانت مع النحو، بالنسبة إليه بدا كأنه يدرس لغة غريبة. وعندما كنت أراه يتعثر في قواعد اللغة الإيطالية، ويخطئ في تهجي كلمة ما، أو يتلعثم أمام تصريف أحد الأفعال، كنت أشعر بالخجل من أجله، وبالغضب من أمي. لم أكن أرى أي عدل في ما كنا نفرضه عليه. إلا أن برونو لم يعترض قط ولم يتمرد. فهو يفهم مقدار حرصها عليه، ربما لم يسبق له أن شعر بأن له أي قيمة لدى أي أحد، وكان يصر أكثر على التعلم.

بعض المرات القليلة، سمحوا له في الصيف، أن يذهب ليتمشى معنا، وكانت تلك هي أيام عطلته، ومكافأته على الوجود في الدراسة، سواء بالذهاب إلى قمة ما مع أبي، أو فقط الذهاب إلى أحد المراعي حيث تعد أمي لنا نزهة وغذاء. عندئذٍ لاحظت تحولًا ما في برونو. على الرغم أنه كان عاصيًا بطبعه، فإنه كان يتأقلم مع قواعد وطقوس عائلتنا. وبينما يتصرف معي كراشد بالفعل، مع أبوي يتقهقر بسعادة لسنه الحقيقية، يترك أمي تغذيه، وتساعده على ارتداء ملابسه وتربت عليه، ويكن لأبي احترامًا يقترب من الإعجاب. كنت أراه في طريقته التي يسير بها خلفه على المعبر، والطريقة التي يستمع بها إليه في صمت

مكتبة

عندما يبدأ في الشرح. كانت لحظات عادية في حياة أي عائلة، ولكن برونو لم يعشها قط، وكان جزء مني فخورًا كأنها هدايا أقدمها إليه، ولكن أحيانًا بينما أراقبه مع أبي، وألتقط لحظة حميمية بينهما، كنت أشعر أنه ابن مناسب له أكثر، ليس لأنه أكثر مهارة مني، ولكنه بطريقة ما، كان أنسب. كانت تملؤه الأسئلة ويطرحها بلا خوف. لديه الأمان الذي يفيده في أن يتداخل بثقة مع أبي، والقدمان اللتان تسمحان له بأن يتبعه إلى أي مكان. كانت تخطر لي تلك الأفكار، ثم أطردها بعيدًا كأنها أفكار مخجلة.

وفي النهاية نجح برونو في الصف الأول، والصف الثاني، بل والصف الثالث أيضًا من الدراسة المتوسطة، وكانت درجاته «عادية». إلا أنه كان حدثًا غير عادي في عائلته إلى حد أن زوجة عمه اتصلت على الفور بميلانو لتبلغنا الخبر. يا لها من كلمة غريبة، وتساءلت من يا ترى اخترعها، نظرًا إلى أنه لم يكُن هناك أي شيء «عادي» في ما يتعلق ببرونو. أما أمي من الناحية الأخرى فقد كانت في غاية السعادة، وعندما عدنا إلى «غرانا» أخذت له هدية: صندوق أزاميل ليحفر بها الخشب. ثم بدأت تتساءل ماذا أيضًا يجب أن تفعله لأجله.

ثم جاء صيف عام 1987، وعامنا الرابع عشر. لمدة شهر كرسنا وقتنا للاكتشافات المنهجية للنهر. ليس من أعلى من على الضفتين، ولا من خلال المعابر هنا وهناك التي تتقاطع معه في الغابة، ولكن في المياه، في التيار، بأن نقفز من كتلة إلى أخرى، أو بالخوض فيه. لم نسمع قط، عن

t.me/ktabpdf

«رياضة تسلق الوديان»، إذا كانت بالفعل لها وجود في تلك الأزمنة، إلا أننا كنا نمارسها بالعكس: من جسر «غرانا» إلى الأعلى، صعودًا إلى الوادي الكبير. وفوق البلدة بقليل ندخل إلى ألسنة المياه الضيقة، في ظلال البرك المغطاة بالنباتات. آبار كبيرة مليئة بالحشرات، تشابكات أخشاب غائصة، أسماك سلمون عجوز مرتابة تبتعد في أثناء عبورنا. وكلما صعدنا واجهنا مشكلة المزالق، التي تجعل النهر يجري باندفاع شديد، ويكون التقدم خلالها من خلال القفز والسقوط. وحيث لا وجود لوسيلة للتسلق، كنا نستخدم حبلًا لنعبر الشلال أو جذع شجرة ساقطًا، وكنا ننقله إلى المياه ونحشره بين كتل الصخور لنصنع منه سلمًا. وفي بعض الأحيان، كان مجرَّد شلال صغير يكلفنا ساعات عمل طويلة. ولكن هذا ما كان يجعل العملية ممتعة. كنا نخطط لحل كل عملية عبور واحدة تلو الأخرى، ثم نصلها كلها بعضها ببعض، ونصعد إلى الأعلى بطوال النهر كله في يوم مجيد في آخر الصيف.

ولكن في البداية كان علينا أن نكتشف من أين ينبع. وباقتراب الإجازة الرسمية لشهر أغسطس/ آب، تجاوزنا بالفعل أراضي عم برونو. كان هناك فرع ضخم منه يسقي المرعى الجبلي بالمياه، وبعد ذلك التفرع بقليل كان هناك جسر أخير بدائي، ليس أكثر من لوحين يكوِّنان معبرًا، ومن هناك إلى أعلى يضيق النهر ولا يتسبب لنا في أية صعوبة. فهمت من بداية تقهقر الغابة أننا على وشك الوصول إلى ارتفاع ألفي متر، فقد اختفت أشجار الإلدر والبتيولا من ضفاف النهر، وتركت كل شجرة مكانها لأشجار اللاركس، وفوق رؤوسنا فُتح ذلك العالم الحجري الذي أطلق عليه العم لويجي غوليلمينا اسم

مكتبة

«غرينون». عندئذٍ فقد النهر ملامحه المعتادة -تحول لشيء ما محفور شكلته المياه- وأصبح مجرَّد ركام صخري، واختفت المياه تمامًا تحت أقدامنا. وكانت تخرج من أسفل الصخور، بين الجذور المتشابكة لشجرة عرعر.

لم أكن أتخيل أن المنبع سيكون بهذا الشكل، وشعرت بالإحباط. التفتّ نحو برونو الذي كان على بعد بضع خطوات خلفي. كان منغلقًا على نفسه كل فترة ما بعد الظهر، تائهًا في بعض الأفكار. عندما يكون بذلك المزاج، لم أكن أعرف ما أفعله، سوى أن أسير بصمت، وأتمنى أن يعبِّر عنه.

ولكن بمجرَّد أن رأى النبع خرج من صمته، فقد شعر بإحباطي من أول نظرة. وقال: انتظر. أشار لي بأن أصمت وأخذ يتنصت، ثم أشار لأذنه، وأخذ يراقب التراكم الصخري تحت أقدامنا.

لم يكُن الهواء في ذلك اليوم ساكنًا كما في عادة الصيف. على الأحجار الفاترة تهب رياح أكثر برودة تمر بين النباتات المزهرة وتتطاير معها مجموعات من الحبوب الناعمة، وتحرك الأوراق. وبالإضافة إلى هذا الهبوب، وبالإصغاء جيدًا كان هناك صوت خرير. كان مختلفًا عن ذلك الذي تنتجه المياه في ضوء الشمس، صوتًا منخفضًا أكثر ومكتومًا. يبدو كأنه آتٍ من أسفل الركام الصخري. فهمت ما هو، وبدأت أتبعه وأنا أصعد مرة أخرى، على أثر المياه التي أسمع صوتها ولا أراها، كأنني عراف مياه. تركني برونو، الذي كان يعرف بالفعل ما سنعثر عليه، لأتقدم المسيرة.

t.me/ktabpdf

كان ما عثرنا عليه هو بحيرة، مختبئة في حوض أسفل «الغرينون». كان اتساعها مائتين أو ثلاثمائة من الأمتار، أكبر بحيرة رأيتها في الجبل، وكانت مستديرة. يكمن جمال بحيرات الألب هو أنك لا يمكن أن تتوقعها في أثناء صعودك، إذا لم تكُن تعرف بالفعل أنها موجودة، وأنك لا تراها حتى تخطو الخطوة الأخيرة، وتتجاوز ارتفاع الأخدود، وعندئذٍ، أمام عينيك، يتفتح هذا المنظر. كان الحوض كله صخور من ناحية الشمس، وبالتدريج، كلما اتجه النظر تجاه الظل، مغطى بالصفصاف والردوندرون في البداية ثم بعد ذلك أشجار الغابة. في الوسط توجد البحيرة. بالنظر إليها استطعت أن أفهم كيف تكونت: أغلق الانهيار الجبلي القديم، الذي يُرى من المرعى الجبلي لعم برونو، الوادي الكبير كأنه السد، وهكذا تكونت البحيرة فوق السد، حيث تجمعت المياه التي هربت من الجليد المحيط، قبل أن تظهر من جديد أسفل الجبل، متخللة التراكمات الصخرية، ثم أصبحت خلال ذلك النهر الذي نعرفه. أعجبني واقع أنه نشأ بهذه الطريقة، كانت تبدو لي نشأة جديرة بنهر عظيم.

سألت: ما اسم هذه البحيرة؟

قال برونو: لا أعرف. «غرينون». هذا هو اسم كل شيء هنا.

كان قد عاد لمزاجه السابق. جلس على العشب وأراح قدميه بجواري. كان النظر إلى البحيرة أسهل من أن ينظر كل منا إلى الآخر، وعلى بعد بضعة أمتار على أحد الجوانب كانت تبرز من المياه كتلة تبدو كأنها جزيرة صغيرة، وكانت تكفي لنشغل أنظارنا بشيء ما.

مكتبة

قال برونو بعد وهلة: لقد تحدث أبواك مع عمي، هل كنت تعرف هذا؟

- لا.

-كذبت.

- غريبة. لكن على كل حال لا أفهم شيئًا.

- عن ماذا؟

- عن الأسرار التي بينكم.

- وعمَّ تحدثا مع عمك؟

أجابني: عني.

عندئذٍ جلست بجواره. ذلك الذي قصه عليَّ بعد ذلك لم يفاجئني على الإطلاق. كان أبواي يتناقشان فيه منذ فترة، ولم أكن في حاجة لأن أتنصت على الأبواب لأعرف نواياهما: في اليوم السابق اقترحا على لويجي غوليلمينا أن نأخذ برونو معنا في سبتمبر. أن يذهب معنا إلى ميلانو. عرضا أن يستضيفاه في منزلنا وأن يسجلاه في مدرسة ثانوية أو في معهد تقني أو مهني، أو ما يفضله هو. كانا يفكران في عام للتجربة، وإذا لم يشعر برونو بأنه يرغب في هذا يمكنه أن يتركه، وأن يعود إلى «غرانا» في الصيف التالي، وفي حالة حدوث العكس، فإن أبوي سيسعدهما أن يبقى معنا حتى يحصل على الشهادة، وعندئذٍ يمكنه أن يقرر هو، بحرية، ما يريد أن يفعل بحياته.

حتى في حكاية برونو استطعت أن أستمع إلى صوت أمي: سعداء ببقائه معنا، بحرية، حياته.

t.me/ktabpdf

قلت: لن يوافق عمك قط.

قال برونو: على العكس، هل تعرف لماذا؟

- لماذا؟

- بسبب النقود.

أخذ يحفر الأرض بإصبعه، وأمسك بحصوة وأضاف: من الذي سيدفع. هذا كل ما يهم عمي. وقال أبواك إنهما هما المسؤولان عن ذلك. عن كل شيء من غذاء، مسكن ومدرسة. بالنسبة إليه الصفقة مربحة.

- وماذا قالت زوجته؟

- ليس لديها مانع.

- ووالدتك؟

نفخ برونو. وألقى بالحصوة في المياه. كانت صغيرة جدًّا فلم تصدر أي صوت.

- أمي ماذا تقول، كالعادة. لا شيء على الإطلاق.

كانت هناك طبقة من الطمي الجاف على صخور النهر. قشرة سوداء على ارتفاع شبر، ومنها يمكن أن نفهم كم كان ارتفاع البحيرة في الربيع. الآن الجليد الذي كان يغذيها تحول إلى بقع رمادية في الخنادق، وإذا استمر الصيف، سينتهي أمرها بأن تختفي تمامًا. بلا جليد، من يدري ماذا يمكن أن يحدث لتلك البحيرة.

سألت: وأنت؟

- أنا ماذا؟

مكتبة

- هل يعجبك الأمر؟

- أن آتي معكم إلي ميلانو؟ قال برونو: أنا لا أعرف. هل تعرف منذ الأمس وأنا أحاول أن أتخيل ذلك؟ ولكنني لا أستطيع، حيث لا أعرف كيف هي.

مكثنا في صمت. أنا كنت أعرف كيف هي، ولم أكن في حاجة إلى أن أتخيل أي شيء لأتمرد على تلك الفكرة.

كان برونو سيكره ميلانو، وستدمر ميلانو برونو، مثلما كانت تفعل زوجة عمه عندما تنظفه وتضع عليه ملابسه وترسله إلينا ليتعلم النحو. لا أفهم على الإطلاق لماذا يفعلون كل هذا ليغيروا طبيعته. ما الشر الذي يرونه في تركه يرعى الأبقار ما تبقى من حياته؟ لم أكن أدري عندئذٍ أنها كانت فكرة أنانية إلى حد بشع، لأنها لا تتعلق بما كان يتعلق ببرونو بالفعل، برغباته، بمستقبله، ولكن كنت أفكر فقط في أن أستمر في استغلاله في ما يتعلق بصيفي، وبصديقي، وجبلي. كنت أتمنى ألا يتغير أي شيء هنا في أعلى، لا الأكواخ المحترقة ولا أكوام السماد بطوال الطريق.

كنت أتمنى أن يظل هو، ومعه الأكواخ والأسمدة كما هم دائمًا، وأن يتوقف الزمن بالنسبة إليهم في انتظاري.

اقترحت: لماذا لا تقول لهم؟

- ماذا؟

- إنك لا تريد أن تذهب إلى ميلانو. إنك تريد البقاء هنا.

t.me/ktabpdf

التفت برونو لينظر إليَّ. ثنى حاجبيه. لم يكُن يتوقع تلك النصيحة مني. ربما فكر فيها هو أيضًا، ولكنه لم يكُن يتوقع أن أفكر أنا بهذه الطريقة. وقال: هل أنت مجنون؟ أنا لن أمكث هنا. حياتي كلها قضيتها في تسلق هذا الجبل من الأسفل إلى الأعلى.

ثم نهض على قدميه، وهناك فوق المرعى الذي كنا نجلس فوقه وضع يديه حول فمه وصاح: أوه! هل تسمعني؟ إنه أنا، برونو! سأرحل من هنا!

ومن الشاطئ المقابل للبحيرة أعاد ميل «الغرينون» صدى صرخته، وسمعنا بعض الحصى يتساقط، فلقد أزعجت صرخته مجموعة من ظباء الشامواه كانت تتسلق التراكم الصخري.

أشار لي برونو لأراها. كانت تعبر عبر الصخور مختفية خلفها، ولكن عندما عبرت الحقل الجليدي استطعت أن أحصيها. كان قطيعًا صغيرًا مكونًا من خمس. تسلق القطيع تلك البقعة الجليدية في صف فردي، وصل إلى القمة، ومكث هناك لبرهة كأنه ينظر إلينا نظرة أخيرة قبل أن ينصرف، ثم اختفى الواحد منها تلو الآخر نزولًا على الناحية الأخرى.

كان ارتفاع الأربعة آلاف متر لذلك الصيف هو جبل «الكاستور». كنا نتسلق أحد الجبال كل عام، أنا وأبي، على «المونتي روزا»، لنختتم الموسم ببهجة، بعد أن نكون قد تدربنا جيدًا. لم أتوقف عن الذهاب فوق الجليد ولا عن المعاناة بسبب تأثيره، ولكنني فقط اعتدت على

مكتبة

الشعور بالغثيان، وأن تصبح هذه المعاناة جزءًا من ذلك العالم مثلها مثل الاستيقاظ قبل الفجر، والطعام المجمد الجاف للنزل، ونعيق الغربان على المستويات المرتفعة. كان ذهابًا إلى الجبل ولم يكُن فيه أي نوع من المغامرة. كان شيئًا بشعًا التقدم خطوة تلو الأخرى، وتقيؤ النفس وصولًا إلى القمة. كنت أكره هذا، وفي كل مرة كنت أجد نفسي وقد كرهت تلك الصحراء البيضاء، إلا أنني كنت أستمر فخورًا بوصولي إلى ارتفاع أربعة آلاف مترًا، كأنه دليل آخر على الشجاعة. في عام 1985 وصل قلم أبي الأسود إلى «فينسنت»، وفي عام 86 وصل إلى «نيفيتي». كان يعتبر تلك القمم مجرَّد عملية تدريب. استشار بعض الأطباء وكان واثقًا أن دوار الجبل سيذهب عني بتقدمي في السن، وهكذا بعد ثلاثة أو أربعة أعوام سأبدأ التفكير في أمور أكثر جدية، مثل عبور جبال «ليسكام» أو صخور «دوفور».

ولكن عن جبل «كاستور»، وأكثر من القمة الطويلة، أتذكر ليلة النزل، أنا وهو بمفردنا، أتذكر صحن المعكرونة، ونصف لتر من النبيذ على المائدة، متسلقي الألب الجالسين بجوارنا يتناقشون في ما بينهم، الوجوه التي كساها التعب وأشعة الشمس بالحمرة. وكانت فكرة الغد تخلق في الصالة نوعًا من الترحيب. كان أبي يجلس أمامي وهو يتصفح سجل الزوار، مادة قراءته المفضلة في الملاجئ الجبلية. كان يتحدث الألمانية جيدًا ويفهم الفرنسية، ومن حين إلى آخر يترجم لي فقرة عن لغات الألب. في السجل، عاد أحدهم إلى القمة بعد ثلاثين عامًا وكان يشكر الله. وآخر يفتقد صديقًا لم يعد موجودًا.

t.me/ktabpdf

كانت تلك الأشياء تؤثر به، حتى أنه أخذ القلم واشترك هو أيضًا في تلك اليوميات الجماعية.

عندما نهض ليملأ الإبريق، نظرت إلى ما كتبه. كان خطه كثيفًا وعصبيًّا، صعبًا قراءته إذا لم يكُن المرء يعرفه. وقرأت: **أنا هنا مع ابني بيترو البالغ من العمر أربعة عشر عامًا. ستكون هذه المرة الأخيرة لي في المقدمة لأنه سرعان ما سيجذبني هو إلى أعلى. لا أحب كثيرًا العودة إلى المدينة، ولكنني سآخذ معي ذكريات تلك الأيام كملاذي الأجمل.** ثم وقع: **جوفاني غواستي.**

- وبدلًا من أن تحرك تلك الكلمات مشاعري، أو تشعرني بالفخر، ضايقتني. شعرت فيها بشيء مزيف ومليء بالعواطف، مجاز عن الجبال لا يتناسب مع الحقيقة. إذا كانت بالفعل جميلة إلى هذا الحد لماذا لا نمكث هنا ونعيش فيها؟ لماذا ستأخذ صديقي الذي وُلد ونشأ هنا بعيدًا عنها؟ وإذا كانت المدينة مقرفة إلى هذا الحد، لماذا نجبره أن يأتي ليعيش فيها معنا؟ هذا ما وددت أن أسأله لأبي- وأمي على حد سواء، إذا فكرت في الأمر. كيف يمكن أن يكون لديك هذا اليقين بما هو أفضل لحياة شخص آخر؟ كيف لا يساورك ولو مجرَّد شك، بأنه هو بإمكانه أن يعرف أفضل منك؟

ولكن عندما عاد أبي كان في حالة نفسية رائعة. فهو اليوم الثالث قبل يوم إجازته الأخير، يوم الجمعة في شهر أغسطس/ آب من عامه الخامس والأربعين، وكان في ملجأ ألبي مع ابنه الوحيد. أخذ كأسًا أخرى وملأ نصفها لأجلي. ربما، في خياله، الآن وقد بدأت أكبر

مكتبة

سأتحرر من دوار الجبل، ومن أب وابنه سنتحول إلى شيء آخر. إلى رفاق تسلق، كما كتب في ذلك السجل، رفاق كأس. ربما كان يتخيل هذا بالفعل، بأننا خلال بضعة أعوام، سنجلس إلى مائدة على ارتفاع ثلاثة آلاف وخمسمائة متر، لنحتسي النبيذ الأحمر وندرس خرائط الطرق، ولا توجد أسرار بيننا.

سألني: كيف حال بطنك؟

- بخير.

- وقدميك؟

- في أحسن حال.

- رائع. إذًا سنستمتع في الغد.

رفع أبي كأسه وفعلت أنا بالمثل، تذوقتها، وشعرت أنها تعجبني، وبينما أتجرعها انفجر شخص جالس بجوارنا في الضحك، قال شيئًا ما باللغة الألمانية وأعطاني ضربة على ظهري كأنه يرحب بانضمامي للتو إلى العائلة الكبيرة.

في مساء اليوم التالي عدنا إلى «غرانا» مثل الناجين من الجليد. أبي وقميصه مفتوح، وحقيبته على كتف واحدة، يعرج في السير بسبب تقرحات قدميه، وأنا أشعر بالجوع كالذئب لأنني بمجرَّد أن نزلت من المرتفعات أدركت معدتي أنها فارغة منذ يومين. كانت أمي تنتظرنا بالمياه الساخنة والعشاء على الطاولة. بعد ذلك سيأتي وقت الحكي، وأبي سيحاول أن يصف لها لون الجليد في الشقوق، ودوار الجدران الشمالية، وأناقة الأطر الجليدية فوق القمم، وكانت لي أنا من

t.me/ktabpdf

كل تلك الرؤى مجرَّد ذكريات ضبابية يغطيها الغثيان. وكالعادة كنت سأصمت. تعلمت بالفعل أمرًا لم يستسلم له أبي قط، وهو أنه من المستحيل نقل ما يجربه المرء هناك فوق، لمن ظل في المنزل.

ولكن في ذلك المساء لم نستطع أن نحكي أي شيء. بينما أنا على وشك الاستحمام سمعت صوت رجل يصيح من الأسفل في الساحة. ذهبت إلى النافذة وأزحت الستائر، ورأيت شخصًا يشير بيديه ويصرخ بكلمات لم أكن أفهمها. كان هناك أبي فقط بالخارج، كان قد فرد جواربه في التراس، والآن كان يغسل قدميه المتألمتين في النافورة، وهكذا قام من حافة الحوض ليواجه ذلك الغريب.

ولوهلة فكرت في أنه أحد مربي الماشية غاضب لاستخدام المياه الخاصة به. في «غرانا» يخترعون أي حجة ليغضبوا على الغرباء. كان من السهل التعرف على المحليين، فجميعهم يتحركون بالطريقة نفسها، ولهم الملامح القوية نفسها التي منها تبرز، بين الجبهة وعظم الوجنتين، عينان سماويتا اللون. كان هذا الرجل أقصر من أبي، إلا أن ذراعيه مفتولتا العضلات ويديه ضخمتان، غير متناسقتين بالمرة مع باقي جسده. بهما أمسك بطرفي قميص أبي أسفل الياقة، وبدا كأنه يريد أن يرفعه لأعلى.

فرد أبي يديه. كنت أراه من خلف وأتخيله وهو يقول: اهدأ اهدأ. تمتم الرجل بشيء ما، وأظهر أسنانه الفاسدة. وجهه أيضًا أصابه التلف، لم أكن أعرف ماذا أفسده، كنت ما زلت صغيرًا جدًّا لأتعرف على تأثير إدمان النبيذ على الوجوه. قام بتحريك وجهه بطريقة مماثلة

مكتبة

لطريقة لويجي غوليلمينا، وفي تلك اللحظة أدركت كم كان يشبهه. بدأ أبي يحرك يديه ببطء، وفهت أنه كان يشرح له، وبمعرفتي له، أعرف أن حججه كانت دائمًا قوية. أخفض الرجل نظرته، مثلما أفعل أنا دائمًا، وبدا كأنه يعيد التفكير، ولكنه كان ما زال ممسكًا بقميص أبي. أدار أبي كفي يديه كأنه يقول: حسنٌ، هل يفهم الآن أحدنا الآخر؟ وماذا بعد؟ كان هناك شيء مضحك في رؤيته في هذا الموقف وهو حافي القدمين. على ربلتيه ترك الجورب السميك خطين واضحين يقسمان بوضوح كاحليه الشاحبين بطبقة رفيعة من الجلد القرمزي أسفل الركبتين، تلك المنطقة التي تتركها البناطيل القصيرة عارية. ها نحن أمام مواطن متعلم، واثق بنفسه، معتاد على أن يقول للآخرين ما يجب عمله، حرق للتو ربلتيه على الجليد ويحاول أن يتفاهم مع شخص سكير من سكان الجبل.

قرر الرجل أنه اكتفى بهذا. وبين لحظة وأخرى، بلا مقدمات، خفض يده اليمنى وعقد قبضته وضرب أبي على صدغه. كانت المرة الأولى التي أرى فيها لكمة حقيقية. وصل صوت ضربة مفاصل يده على الفك إليَّ حتى داخل الحمام، جافة كأنها ضربة عصا خشبية. تراجع أبي خطوتين للوراء، مرتبكًا، ولكنه استطاع أن يتجنب السقوط، ولكن بعد ذلك على الفور سقط ذراعاه إلى جانبيه وانحنى كتفاه بعض الشيء. كانت وقفة رجل محبط. قال الرجل شيئًا قبل أن يرحل، تهديدًا أو وعيدًا، ولم تكُن مفاجأة بالنسبة إليَّ أن أراه متوجهًا إلى منزل عائلة غوليلمينا؛ ففي أثناء تلك المواجهة السريعة أدركت من هو.

t.me/ktabpdf

كان عليه أن يعود ليطالب بما له، ولكنه لم يكُن يعلم أنه أخطأ الشخص المقصود، ولكن في نهاية الأمر لا يوجد فارق: كانت تلك الضربة موجهة إلى وجه أبي لتزرع شيئًا بوضوح في عقل أمي، شيئًا كانفجار الواقع في وجه نزعاتها المثالية، وربما أيضًا في وجه كبريائها. وفي اليوم التالي لم يظهر برونو ولا أبوه في الجوار. ورمت عين أبي وازرقت، لكنني لا أعتقد أنها كانت ما يؤلمه بشدة عندما دخل سيارته في ذلك المساء وتركنا ليعود إلى ميلانو.

الأسبوع التالي كان الأسبوع الأخير بالنسبة إلينا في «غرانا». أتت زوجة عم برونو لتتحدث مع أمي، كانت مُحبطة وحذرة وتشعر بالقلق، ربما لم تكُن تريد أن تفقد مستأجرين مخلصين مثلنا. هدأتها أمي. كانت تفكر بالفعل كيف يمكنها أن تحتوي الخسائر وتحافظ على العلاقات التي بنتها بتعب.

بالنسبة إليَّ كان أسبوعًا لا ينتهي. كانت تمطر باستمرار، وكان هناك غطاء من السحب المنخفضة يغطي الجبال وأحيانًا تتفرق، كاشفة عن طبقة الجليد الأولى على ارتفاع الثلاثة آلاف. كان سيعجبني أن أتخذ طريقًا من تلك التي أعرفها، وأن أذهب لأطأ عليها دون أن أسأل أي شخص أي شيء، إلا أنني مكثت في البلدة، أعيد التفكير في ما رأيته وأشعر بالذنب لما شعرت به، ثم في يوم الأحد أغلقنا المنزل ورحلنا بدورنا.

مكتبة

أربعة

لم أنـزع تلـك اللكمـة مـن رأسي حتـى اللحظـة التي تحليـت فيها بالشجاعة لأكيل واحدة أنا أيضًا. كانت أول واحدة من سلسلة منها، في الحقيقـة، ولكن أكثرها قسـوة كلتها في السـهل في زمن تالٍ، ولكن الآن يبدو لي في واقع الأمر أن سـني كشـخص متمرد بدأت في الجبل. مثل كل ما كان يعني شـيئًا ما، بالنسـبة إليَّ. الحدث نفسـه كان من لا شيء، كان عمري ستة عشر عامًا، وقرر أبي أن يأخذني لأنام في خيمة. ابتاع واحدة قديمة وثقيلة جدًّا في أحد أسـواق الأدوات العسـكرية. كان يفكـر في أن ينصبهـا عـلى ضفة نهر ما، وأن يصطاد بعض أسـماك السـلمون، دون أن يفاجئـه أحـد حراس الغابـة، وأن يشـعل نارًا في الظلام ويشـوي فوقها السمك، ومن يدري، ربما أيضًا أن يسهر وهو يشرب ويغني أمام النيران.

t.me/ktabpdf

لم يكُن يهتم قط بأي شيء متعلق بالتخييم، ولكنني كنت أشك أن وراء هذا يوجد شيء آخر في البرنامج لي. في الفترة الأخيرة انعزلت في زاوية أراقب من خلالها حياتنا العائلية بعين تخلو من الرحمة. تلك العادات المتجذرة الثابتة لوالدي، نوبات الغضب غير المؤذية لأبي وحيل أمي المعتادة لتحتويها، التنمرات الصغيرة والحيل التي لم يعودا يُدركان أنهما يلجآن إليها. كان هو انفعاليًا، متسلطًا، غضوبًا، بينما هي قوية وهادئة ومتحفظة. لديها تلك الطريقة المطمئنة بإنجاز الجزء المطلوب منها بينما يقوم الطرف الآخر بما عليه. لم تكُن مناقشاتهما حقيقية، ولكنها مسرحيات أتوقع نهايتها في كل مرة، وانتهى أمري بأن حبست نفسي أيضًا بداخل ذلك القفص، وشعرت بضرورة الهروب من هناك، ولكنني لم أنجح قط في أن أقول ذلك، لم تخرج كلمة قط من فمي، لم يرتفع صوتي قط ليعترض على أي شيء، وأعتقد أن لهذا السبب، لدفعي على التحدث، ظهرت الآن تلك الخيمة اللعينة.

بعد تناول الغداء، فرد أبي الأدوات في المطبخ وقسمها بحيث نقتسم الحمولة. كانت الأعمدة والمشدات تزن وحدها نحو عشرة كيلوغرامات، بالإضافة إلى حقائب النوم، والسترات الواقية، والكنزات والطعام، وعلى الفور امتلأت حقائب الظهر. بدأ أبي وهو راكع على ركبتيه أرضًا في توسيع كل حلقة، ثم بأن يدفع، يضغط ويشد، في حرب مع الكميات والأحجام، وأنا بالفعل أشعر بأنني أعرق أسفل تلك الحمولة في حر الظهيرة، ولكن لم يكُن الثقل هو ما بدا لي غير محتمل، ولكن كان ذلك المشهد الذي يتخيله هو،

مكتبة

أو هما، النيران والبحيرة والسلمون، السماء المليئة بالنجوم، وكل ما يشبه ذلك.

قلت: بابا، هيا، دعك من هذا.

قال، وهو ما زال يلقي بشيء ما داخل الحقيبة، مركزًا في المجهود: مهلًا، مهلًا.

- لا. إنني جاد في ما أقول، لا فائدة.

توقف أبي ورفع نظرته. كان بها تعبير غاضب بسبب الإنهاك، والطريقة التي نظر بها إليَّ جعلتني أشعر أنني لست سوى حقيبة أخرى متعبة، حزمة أخرى لم ترغب في أن تنصاع لأمره.

هززت كتفي.

بالنسبة إلى أبي، إذا التزمت الصمت هذا يعني أنه يمكنه هو التحدث. فرد جبهته وقال: ربما يمكننا أن نخرج بعض الأشياء. هل يمكنك أن تساعدني؟

أجبته: لا، الأمر لا يعجبني فعلًا.

- ما الذي لا يعجبك، الخيمة؟

- الخيمة، والبحيرة، الأمر برمته.

- كيف، ماذا تعني الأمر برمته؟

- لا أرغب في هذا. لن أذهب معك.

t.me/ktabpdf

لم يكُن في إمكاني أن أسدد إليه ضربة أسوأ. كان رفضي لأن أتبعه في الجبل شيئًا لا مفر وكان سيحدث إن آجلًا أم عاجلًا، ولا بد أنه توقعه، ولكن من حين إلى آخر كنت أفكر، نظرًا إلى أنه لم يكُن لديه أب، تغيب عنه بعض الهجمات، ولذلك لم يكُن مستعدًا لتلقيها. جُرح بشدة. ربما كان يستطيع أن يسألني المزيد، ويا ليته فعل، كانت ستكون فرصة جيدة ليستمع لما سأقوله، ولكن من الواضح أنه لم يكُن قادرًا على ذلك، ولم يبدُ له هذا ضروريًا، أو ربما شعر بالإهانة في تلك اللحظة إلى حد منعه من التفكير في هذا. ترك الحقائب هناك، ومعها الخيمة وحقائب النوم، وذهب ليسير وحده. بالنسبة إليَّ كان هذا تحررًا.

أما برونو كان مصيره العكس، يعمل الآن كبنَّاء مع أبيه. لم أكن أراه تقريبًا قط. كانا يعملان في الجبل الأعلى في بناء نُزل، وأكواخ المراعي، وكانا خلال أيام الأسبوع يمكثان هناك فوق للنوم. كنت أتقابل معه فقط يوم الجمعة أو السبت، ليس في «غرانا» ولكن في إحدى بارات الوادي العميق. أصبح لدي كل الوقت الذي أريده، الآن وقد تحررت من واجب تسلق جبال الألب، وبينما كان أبي يصعد إلى القمم كنت أنا أنزل إلى مستويات منخفضة بحثًا عن شخص في سني، وكان عليَّ أن أفعل ذلك مرتين أو ثلاث مرات ليُسمح لي بصحبة المصيفين، وكنت أقضي أمسياتي بين أرائك ملعب تنس، أو موائد حانة ما، على أمل ألا يدرك أحد أنني لا نقود لدي لأطلب أي شيء. أستمع إلى الثرثرات وأراقب الفتيات، ومن حين إلى آخر أرفع عينَي نحو الجبال. كنت أعرف المراعي والبقع البيضاء الصغيرة جدًّا للأكواخ المبيضة. الأخضر اللامع لأشجار اللاركس التي تشي خلفها

مكتبة

بالأخضر الداكن للتنوب والجزء «الأمامي» لضوء الشمس، وذلك «الخلفي» للظلال. وأعرف أن ليس هناك سوى القليل من الأشياء المشتركة بيني وبين أولئك الشباب في إجازاتهم، ولكنني كنت أرغب في أن أصارع ميلي للوحدة، وأن أحاول التواجد مع آخرين لوهلة، لأرى ما يمكن أن يحدث.

في المساء، وفي نحو السابعة، يصل العمال والبناؤون ومربو الماشية إلى البار. يترجلون من شاحنات بيضاء وعربات دفع رباعي مغطاة بالطين أو الجير أو نشارة الخشب، ويتحركون باهتزازة تعلموها من صباهم، كأنهم يجرون حملًا ثقيلًا مع حمل أجسادهم. يجلسون على منضدة البار ليشتكوا ويسبوا، يلقون بالنكات على النادلات ويقدمون الشراب للجميع. وكان برونو بينهم. كبرت عضلاته، ومن تصرفاته بدا أنه يحب أن يظهرها بأن يرفع كمي قميصه. أصبح يمتلك مجموعة كاملة من القبعات، ومحفظة تبرز من بنطاله الجينز، وهذا هو ما صدمني أكثر من أي شيء؛ فكسب الأموال كان من التطلعات البعيدة بالنسبة إلي. ينفقها دون حتى أن يحصيها، ويدفع دورة شراب ببعض النقود المكرمشة وهو يقلد الآخرين.

إلا أنه عند لحظة ما، هناك من المنضدة، وبالنظرة نفسها الشاردة، التفت نحوي. كان يعرف بالفعل أنه سيتقابل مع عيني. رفع ذقنه في تحية، وبادلتها أنا رافعًا أصابع يدي. أخذنا ننظر أحدنا إلى الآخر لثانية. كان هذا كل ما حدث. لم يلحظه أحد، ولم يحدث مرة ثانية خلال تلك الأمسية، وأنا لم أكن متأكدًا كيف يمكنني تفسير تلك التحية جيدًا.

t.me/ktabpdf

فهي يمكن أن تعني: أتذكرك، وأفتقدك. أو: لقد مر عامان ولكنهما كعمر كامل، أليس كذلك؟ أو ربما: إيه بيريو، ماذا عساك تفعل في وسط تلك الزمرة؟ لم أكن أعرف رأي برونو في الصدام بين أبوينا، أَشَعَرَ بالندم لِمَا حدث؟ أم أصبحَت حاليًّا مجرَّد قصة بعيدة غير حقيقية كما أفكر فيها، إلا أنه لم يبدُ لي سعيدًا. ربما هكذا كنت أبدو أنا أيضًا.

كان أبوه معه في صف الشاربين، كان هو بينهم صاحب أكثر الأصوات العصبية والكأس الفارغة دائمًا. يتوجه بالحديث لبرونو كأنه واحد من رفاقه. لم يكُن يعجبني ذلك الرجل، ولكنني حسدته على هذا فقط، لم يكُن هناك أي شيء واضح بينهما، ولا نبرة صوت أكثر جفافًا أو اهتمامًا، ولا حركة مضايقة، ولا ثقة أو إحراج، وإذا لم يكُن أحد يعرف لن يقول قط إنهما أب وابنه.

لم يكُن كل صبية الوادي يقضون كل صيفهم في البار. بعد ذلك ببضعة أيام أخذني أحدهم لمنطقة بعيدة عن النهر، في غابة من أشجار الصنوبر البرية تخفي بعض الأحجار الضخمة، والغريبة على ذلك المشهد كأنها أحجار نيزكية. لا بد أنها دُفعت حتى هنا بفعل الجليد في ليلة من ليالي الماضي البعيد، ثم غطاها الطين والأوراق والطحالب، ونمت أشجار الصنوبر حولها وفوقها، ولكن بعض تلك الصخور أُخرج مرة أخرى إلى الضوء، ونُظف بمجارف حديدية بل ومُنح أسماء أيضًا. كان الصبية يتحدون أحدهم الآخر للعثور على كل الطرق الممكنة لتسلقها، بلا حبال أو مشابك، كانوا يجربون ويعيدون تجربة السير على ارتفاع متر من الأرض، ثم يسقطون على الحشيش الناعم.

كانت متعة خاصة مشاهدة أقوى اثنين أو ثلاثة منهم، يتمتعون برشاقة لاعبي الجمباز، وأيديهم مصقولة بيضاء من الطباشير، أحضروا تلك اللعبة من المدينة إلى الجبل، ويعلمونها بكل سرور للآخرين، ولذلك طلبت أن أجرب أنا أيضًا. وشعرت على الفور بقدرتي على التسلق، فلقد تسلقت بالفعل صخورًا من كل نوع مع برونو، دون أن أعرف عنها شيئًا، بينما كان أبي يحذرني دائمًا من أن أحترس من المغامرة حين يتطلب التسلق اليدين فقط. ربما أيضًا من أجل هذا قررت أنني لا بد أن أصبح ماهرًا.

وفي الغروب تتسع الصحبة لمن يحضر ليحتفل. البعض أشعل النيران، والبعض الآخر أحضر ما يُدخن وما يُشرب. جلسنا هناك حولها، وبينما زجاجة النبيذ تدور بيننا، أستمع إلى حوارات جديدة تمامًا عليَّ، تسحرني مثلما تسحرني الفتيات الجالسات على الجانب الآخر من النيران. سمعت عن هيبيز كاليفورنيا الذين اخترعوا الطريقة الحرة الحديثة للتسلق، يعسكرون في العراء لصيفيات كاملة أسفل جدران متنزه «يوسميتي»[1]، كانوا يتسلقون نصف عراة، أو عن الفرنسيين الذين كانوا يتدربون على ضفاف بحر «البروفانس»، بشعورهم الطويلة، وكانوا معتادين على الصعود إلى أعلى بخفة وبسرعة، وكيف أنهم عندما يعبرون من البحر إلى القمة الصخرية للجبل الأبيض يحرجون متسلقي الألب القدماء مثل أبي. كان التسلق هو المتعة في البقاء معًا، التحرر والتجريب، ولذلك تلك الصخرة بارتفاع مترين على شاطئ النهر كانت تساوي قمة ارتفاعها

1- متنزَّه يوسيميتي الوطني، يقع في كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية.

t.me/ktabpdf

ثمانيـة آلاف، ولم يكُـن الأمـر يتعلق بطقـس التعب ولا غـزو القمم. كنت أسـتمع إليهم، وفي الوقت نفسه تسـقط الغابة في الظلام. كانت سـيقان الصنوبر المعوجة، ورائحة الراتينج القوية، والصخور المبيضة بضوء النيران تجعل المكان ملجئًا أكثر حميمية من كل تلك الموجودة في «مونتي روزا». وفي وقت متأخر يحاول أحدهم التسـلق بسيجارة بين شفتيه، في ظل غياب التوازن من الكحول، وشخص آخر يبتعد بعيدًا مع الفتاة الجالسة بجواره.

لم أكن أدرك الفروق بيننا في الغابة، ربما لأنها كانت هناك تبدو أقل وضوحًا من أي مكان آخر.

كانـوا جميعهـم صبيـة أغنياء مـن ميلانو وجنـوة وتورينـو. الأقل ثراءً كانوا يعيشـون في فيلّات الوادي العلـوي، مبانٍ بنيت على عجل وبسخط أسفل ساحات التزلج. أما الأكثر ثراءً كانوا يسكنون المنازل الجبليـة القديمة في مناطق خاصة، حيـث كل حجر وكل لوح أردواز نُـزع ورُقـم ثم وضـع من جديد حسـب تصميـم مهنـدس معماري. دخلـت إلى واحد منها مع صديق لنأخذ شراب الأمسـية. كان المنزل يبـدو كأنه مخزن حطب مـن الخارج، أما من الداخـل يتضح أنه منزل جامـع تحف أو مجموعات فنية، كان كمعـرض كتب فنية، ولوحات، وأثاث ومنحوتات. وزجاجات أيضًا، فتح صديقي خزانة، وملأ كل منا حقيبة ظهره.

سألته: ألن يغضب أبوك عندما نسرق نبيذه؟

- أبي!

مكتبة

أجاب هو، كأنه يجد أن الكلمة نفسها سخيفة. وتركنا المخزن المسروق وجرينا إلى الغابة.

أما أبي، ففي تلك الفترة كان يتصرف كالمُهان. بدأ يذهب إلى الجبل بمفرده، يستيقظ في الفجر ويرحل قبل أن نستيقظ، وأحيانًا، وهو بعيد، كنت أتجسس على خرائطه لأرى غزواته الجديدة. بدأ يكتشف جزءًا من الوادي الذي تجنبناه دائمًا، لأننا كنا نرى حتى من الأسفل أنه لا شيء هناك، لا قرى، ولا مياه، ولا نزل، ولا حتى قمم جميلة. مجرَّد منحدرات حادة لمسافة ألفي متر، وعدد لا نهائي من التكتلات الصخرية. أعتقد أنه كان يذهب هناك ليهدئ من إحباطه، أو بحثًا عن مشهد يشبه مزاجه. لم يعد يدعونى قط لأتبعه. وجهة نظره أن عليَّ أنا، الآن، أن أذهب إليه، إذا كانت لدي الشجاعة لأن أقول لا، الآن يجب عليَّ أن أطلب الصفح والإذن.

جاءت ساعة المثلجة، يوما مجدنا في إجازة أغسطس/ آب، ووجدته يُعد الكلّابات، والفؤوس الحادة كالسلاح، وزجاجات المياه المنبعجة بسبب ما تعرضت له من خبطات. كان يبدو لي الناجي الأخير من إحدى الحملات على الألب، أحد أولئك الجنود المتسلقين الذين ذهبوا في الثلاثينيات ليموتوا في مجموعات على الجدران الشمالية لجبال الألب، وهم يهاجمون الجبل بلا خبرة.

قالت أمي ذلك الصباح: لا بد أن تتحدثا، يجب أن تنتبه بأنه يشعر بالألم.

- ألا يجب أن يتحدث إليَّ هو؟

t.me/ktabpdf

- أنت تستطيع ذلك، هو لا.

- أستطيع ماذا؟

- أنت تعرف ماذا أقصد. انتظر فقط أن يذهب لهناك، واطلب منه أن تصحبه.

كنت أعلم هذا بالفعل، ولكنني لم أفعل شيء. ذهبت إلى حجرتي، وبعد ذلك بقليل، نظرت من النافذة ورأيت أبي وهو يبتعد بخطوته الثقيلة، وحقيبته على ظهره مليئة بكثير من قطع الحديد.

لا أحد يذهب إلى المثلجة بمفرده، وكنت أعرف أنه في ذلك المساء سيضطر لبحث مهين. يوجد دائمًا شخص على هذا الحال، لاجئ، يلف من مائدة لأخرى ويسمع الحوارات بعض الوقت، ويقدم نفسه للآخرين، وفي النهاية يقترح أن ينضم إليهم في الصباح، على الرغم من أنه كان يعرف أن لا أحد يحبذ أن يربط غريبًا في حبله. وفي تلك اللحظة بدا لي هذا العقاب المناسب له.

نلت أنا أيضًا عقابي في ذلك الصيف. بعد الكثير من التمرين على الحجارة، ذهبت مع ولدين لأخطو في طريق التسلق الحقيقي.

كان أحدهما صاحب النبيذ، ابن جامع التحف، من جنوة، ومن بين الأقوى من تلك الصحبة، والآخر صديقه، بدأ منذ بضعة أشهر، بلا أي شغف أو موهبة، ربما فقط ليتبعه. كان الجدار قريبًا جدًّا من الطريق، ولم يكُن علينا سوى أن نعبر مرعى لنصل إلى مكان الهجوم، جزء بارز تستخدمه الحيوانات لتحتمي فيه من الأمطار والشمس.

مكتبة

وضعنا أحذيتنا بين الأبقار، ثم سلمني صبي جنوة حزام أمان وسلسلة تسلق مُحكمة، وربطنا نحن الاثنين في طرفي الحبل وظل هو في الوسط، ودون كلمات كثيرة قال للآخر أن يحافظ على نفسه، وانطلق.

كان يتسلق بخفة ورشاقة، مانحًا الشعور بأن لا ثقل لديه وأن حركاته لا تكلفه أي مجهود. لم يكُن في حاجة لأن يتطلع هنا وهناك ليعثر على الدعامات، ولكنه يتقدم بضربات واثقة، من حين إلى آخر يفك مشبكًا من الحزام، ويعلقه في أحد المسامير التي تعلم الطريق، يمرر الحبل من خلال حلقة التسلق، ثم يضع يديه في حقيبة الطباشير، ينفخهما، ويبدأ في التسلق مرة أخرى بسهولة. كان يبدو أنيقًا، وكانت الأناقة والرشاقة والخفة صفات أحرص على تعلمها منه.

لم يكُن لصديقه مثل هذه الصفات. كنت أراه عن قرب، يتسلق، لأنه عندما وصل فتى جنوة إلى مكان الاستراحة وهو يصيح لنا في أسفل أن نتسلق معًا، تاركين بضعة أمتار لتفصلنا. وهكذا الواحد منا يتسلق خلف الآخر، وجدت نفسي وصديقه فوق رأسي مباشرةً، وكان عليَّ التوقف باستمرار لأن رأسي كان أسفل حذاءيه تمامًا، وعند تلك اللحظة كنت أستدير إلى الخلف لأرى العالم من خلف ظهري: الحقول وقد اصفر لونها في نهاية أغسطس/ آب، والنهر اللامع في ضوء الشمس، والسيارات تضاءل حجمها بالفعل على الشارع الرئيسي. لم يفزعني الفراغ. بعيدًا عن الأرض، في الهواء، كنت أشعر دائمًا أنني بخير، وكانت

t.me/ktabpdf

حركات التسلق شيئًا طبيعيًا لجسدي، تتطلب التركيز بالتأكيد، ولكن ليس تركيز العضلات ولا الرئتين.

إلا أن رفيقي كان يستخدم ذراعيه كثيرًا جدًّا، وقدميه أقل. كان معلقًا في الصخرة وهكذا كان يبحث عن مراكز التعلق بالتحسيس، ولم يحجم عن التعلق بموسع عندما يعثر على واحد.

قلت له، مخطئًا، حيث كان عليَّ أن أتركه يفعل ما بدا له: لا يجب عمل هذا.

نظر إليَّ بضيق وقال لي: أنت ماذا تريد؟ هل تريد أنت تسبق، لأنك تضغط من هنا في أسفل؟

ومن لحظتها أصبحت عدوه. عندما وقفنا قال للآخر: بيترو في عجلة، يظن أننا في سباق.

لم أقل: صديقك غشاش ويتعلق بالمسامير. فهمت أن هذا سينهي الموقف بأن يصبح الاثنان ضدي. احتفظت بمسافة بينهما منذ تلك اللحظة، ولكنه هو لم يدع الأمر وشأنه: من حين إلى آخر كان يطلق النكات وأصبحت نزعتي للمنافسة هي مزحة اليوم. في المزحة كنت أنا الذي يجري خلفهما، وأصل أسفلهما ولا بد من ركلي للاحتفاظ بي أسفلهما، وإسقاطي من عند أقدامهما. ويضحك ابن جامع التحف. عندما ظهرت في الوقفة الأخيرة قال لي: أنت تهرع بالفعل، هل تريد أن تجرب التقدم؟

أجبته: حسنٌ. في الواقع كنت أريد أن ينتهي كل شيء مبكرًا وأن يدعاني في سلام. كنت أشعر بالاطمئنان بالفعل، ومعي كل

مكتبة

الموسعات، ولم يكُن علينا أن نقوم بالمناورات المعتادة لنتبادل الأماكن، وهكذا رفعت عيني، ورأيت مسمارًا مثبتًا في أحد الشقوق وذهبت.

من السهل العثور على الطريق إذا كان الحبل معلقًا فوق رأسك، ولكن عندما يكون تحت قدميك فالأمر يختلف تمامًا. كان ما شبكت فيه المشبك الأول، مسمارًا مستديرًا قديمًا، ولم يكُن واحدًا من تلك اللوحات المعدنية التي تلمع في واجهة الصخرة. وقررت أن أتجاهل هذا الأمر وأن أتقدم من خلال الشقوق الصخرية، حيث إنني تقدمت بعض الشيء بالفعل، ولكن الواقع هو أن الشقوق كانت تضيق كلما تسلقت، حتى اختفت تمامًا. وما كان يبرز فوقي الآن هو سقف صخرة أسود ورطب، ولم تكُن لدي أي فكرة كيف أتسلقه.

صحت: أين أذهب؟

صاح فتى جنوة مُجيبًا: لا يمكنني الرؤية من هنا. هل توجد أي مسامير هناك؟

لا، لا توجد أية مسامير. وأمسكت بسرعة بآخر جزء من الشقوق، وانحنيت في البداية تجاه ناحية، ثم إلى الأخرى، لأرى إذا كان هناك أية مسامير. واكتشفت أنني اتبعت أثرًا خاطئًا، فخط اللوحات المعدنية يتجه إلى أسفل، عرضيًا، على بعد بضعة أمتار من يميني، ملتفًا حول ذلك السقف وصولًا إلى القمة.

صحت: لقد أخطأت الطريق.

صاح مجيبًا: آه فعلًا! وكيف الوضع لديك، هل تستطيع العبور؟

t.me/ktabpdf

- لا، فكل شيء أملس.

- إذًا، لا بد أن تعود لأسفل.

لم أكن أرى ولكنني كنت أسمعهما يتسليان هناك في أسفل.

لم يسبق لي قط التسلق إلى الأسفل، والشق الذي استخدمته للصعود يبدو لي مستحيلًا بالنظر إليه من فوق. شعرت بأن عليَّ أن أتعلق بقوة أكثر، وفي الوقت نفسه، أدركت أن ذلك المسمار الحديدي الصدئ على بعد أربعة أو خمسة أمتار. بدأت إحدى قدمي في الارتعاش، كانت رعشة لا إرادية بدأت من ركبتي ثم وصلت إلى كعبي. لم تعد قدماي تطيعانني. حتى يدَي كانتا تتعرقان بقوة، وبدا لي أن الصخرة تزحلقني بعيدًا.

صحت: إنني أسقط، تماسكا.

ثم هبطت إلى الأسفل، سقطة نحو عشرة أمتار، لم يكُن شيئًا شديد الخطورة، ولكن يجب على المرء أن يعرف كيف يسقط، يجب أن يدفع نفسه بعيدًا عن وجه الصخرة وأن يبطن السقطة بقدمه. لكن لم يعلمني أحد كيف أفعل ذلك وسقطت مباشرةً لأسفل، وقطعت نفسي في الصخرة في محاولتي لأمسك بها. وشعرت بضيق على خصري عندما وصلت إلى أسفل، وكان هذا الألم الآخر شيئًا جيدًا، حيث يعني أن أحدهما ثبت الحبل. الآن لم يعودا يضحكان.

بعد ذلك بقليل خرجنا من قمة الجدار وكان الأمر غريبًا، عندئذٍ وجدنا أنفسنا مرة أخرى في المراعي. وبحبل مشدود على بعد خطوة

مكتبة

من الهاوية، كانت الأبقار ترعى، وكان هناك مرعى جبلي نصفه مُدمر، وكلب ينبح. جلسنا على الأرض. كنت مفزوعًا ومتألمًا، مغطى بالدماء تمامًا وكنت أعرف أن الصديقين يشعران بالذنب، لأن أحدهما سألني: هل أنت متأكد أنك بخير؟

- بالتأكيد.

- هل تريد سيجارة؟

- شكرًا.

وقررت أنها الأخيرة التي سنتقاسمها. دخنتها وأنا ممد على المرعى، أنظر إلى السماء. قالا لي شيئًا آخر ولكن عند تلك اللحظة كنت قد توقفت عن الاستماع إليهما.

ومثل كل صيف يتغير الطقس في نهاية الشهر. كانت تمطر وكان الجو باردًا، ويخلق الجبل نفسه فيَّ الرغبة في أن أنزل إلى الوادي بحثًا عن دفء سبتمبر. رحل أبي من جديد، و بدأت أمي بالفعل في إشعال المدفأة: كنت أذهب في فترات سطوع الشمس القصيرة لأجمع الحطب من الغابة، أسقط الأفرع الجافة لأشجار اللاركس فتتكسر بصوت حاد. أشعر أنني بخير هناك في «غرانا»، ولكن هذه المرة كنت أنا مضطربًا من فكرة عودتي إلى المدينة. كنت أشعر أن هناك الكثير لأكتشفه، أشخاصًا أذهب للبحث عنهم، وأن المستقبل القريب يحتفظ لي بتغييرات مهمة، كنت أعيش تلك الأيام الأخيرة، مدركًا أنها، من نواحٍ كثيرة، كانت الأخيرة بالفعل، كأنها ذكرى للجبل الذي كان. وكان يعجبني أن تكون هكذا، أنا وأمي وحدنا من جديد،

t.me/ktabpdf

والنيران التي تشتعل في المطبخ، وبرد الصباح الباكر، والساعات التي أقضيها في القراءة والتجول في الغابة. لم تكُن هناك صخور لأتسلقها في «غرانا»، ولكنني اكتشفت أنني يمكنني التدرب جيدًا على جدران المستودعات. أصعد وأنزل بمنهجية عند الزوايا، متجنبًا الطرق السهلة جدًّا ومحاولًا أن أتعلق في الحواف الرفيعة جدًّا فقط بطرف أصابعي، ثم أعبر من ركن إلى آخر، وأعود. لا بد أنني تسلقت بهذه الطريقة كل المنازل المحطمة في البلدة.

في يوم من أيام الآحاد كانت السماء صافية مرة أخرى. كنا نتناول الإفطار عندما طرق أحدهم الباب. كان برونو، يقف هناك في الشرفة ويبتسم.

قال: إيه بيريو، هل تأتي إلى الجبل؟

حكى لي بلا مقدمات أن ذلك الربيع خطرت لعمه فكرة تربية الماعز. يتركها لترعى بحرية بجوار المرعى الجبلي، فلم يكُن يحتاج إلى أن يفعل أي شيء سوى أن يطمئن عليها من خلال المنظار المقرب ليتأكد من أنها ما زالت هناك، وأنها لم تذهب بعيدًا من حيث يستطيع أن ينظر إليها. المشكلة هي أنه في أثناء لياليها الأولى سقط الثلج، ولا يستطيع عمه الآن العثور عليها. ربما تكون ذهبت لتحتمي بحفرة ما أو شيء من هذا القبيل، أو جرت وراء قطيع من الوعول الألبية. تحدث برونو عن الأمر كأنه مثال آخر على مشروعات عمه الطائشة.

يمتلك دراجة بالموتور الآن، قطعة قديمة بلا لوحة أرقام وعليها قطعنا كل الطريق حتى المرعى الجبلي، نلمس الفروع المتساقطة

مكتبة

للاركس ونتغطى بالطمي في الأوحال. كنت أحب أن أمكث متعلقًا بظهره، ولم أكن أشعر بأي إحراج من ناحيته. ثم بدأنا نسير أسرع في طريق مستقيم، في اتجاه مخالف لمراعي عمه، وعلى هذا العشب الرفيع والمغطى بالحصى كان زبل الماعز في كل مكان. باتباع ذلك، صعدنا نهرًا من الرودندرون وصخور ساقطة حيث كان يجري نهر قارب الجفاف. ثم بدأ الثلج.

حتى تلك اللحظة عرفت فقط فصلًا جبليًا واحدًا: صيفًا قصير الأيام يشبه الربيع في بداية يوليو/ تموز، والخريف في نهاية أغسطس/ آب. لم أكن أعرف أي شيء عن الشتاء. وكنت أنا وبرونو معتادي التحدث عنه كثيرًا في طفولتنا، عندما يقترب موعد عودتي إلى المدينة وأشعر بالحنين وأبدأ بتخيل كيف سيكون الأمر إذا عشت معه هنا العام بأكمله.

وكان هو يقول: ولكنك لا تعرف كيف هو الحال هنا فوق في الشتاء. لا يوجد شيء سوى الثلج.

وكنت أنا أجيبه: أحب أن أرى هذا.

والآن ها هو ذا أمامي. لم يكُن جليد المضائق الجبلية على ارتفاع ثلاثة آلاف متر، ولكن كان ثلجًا طازجًا، ناعمًا يدخل في الأحذية ويغرق الأقدام، وكان شيئًا غريبًا رفعها والعثور في بصمتها على زهور أغسطس/ آب المسحوقة. يصل الثلج حتى الكاحل، ولكنه يكفي ليزيل أي أثر للمعبر، ويغطي العشب، والحفر والحصاوي، وهكذا كانت كل خطوة تخفي فخًا، وأنا لم أكن أعرف كيف أسير فوق الثلج، وكنت أتبع برونو، وأضع قدمي حيث وضعها هو.

t.me/ktabpdf

ومثلما كان الأمر قبلًا، لم أكن أعرف ما الحدس أو الذاكرة التي تقوده. كنت أتبعه فحسب.

وصلنا إلى سلسلة الجبال التي تطل على الناحية الأخرى، وبمجرَّد أن دارت الرياح نقلت إلينا أصوات الأجراس. كان قطيع الماعز مختبئًا في الجزء السفلي، تحت الصخور الأولى. كان الوصول إليها سهلًا للغاية. كانت متجمعة في مجموعات من ثلاث أو أربع، الأمهات منها وأطفالها حولها، بعيدًا عن الثلج. وبإحصائها وجدها برونو بكامل عددها، لا تنقصها واحدة. كانت أقل طاعةً من قطيع الأبقار، توحشت من صيفها على الجبل، وبصعودنا على نفس الأثر كان عليه أن يصيح فيها ليبقيها معًا، ويقذف بكرات من الثلج على تلك التي تشرد بعيدًا، ويسب عمه وأفكاره العبقرية. عدنا حتى الأخدود، ومرة أخرى إلى الأسفل من جديد، وفي الثلج مع تلك القافلة غير المنظمة والصاخبة.

كان تقريبًا منتصف النهار عندما وجدنا العشب مرة أخرى أسفل أقدامنا. وبين لحظة وأخرى عاد الصيف من جديد. تفرق الماعز، الجائع، على المراعي. واستكملنا جريًا، ليس لأننا في عجلة، ولكن لأننا لا نعرف سوى هذه الطريقة في السير بين الجبال، و يزيد النزول دائمًا حماسنا.

عندما وصلنا إلى الدراجة قال برونو: رأيتك وأنت تتسلق. بارع.

- بدأت فقط هذا الصيف.

- وهل يعجبك؟

مكتبة

- جدًّا.

- مثل لعبة المجاري النهرية؟

أخذت أضحك وقلت: لا، ليس إلى هذا الحد.

- أنا بنيت جدارًا في هذا الصيف.

- أين؟

- فوق في الجبل، في إسطبل. كان على وشك السقوط، وكان علينا أن نقيمه كله من جديد. فقط لم يكُن هناك طريق، وكنت أذهب وأعود بالدراجة، واضطررنا إلى أن نعمل كما كنا نفعل في الماضي، جاروفًا ودلوًا وفأسًا.

- وهل أعجبك هذا؟

قال، بعد أن فكر في الأمر بعض الوقت: أجل. العمل يعجبني، ولكن من الصعب إقامة جدار بهذه الطريقة.

شيء آخر لم يكُن يعجبه، ولكنه لم يقل لي ماذا كان، ولم أسأله. لم أسأله كيف الحال مع والده، ولا كم من النقود يربح، ولا إذا كانت لديه خطيبة، أو عن مشروعاته للمستقبل، ولا رأيه في ذلك الذي حدث بيننا. ولا هو سألني. لم يسألني كيف حالي ولا حال أبوي، ولم أجبه: أمي بخير، ولكن أبي غاضب مني باستمرار. تغيرت الأمور بعض الشيء في ذلك الصيف. كنت أعتقد أنني عثرت على أصدقاء، ولكنني كنت مخطئًا. وقبلت فتاتين في ليلة واحدة.

إلا أنني قلت له إنني سأعود إلى «غرانا» سيرًا على الأقدام.

t.me/ktabpdf

- هل أنت متأكد؟

- أجل، سنرحل في الغد، وأريد السير.

حسنٌ. سلام إذًا.

كان ذلك طقسي المعتاد في نهاية الصيف، جولة أخيرة وحيدًا لأحيي الجبل. وهكذا نظرت إلى برونو وهو يشعل الموتور بانفجار وانتشار دخان أسود من الشكمان، ويشغله بعد بضع محاولات. كانت لديه طريقة معينة كسائق دراجة. رفع يده ليحييني وضغط على البنزين. بادلته التحية وإن لم يعد ينظر إليَّ.

عندئذٍ لم يكُن بإمكاني أن أعرف هذا، إلا أننا لن نلتقي لفترة طويلة جدًّا. أكملت عامي السابع عشر في العام التالي، وعدت إلى «غرانا» لبضعة أيام فقط، ثم توقفت عن الذهاب تمامًا. كان المستقبل يبعدني عن جبل الطفولة، أمرًا تعسًا، وجميلًا ولا يمكن تجنبه، وهذا بالتحديد ما أدركته الآن: عندما اختفى برونو ودراجته في الغابة، التفت تجاه المنحنى الذي نزلنا من خلاله، وقبل أن أرحل، مكثت لوهلة أنظر إلى خط آثارنا الطويل على الثلج.

t.me/ktabpdf

مكتبة

الجزء الثاني

منزل المصالحة

t.me/ktabpdf

مكتبة

خمسة

مات أبي وعمره اثنين وستين عامًا، وكان عمري واحدًا وثلاثين. فقط في أثناء الجنازة أدركت أن عمري هو عمره عندما وُلدت أنا. ولكن لا تشبه سنواتي الواحدة والثلاثون كثيرًا سنواته، فأنا لم أتزوج، ولا أعمل في مصنع، ولم أنجب أولادًا، وحياتي تبدو لي حياة نصفها لرجل والنصف الآخر لصبي. أسكن بمفردي في شقة استوديو: رفاهية أتعب كثيرًا لأسمح بها لنفسي. كنت أرغب في أن أكسب من عملي كمخرج أفلام وثائقية، ولكن لأستطيع دفع الإيجار قبلت أعمالًا من كل نوع. أنا أيضًا قمت بهجرة داخلية، نظرًا إلى أنني ورثت من أبوي فكرة أنه في لحظة حاسمة من شباب المرء عليه أن يترك المكان الذي وُلد وتربى فيه ليذهب وينمي نفسه في مكان آخر. كان عمري ثلاثة وعشرين عامًا، انتهيت من الخدمة العسكرية وتركت ميلانو

t.me/ktabpdf

لألحق بفتاتي في تورينو. لم تستمر علاقتي مع الفتاة، ولكن استمرت علاقتي مع المدينة. فبين أنهارها القديمة ومقاهيها العتيقة أسفل الأروقة، شعرت على الفور بالراحة. كنت أقرأ هيمنغواي في تلك الفترة، وأنا أهيم بلا نقود، أحاول أن أكون منفتحًا على اللقاءات، وعروض العمل والفرص، والجبل يصنع خلفية لحركتي الاحتفائية، وإن لم أكن عدت إلى هناك قط، إلا أن مجرَّد رؤيته في الأفق في كل مرة أخرج فيها من المنزل، كانت تبدو لي عطية.

وهكذا فصلتني عن أبي مسافة مائة وعشرون كيلومترًا من الحقول، ومزارع الأرز. وهي ليست مسافة كبيرة ولكن لا بد أن تكون للمرء الرغبة في أن يقطعها. قبلها ببضعة أعوام أصبته بإحباط أخير عظيم عندما تركت دراستي الجامعية، أنا الذي أحصل دائمًا على الدرجات النهائية في الرياضيات، ويتنبأ هو لي دائمًا بمستقبل مشابه لمستقبله. قال لي أبي إنني أضيع حياتي بهذه الطريقة، لم أجبه، لأنني كنت أرى أنه هو من أضاع حياته. لم نتحدث بعدها لمدة عام كامل، ذلك العام الذي كنت أذهب وأعود فيه من ثكنتي العسكرية، وبعد نهاية الخدمة رحلت دون حتى أن أصافحه. من الأفضل له ولي أن أذهب في طريقي، أن أخترع حياة مختلفة عن حياته في مكان آخر، وهكذا بمجرَّد أن تباعدنا لم يفعل أي منا شيئًا ليسد تلك الفجوة.

كان الأمر مع أمي مختلفًا. نظرًا إلى أنني كنت أتحدث قليلًا على الهاتف، جاءت لها فكرة أن تكتب لي الخطابات. واكتشفت أنني كنت أرد عليها. كان يعجبني الجلوس على المكتب في المساء، أمسك

مكتبة

بالورقة والقلم، لأقص عليها ما حدث لي. كان عبر خطاب أن أخبرتها برغبتي في أن أسجل نفسي في مدرسة للسينما. عثرت على أول أصدقاء لي في تورينو هناك. كانت تسحرني الأفلام الوثائقية، وكنت أشعر بأنني موهوب في الملاحظة والإصغاء، وشعرت بالراحة عندما قالت في ردها عليَّ: **أجل، كنت دائمًا بارعًا في هذا.** كنت أعرف أنه سيكون أمامي الكثير من الوقت لأعثر على عمل في هذا المجال، ولكن شجعتني أمي منذ البداية. ولسنوات ترسل النقود وأنا أرسل لها في المقابل كل ما أفعله، صور أشخاص وأماكن، اكتشافات في المدينة، أفلامًا قصيرة لم يشاهدها أحد ولكنني كنت فخورًا بها. تعجبني الحياة التي بدأت في التشكل: قلت لها هذا عندما سألتني إذا كنت أشعر بالسعادة. كنت أتجنب الرد على أسئلة أخرى، تلك المتعلقة بالفتيات اللاتي لم تكُن علاقاتي بهن تتعدى الأشهر القليلة، لأنه بمجرَّد أن تبدأ الأشياء في اتخاذ منحنى جادًّا أنتزع نفسي منهن.

وكنت أكتب إليها: **وأنتِ؟**

أنا بخير، ولكن أباك يعمل أكثر من اللازم وهذا يتعبه كثيرًا. هكذا كانت تجيب أمي. تحكي لي عنه أكثر ما تحكي عن نفسها. كان المصنع في أزمة، وأبي، بعد ثلاثين عامًا من العمل، بدلًا من أن يترك كل هذا وينتظر الوصول لسن التقاعد، ضاعف من جهوده في العمل. يسافر دائمًا بالسيارة، بمفرده، ويقودها لمئات الكيلومترات بين فرع وآخر، ويعود إلى المنزل ويتهاوى على الفراش بمجرَّد تناول العشاء. كان

t.me/ktabpdf

نومه قليلًا، وفي الليل يستيقظ ويعود للعمل، إلى حد أن الأفكار لم تكُن تدعه ينام قط، ولكن ترى أمي أنها لم تكُن فقط أفكارًا خاصة بالمصنع. **كان دائم القلق، إلا أن الأمر تحول الآن لحالة مرضية.** كان يقلق على العمل، ويقلق على الشيخوخة التي تقترب، يقلق على أمي بمجرَّد أن تصاب بدور إنفلونزا، ويقلق أيضًا عليَّ. كان يستيقظ فجأة بفكرة أنني لست بخير. عندئذٍ كان يطلب منها أن تهاتفني، وإن أفزعني هذا في أثناء نومي، وتحاول إقناعه بأن ينتظر بضع ساعات ويبطئ من إيقاعه، وتحاول تهدئته، وأن تعيده للنوم من جديد. هذا لا يعني أن جسده لم يرسل إليه بالفعل ببعض الإشارات، ولكنه لم يكُن يستطيع الحياة بطريقة أخرى، وأنفاسه متسارعة، وكان فرض الهدوء عليه مثل إجباره على الذهاب بإيقاع أبطأ على الجبل، وأن يستمتع بالهواء النقي دون أن يتسابق مع أحد.

من ناحية كان الرجل الذي عرفته، ولكن من ناحية أخرى، كان هناك رجل آخر ذلك الذي اكتشفته في خطابات أمي. وكان الآخر يثير فضولي. عادت إلى ذهني هشاشة ما لمحتها فيه، بعض لحظات الضياع عمل على الفور على إخفائها، عندما كنت أتدلى من فوق صخرة ما ويسارع بالغريزة بإمساك حزام بنطالي، أو عندما كنت أشعر بغثيان على الجليد ويكون هو قلقًا أكثر مني. وخطر ببالي أن ذلك الأب الآخر كان بجانبي دائمًا وبأنني لم أكن أعرفه، نظرًا إلى صعوبة الآخر، وبدأت في التفكير أنه يجب عليَّ في المستقبل، أو يمكنني، أن أحاول الاقتراب منه مرة أخرى.

مكتبة

ثم اختفى ذلك المستقبل فجأة ومعه كل الاحتمالات التي يحويها. في مساء ليلة من ليالي شهر مارس عام 2004 اتصلت بي أمي لتقول لي إنه أصيب بسكتة قلبية على الطريق السريع. عثروا عليه في الحارة الجانبية. لم يتسبب في أي حادث، بل واستطاع أن يفعل كل شيء كما ينبغي، أضاء الإشارات الأربع ورفع الفرامل، وركن سيارته كأن أحد الإطارات ثُقب، أو فرغ البنزين. إلا أنه كان قلبه هو ما توقف منه فجأة. اجتاز قلبه كيلومترات أكثر من اللازم، ولم يكُن يُصان جيدًا، لا بد أن أبي شعر بألم شديد في صدره واستطاع أن يفهم على الفور الكارثة. وفي الحارة الجانبية أوقف الموتور. لم يرفع عن نفسه حتى حزام الأمان. مكث هناك جالسًا، وعثروا عليه هكذا. كأنه قائد اعتزل السباق، أكثر نهاية ساخرة يمكن أن تحدث لشخص مثله، بيديه على مقود القيادة، يسبقه الجميع.

ذلك الربيع عدت لبضعة أسابيع إلى ميلانو عند أمي. بالإضافة إلى الأمور التي كان علينا الاعتناء بها، كنت أشعر بالحاجة إلى أن أمكث معها قليلًا. فبعد الأيام المضطربة للجنازة، وفي هدوء الفترة التي تبعت ذلك، اكتشفنا، وتفاجئت، أن أبي فكر جيدًا في ساعة موته. ترك قائمة تعليمات في درجه، أشار فيها إلى البيانات المصرفية، وكل ما يمكن أن يساعد أمي، ويساعدني لكي نحصل على ممتلكاته. وبما أننا كنا فقط وريثيه، فلم يكُن من حاجة لكتابة وصية. ولكن على الورقة نفسها كتب أنه ترك لها نصف المنزل في ميلانو، بينما ترك لي -أريد أن يحصل بيترو على- «عقار غرانا». لم تكُن هناك أي كلمات أخيرة ولا سطر وداع، كان كل شيء باردًا، عمليًا، وقانونيًا.

t.me/ktabpdf

لم تكُن أمي تعرف أي شيء عن هذا الميراث. يميل المرء لتصديق أن أبويه يتشاركان في كل شيء يخطر على باله، وخصوصًا عندما يتقدم بهما السن، ولكنني اكتشف في تلك الأيام أنهما، بعد رحيلي، عاشا حياتين منفصلتين تمامًا. كان هو يعمل ودائمًا على سفر، وتقاعدت هي وتعمل كممرضة متطوعة في عيادة للأجانب، وتساعد في دورات الإعداد للولادة، وتشارك أيامها مع صديقاتها أكثر من أبي. كانت تعرف فقط أنه ابتاع قطعة من الأرض في الجبل، بنقود قليلة، العام السابق. لم يستأذن منها في إنفاق ذلك المبلغ ولم يدعها لتذهب لترى المكان معه، كانا قد توقفا منذ فترة عن الذهاب للتمشية معًا، ولم تمانع هي، واعتبرت الأمر شيئًا خاصًا.

ومن بين وثائق أبي عثرت على عقد البيع ووثيقة تسجيل الأرض، ولم تفدني الوثيقتان لأعرف أكثر. لقد ورثت مبنى زراعيًّا مساحته أربعة أمتار في سبعة، على قطعة أرض غير مستوية. كانت الخريطة صغيرة جدًّا فلم أستطع من خلالها أن أفهم أين ذلك الموقع، بل وكانت مختلفة أيضًا عن تلك التي اعتدت عليها، فلم تشر إلى الارتفاعات ولا المعابر ولكن العقار فقط. وبالنظر إليها لم أفهم حتى إذا كانت تحيط به الغابات، الحقول أم شيء آخر.

قالت أمي: سيعرف برونو أين هو.

- برونو؟

- كانا يخرجان معًا دائمًا.

- لم أكن أعلم أنكما قابلتماه مرة أخرى.

مكتبة

– مؤكـد تقابلنا مرة أخرى. صعب بعض الشيء ألا يتقابل الناس في «غرانا»، ألا ترى هذا؟

– وماذا يفعل؟ –سألت، وإن كنت في الحقيقة أرغب في أن أسأل: وكيف حاله؟ هل يتذكرني. هل فكر فيَّ كل هذه السـنوات مثلما كنت أفكـر فيـه؟ ولكننـي الآن تعلمت كيف أسـأل الكبار، بحيث تسـأل سؤالًا ما لتعرف منه شيئًا آخر.

أجابت أمي: البنَّاء.

– ألم يرحل من هناك؟

– برونـو؟ وأيـن تريـده أن يذهـب؟ لم يتغـير الكثـير في «غرانا»، سترى.

لا أعرف إذا كان عليَّ أن أثق بذلك لأنه في هذا الوقت تغيرت أنا. يمكـن أيضًا أن يبدو لك مكان أحببته وأنـت صبي مختلفًا تمامًا وأنت ناضـج ويتحـول إلى إحباط، أو ربما يذكرك بـما كنت عليه ويضع على كاهليـك غمًا شـديدًا. لم تكُن لدي الرغبة الشـديدة في اكتشـاف هذا. ولكـن ينتظرني هناك ذلك العقار وتغلب عليَّ فضولي، ذهبت في نهاية شـهر إبريل، بمفردي، بسـيارة أبي. كان المسـاء، وبصعود الوادي من جديد اسـتطعت فقط أن أرى المسـاحة المضيئة من أعمدة الإنارة. إلا أننـي، عـلى الرغم من ذلك، لاحظـت العديد من التغـيرات، المناطق التي منها تطور الطريق واتسـع، والشـبكات الواقية على المنحدرات، وأكوام جذوع الأشـجار المقطوعة. بدأ أحدهم في بناء فيلّات صغيرة طراز نمساوي. وآخر بدأ في استخراج الرمال والحصى من النهر الذي

t.me/ktabpdf

جُهزت شواطئه الآن في ضفاف أسمنتيه، في المناطق التي كان يتدفق فيها قبلًا بين الصخور والأشجار. المنازل الثانية تقبع في الظلام، الفنادق أغلقت لنهاية الموسم أو إلى الأبد، أعطت البلدوزرات الساكنة والحفارات، بأذرعها المحشورة في الأرض للمنظر لمحة تدهور صناعي، مثل أولئك الذين يبنون تلك المجمعات السكنية ثم يتركونها نصف مهجورة لإفلاسهم.

ولكن في اللحظة التي كدت أترك نفسي فيها فريسة لليأس لتلك الاكتشافات، شيء ما استرعى انتباهي، وملت إلى الأمام تجاه الزجاج الأمامي للسيارة لأنظر. في سماء الليل كانت أشكال بيضاء تبعث نوعًا من الإضاءة. استغرقني الأمر وهلة لأفهم أنها لم تكُن سحبًا، كانت الجبال التي ما زال يغطيها الجليد. كان لا بد أن أتوقع هذا في شهر إبريل، ولكن في المدينة تبدل الربيع بالفعل وأنا لم أعد معتادًا على معرفة أنه بالذهاب إلى أعلى نرجع موسمًا إلى الخلف. أخرجني الجليد هناك فوق من بؤس قاع الوادي.

بعدها على الفور أدركت أنني كررت للتو إيماءة تميز بها أبي. كم من المرات رأيته، بينما يقود السيارة، ينحني إلى الأمام ويرفع عينيه نحو السماء؟ ليعرف الطقس أو ليدرس جانب الجبل، أو حتى لمجرَّد إبداء إعجابه بشكلها بينما نمر. يمسك بيديه على الجزء الأعلى من المقود، ويسند عليهما صدغه. وهكذا كررتها مرة أخرى، تلك الإيماءة، ولكن بانتباه هذه المرة، متخيلًا أنني مثل أبي عندما كان عمره أربعين عامًا، وهو يدخل إلى الوادي، زوجة بجواره، وابن

مكتبة

على المقعد الخلفي، بحثًا عن مكان جيد لثلاثتهم. أتخيل ابني النائم، وزوجتي وهي تشير لي بالقرى والمنازل، وأنا أتظاهر بأنني أستمع إليها. ولكن بمجرَّد أن تلتفت، أنحني إلى الأمام لأنظر إلى أعلى، مطيعًا دعوة القمم القوية. كلما بدت عالية ومخيفة، أعجبتني أكثر. والثلج هناك في أعلى يمنح أفضل الوعود. أجل، ربما فوق ذلك الجبل يوجد مكان جيد لسكنانا.

كان الطريق الصغير الذي يصعد إلى غرانا ممهدًا، ولكن بالنسبة إلى الجزء الباقي، كانت أمي على حق، يبدو أن شيئًا لم يتغير على الإطلاق. ما زالت الأطلال هناك، والإسطبلات أيضًا، ومخازن التبن، وأكوام السماد. تركت السيارة في المكان المعتاد ودخلت القرية سيرًا على الأقدام في الظلام، وتركت صوت نافورة مياه الشرب يقودني، وعثرت على طريقي للدرج ولباب المنزل، وكان مفتاحه الحديدي الضخم في قفله. بمجرَّد دخولي استقبلتني رائحة الدخان القديمة والرطوبة. وفي المطبخ فتحت باب المدفأة ووجدت كومة صغيرة من الجمرات مشتعلة، وضعت فوقها الخشب الجاف الموضوع هناك بجانب المدفأة ثم نفخت حتى اشتعلت النيران من جديد.

حتى اختراعات أبي ظلت في مكانها المعتاد. في العادة كان يبتاع زجاجة كبيرة من الجرابّا البيضاء، ثم يضيف إليها، في أوانٍ أصغر، مذاقات مختلفة للتوت، والصنوبر، وبعض الأعشاب التي يجمعها من الجبل. اخترت واحدة وسكبت بعضًا من الجرابّا في كوب لأتدفأ قليلًا. كانت شديدة المرارة، ربما كانت بطعم الجنطيانا، وجلست

t.me/ktabpdf

ممسكًا بها على الأريكة، ولففت سيجارة ثم انتظرت لأن تأتيني الذكريات طافية، وأنا أدخن وأنظر حولي في المطبخ القديم.

من المؤكد أن أمي قامت بعمل عظيم خلال عشرين عامًا، أينما ألتفت أعثر على آثار يديها، تلك التي لامرأة واضحة الأفكار في الطريقة التي تحول بها منزلًا ليكون مسكنًا مريحًا. كانت تعجبها دائمًا الملاعق الخشبية والأواني النحاسية، ولا تعجبها على الإطلاق الستائر التي يمكن أن تعوق رؤيتها لما في الخارج. على إفريز نافذتها المفضلة وضعت حزمة من الزهور الجافة في إبريق، ومذياعها الصغير الذي كانت تستمع إليه طوال اليوم، وصورة فيها أنا وبرونو نجلس ظهر كل منا ملتصقًا بالآخر على جذع شجرة لاركس، ربما في المرعى الجبلي لعمه، ويدا كل منا معقودتان على صدره وننظر بقسوة. لا أتذكر متى ومن أخذها، ولكن كنا نرتدي الملابس نفسها، ونقف أمام آلة التصوير بالطريقة السخيفة نفسها التي يمكن أن يراها أي شخص في صورة شقيقين. فكرت أنا أيضًا في أنها صورة جميلة. انتهيت من السيجارة وألقيت بعقبها في المدفأة. أخذت الكوب الفارغ لأملأه وعندئذٍ رأيت خريطة أبي، في مكانها معلقة بالدبابيس، ولكنها اختلفت كثيرًا عما أتذكره.

اقتربت لأنظر إليها جيدًا، وعلى الفور شعرت بشيء واضح، وهو أن الفارق بما كانته من قبل -خريطة معابر الوادي- أصبحت شيئًا شبيها برواية. أو ربما، من الأفضل أن أقول، بسيرة ذاتية: بعد عشرين عامًا من السير لم تفلت قمة، ولا مرعى جبلي، ولا نزل، من

مكتبة

علامات قلم أبي، وكانت تلك العلامات كثيفة إلى حد أنه لا يمكن لأي شخص آخر قراءة الخريطة. إلا أنه الآن لم يعد اللون الأسود هو اللون الوحيد. في بعض الأحيان كانت تجاوره علامة باللون الأحمر، وأحيان أخرى باللون الأخضر. وأحيانًا أخرى كانت خطوط الأسود والأحمر والأخضر تسير الثلاثة معًا، وإن كان في أحيان كثيرة يسير الأسود بمفرده جولات طويلة جدًّا. لا بد أن هناك شفرة ما، ومكثت هناك في محاولة فكها.

وبدت لي، بعد فترة من تأملها، أحد تلك الألغاز التي كان يطرحها عليَّ أبي في طفولتي. ذهبت لأملأ الكوب وعدت لأكتشف الخريطة. إذا كانت مسألة كودية، مثل تلك التي درستها في الجامعة، فعليَّ أن أبدأ في البحث عن العناصر المتكررة والأخرى النادرة. كانت الخطوط الفردية السوداء هي الأكثر تكرارًا، بينما الخطوط ذات الألوان الثلاثة هي أقلها. ومنحتني الألوان الثلاثة مفتاح الشفرة، لأنني تذكرت جيدًا أن ثلاثتنا -أنا، وأبي وبرونو- عندما علقنا على الجليد معًا.

واللونان الأحمر والأخضر انتهيا تمامًا عند تلك النقطة، بينما الأسود استمر، ومن هذا فهمت أن أبي أكمل باقي تسلق تلك المنطقة بمفرده، في وقت آخر. الأسود أبي إذًا. الأحمر اصطحبه حتى ارتفاع الأربعة آلاف، فهذا يمكن أن أكون أنا. أما الآخر، بعملية استبعاد بسيطة، كان برونو. قالت أمي إنهما كانا يذهبان للسير معًا. رأيت الخطوط السوداء فوق معابر كثيرة، ربما أيضًا أكثر من تلك السوداء والحمراء، وشعرت ببعض الغيرة. كنت سعيدًا بعض الشيء أن أعرف أن طوال

t.me/ktabpdf

كل تلك الأعوام لم يذهب أبي للجبل بمفرده. وخطر ببالي، بطريقة ملتوية، أن تلك الخريطة المعلقة على الجدران بمثابة رسالة لي.

في وقت متأخر ذهبت إلى حجرتي القديمة، ولكن كانت باردة جدًّا لأقضي الليلة فيها. رفعت المرتبة من فوق الفراش وأخذتها إلى المطبخ، ووضعت فوقها كيس النوم، ووضعت الجرابّا والتبغ في متناول يدي، وقبل أن أطفئ النور وضعت ما يكفي من الحطب في المدفأة، وفي الظلام أخذت أستمع إليها تستعر لمدة طويلة دون أن أخلد للنوم.

أتى برونو ليأخذني في الصباح الباكر. كان رجلًا لم أعرفه، ولكن في جزء ما كان هناك فتى أعرفه جيدًا.

قلت: شكرًا على النار.

قال: عفوًا.

قبض على يدي فوق الشرفة وقال إحدى تلك العبارات التقليدية التي اعتدت عليها في الشهرين الأخيرين، والتي لم أعد أسمعها. لم يكُن لها مكان بين الأصدقاء القدامى، ولكن من يدري كيف أصبحنا الآن برونو وأنا. بدا لي أكثر صدقًا الضغط بقوة على يدي من يده اليمنى، الجافة والخشنة والمليئة بالعقد، وبها شيء آخر لم أفهمه. شعر هو بضيقي ورفعها ليريني إياها: كانت يد بنَّاء، ولكن تنقصها العقل الأخيرة من السبابة والإصبع الأوسط.

قال: هل رأيت؟ في إحدى المرات انحمقت بمسدس جدي. كنت أريد أن أطلق النيران على ثعلب، وبوم، قطعت أصابعي.

مكتبة

- هل انفجر في يدك؟

- لا، ولكن كان الزند معطوبًا.

قلت: أي! لا بد أنه كان مؤلمًا جدًّا.

هز برونو كتفيه كأنه يقول هناك أسوأ من هذا في الحياة. ثم نظر إلى ذقني وقال: هذه اللحية ألا تحلقها قط؟

- ربما منذ عشرة أعوام. أجبته وأنا أتحسسها.

- في إحدى المرات حاولت أنا أيضًا أن أطلقها، إلا أنني وقتها كانت لدي صديقة، وأنت تعرف الأمر.

- لم تكُن تعجبها اللحية؟

- أجل. ولكنها تليق بك، تشبه أباك.

وعندما قال هذا ابتسم. نظرًا إلى أننا كنا نحاول أن نكسر الجليد بيننا، حاولت ألا ألتفت إلى معنى تلك العبارة وبادلته الابتسامة. أغلقت الباب وانصرفت معه.

كانت السماء في الوادي الكبير منخفضة تملؤها سحب الربيع. تبدو كأنها توقفت للتو عن المطر، وأنها يمكن أن تعيد الكرة من جديد في أي لحظة. لم يكُن الدخان يستطيع حتى الخروج من المداخن: كان ينزلق إلى الأسفل على الأسقف الرطبة، ثم يتكاثف في مزاريب الصرف. وفي ذلك الضوء البارد، وخروجًا من البلدة وجدت من جديد كل الأكواخ، وكل حظائر الدجاج وكل ورشات الخشب، كأنه منذ أن رحلت لم يلمسها شخص. إلا أن ما انقلب حاله رأيته في ما بعد،

t.me/ktabpdf

بعد عبور المنازل الأخيرة، هناك في أسفل، كانت مساحة مجرى النهر تضاعفت على الأقل مرتين عما أتذكره. بدا كأن جرافة عملاقة قلبت كل شيء حديثًا. كان يجري بين مساحات واسعة مليئة بالحجارة التي كانت تمنحه منظرًا هزيلًا، حتى في فصل ذوبان الجليد.

قال برونو: هل رأيت؟

- ماذا حدث؟

- فيضان سنة ألفين، ألا تتذكره؟ هبطت مياه كثيرة إلى حد أنهم نقلونا من هنا بالمروحيات.

كان هناك حفار يعمل في أسفل. أين كنت أنا في عام ألفين؟ بعيدًا تمامًا جسديًا وروحيًا حتى إنني لم أعرف بفيضان «غرانا». كان المجرى ما زال مكتظًا بجذوع الأشجار والأغصان، وقطع من الجير، وبقايا من كل الأنواع جرفت إلى أسفل من الجبال. وعلى منحنيات الضفاف المتآكلة ظهرت جذور الأشجار التي تنمو باحثةً عن أرض لم يعد لها وجود. شعرت بالأسف الشديد على نهرنا الصغير المسكين.

وفي الأعلى بعض الشيء، قرب الطاحونة، لاحظت شيئًا في المياه رفع من معنوياتي: حجرًا ضخمًا أبيض اللون على شكل عجلة.

سألت: وهل أحضرت المياه أيضًا هذا إلى هنا؟

قال برونو: لا، لا، لقد ألقيت أنا هذا إلى أسفل قبل الفيضان.

- متى؟

مكتبة

- فعلت ذلك احتفالًا بعيد ميلادي الثامن عشر.

- وكيف استطعت ذلك؟

- برافعة سيارة.

ابتسمت. تخيلت برونو وهو يدخل الطاحونة والرافعة في يده، ثم بعد ذلك بقليل حجر الرحى وهو يخرج من الباب ويبدأ في السقوط. كنت أتمنى أن أكون هناك.

سألته: كان جميلًا، أليس كذلك؟

- رائع الجمال.

وابتسم برونو أيضًا. ثم أخذنا نسير تجاه العقار الخاص بي.

صعدنا ببطء أكثر مما كنا نفعل في الماضي، لأنني لم أكن أتمتع بأي لياقة، واليوم السابق شربت أكثر مما يجب. وفي أسفل خلال الوادي الذي اكتسحته المياه، وحيث تحولت المراعي المجاورة للنهر إلى مساحات من الرمال والحصى، كان برونو كثيرًا ما يلتفت للوراء، ويندهش لرؤيتي بعيدًا هكذا، ثم يتوقف لينتظرني. وبين سعلة وأخرى قلت له: اذهب إذا أردت، سألحق بك.

قال هو: لا، لا.

كأنه أعطى لنفسه واجبًا محددًا يجب عليه القيام به على أكمل وجه.

حتى المرعى الألبي لعمه لم يعد في أحسن حال: عندما مررنا من هناك رأيت كيف تحرك سقف أحد المخازن، دافعًا إلى الخارج

t.me/ktabpdf

أحد الجدران التي كانت تستند عليها الدعامات. وبمجرَّد النظر، فهمت أنها تكفيها موسم ثلج واحد ليطرحها أرضًا. وكان حوض الحمام المقلوب ما زال هناك معرضًا للصدأ خارج الإسطبل، نُزعت الأبواب من مفاصلها وتُركت بلا عناية بجوار الجدران. وكنبوءة لويجي غوليلمينا، بدأت أشجار اللاركس الأولى تنمو في كل مكان في المراعي. من يدري كم من الأعوام استغرقها ذلك، ومن يدري ماذا حدث للعم. كنت أرغب في أن أسأل برونو عنه، ولكنه لم يتوقف. هكذا عبرنا المرعى، وتجاوزناه دون أن ننطق بكلمة.

في ما وراء المخازن، تسبب الفيضان في الخسائر الأكبر. في الأعلى، حيث كانت الأبقار تصعد في أوج الموسم، أطاحت الأمطار بجزء كامل من الجبل، فقد جرف الانهيال مع الأشجار والصخور، أكوامًا من المواد المتحركة التي على بعد أربعة أعوام مما حدث تستسلم أسفل الأقدام. استمر برونو في صمته. يتقدم الطريق وهو يغرس بحذاءيه الضخمين في الوحل، قافزًا من فوق صخرة لأخرى، أو محافظًا على اتزانه فوق الجذوع الساقطة، ولم يكُن يلتفت إلى الوراء. وكان عليَّ أن أجري لألحق به. وبمجرَّد أن أصبح الانهيال خلف ظهرينا، وعادت الغابة لتستقبلنا من جديد، عثر هو أيضًا على الكلمات.

قال: كان عدد قليل من الناس يصل إلى هنا من قبل، والآن، نظرًا إلى عدم وجود معبر، أعتقد أنني أنا فقط الذي يسير من هنا.

- وهل تأتي إلى هنا كثيرًا؟

- أجل، في المساء.

مكتبة

- في المساء؟

- عندما يحلو لي التجول بعد العمل. وأحمل معي مصباح رأس، تحسبًا عندما يحل الظلام.

- حسنٌ، بعض الناس يذهبون للحانات.

- ذهبت إلى الحانات. كفى حانات الآن، الغابة أفضل.

ثم طرحت عليه السؤال الممنوع، ذلك الذي لم يكُن في إمكاني قط أن أطرحه على أبي: أما زال أمامنا الكثير؟

- لا، لا. ولكننا بعد قليل سنجد الثلج.

كنت قد لاحظته بالفعل في ظلال الصخور، ثلجًا قديمًا أمطرت السماء عليه وتحول إلى وحل. ولكن عندما رفعت رأسي إلى أعلى رأيته متناثرًا بين الصخور ويملأ بمساحات شاسعة أحواض الـ«غرينون».

كان الشتاء ما زال يسود في الجانب الشمالي بأكمله. وكان الثلج يتبع أشكال الجبل كأنه نيجاتيف بكرة تصوير، حيث سواد الصخور يسخن بفعل الشمس وبياض الثلج يقاوم في المناطق المظللة: كنت أفكر في هذا عندما وصلنا إلى البحيرة التي مثل المرة الأولى تكشفت فجأة لعيني.

قال برونو: هل تتذكر هذا المكان؟

- أجل، بالتأكيد.

t.me/ktabpdf

- ليس الأمر مثلما هو في الصيف، أليس كذلك؟

- لا.

كانت بحيرتنا في شهر إبريل ما زالت مغطاة بطبقة من الجليد، لونها أبيض قاتم، تتخللها عروق زرقاء، مثل تلك التي تتكون على الخزف، لم يكُن هناك أي معنى هندسي مفهوم للتشققات، ولا لخطوط التصدع. هنا وهناك ارتفعت بلاطات من الجليد تدفعها المياه، وكان يمكن بالفعل، في ضوء الشمس، ملاحظة، التحولات الأولى الأكثر قتامة بطول الضفتين التي تشير لبداية الصيف.

ولكن بالتجول بالنظر حول الحوض كان يبدو أننا نرى فصلين من فصول السنة. من جهة ركام السفح وبقاع العرعر والرودوندرون، وشجيرات اللاركس النادرة، ومن الجهة الأخرى الغابة والثلج.

ومن هناك كان انهيار صخري آتيًا من الـ«غرينون» من ذلك الجانب انتهى في البحيرة. واتجه برونو بالتحديد إلى هناك، تاركًا الضفة وبدأ في صعود المنحدر على الثلج، كانت هناك دائمًا طبقة من الجليد تحت أقدامنا ومن حين إلى آخر تسقط فجأة.

وعندما تسقط، كنا نسقط فيها حتى أفخاذنا. وكل خطوة خاطئة تكلفنا محاولة للخروج متعبة، واحتجنا إلى نصف ساعة من هذا السير المتعثر قبل أن يسمح لنا برونو بفترة راحة: عثر على جدار صغير من الحجارة يبرز من الثلج، صعد فوقه ونزع حذاءيه الضخمين وأخذ يضربهما الواحد في الآخر، أما أنا فجلست دون أن أهتم بقدمي

مكتبة

المبللتين. لم أكن أستطيع التحمل أكثر من ذلك. كانت لدي رغبة شديدة في العودة أمام المدفأة وأن آكل وأنام.

قال: وصلنا.

- أين؟

- ماذا تعني بأين؟ إلى منزلك.

عندئذٍ نظرت حولي. على الرغم من أن الثلج يغير المناظر إلا أنه يمكن إدراك أنه هناك حيث نقف، يشكل المنحدر شيئًا كشرفة خشبية. يوجد جدار من الصخر الناعم، مرتفع، وأبيض على غير العادة، هابطًا على هذه الهضبة ليواجه البحيرة. ومن الثلج برزت أيضًا أطلال ثلاثة جدران من الصخر الجاف، كنت أجلس على أحدها، مبني من الصخر الأبيض نفسه. جداران قصيران وواحد أطول في المقدمة، أربعة أمتار في سبعة كما هو مكتوب في خريطة تسجيل الأرض، كان الجدار الرابع هو واجهة الصخرة، التي تتكون منها مادة البناء، ويدعم الجدران الثلاثة الأخرى. لم يكُن هناك أي أثر لسقف تحطم، ولكن بداخل المنزل المحطم، في وسط الثلج، كانت هناك شجرة صنوبر سويسرية تنمو، بعد أن عثرت على طريقها وسط الأطلال، ووصلت إلى ارتفاع الجدران. إذًا ها هو ذا ميراثي، حائط صخري، وثلج، رُكام من الصخور المربعة، وشجرة صنوبر.

t.me/ktabpdf

قال برونو: وصلنا إلى هنا في سبتمبر/ ايلول، وقال أبوك على الفور: هذا هو. كنا قد رأينا كثيرًا من العقارات، وكنت أصحبه في البحث قبلها بفترة، ولكن هذا المنزل أعجبه بمجرَّد أن رآه.

- هل كان هذا في العَام الماضي؟

- لا، لا. منذ ثلاثة أعوام. ثم كان عليَّ العثور على المُلاك وإقناعهم. هنا لا يبيع أحد أي شيء؛ يحبون الاحتفاظ بالأطلال طول العمر، ولا أن يمنحوها لآخر ليفعل بها شيئًا ما.

- وماذا كان يريد هو أن يفعل به؟

- منزلًا على ما أعتقد.

- منزلًا؟

- بالتأكيد.

- كره أبي المنازل طوال عمره.

- إيه! واضح أنه غير رأيه في هذا.

في ذلك الوقت بدأت تُمطر، شعرت بنقطة على ظهر يدي ورأيت أنها كانت مياهًا مخلوطة بثلج. حتى السماء تبدو مترددة بين الشتاء والربيع. كانت السحب تغطي الجبال عن الأنظار وجردت الأشياء من أحجامها، ولكن حتى في صباح كهذا استطعت أن أستقبل جمال ذلك المكان. جمالًا حزينًا ومرًّا، جمالًا لا يبعث السلام بل القوة، وبعضًا من الشجن. جمالًا عكسيًّا.

سألته: هل لهذا المكان اسم؟

مكتبة

- أعتقد هذا. تبعًا لأمي كانوا يطلقون عليه اسم «بارما دروﻻ» barma drola، وهي لا تخطئ مطلقًا في هذه الأشياء، تتذكر الأسماء جيدًا.

- إذًا «بارما» هو الصخرة؟

- بالفعل.

- وما معنى drola؟

- معناه العجيبة.

- هل هي عجيبة لأن لونها أبيض بهذا الشكل؟

- أعتقد هذا.

- الصخرة العجيبة.

قلت لأحاول أن أسمع وقع الاسم.

مكثت بعض الوقت جالسًا أنظر حولي وأفكر في معنى ذلك الميراث. أبي الذي كان يهرب من المنازل طوال حياته، كبرت لديه الرغبة في بناء منزل هنا فوق ولم يستطع تنفيذه، ولكن عندما تخيل موته فكر في أن يترك لي هذا المكان. من يدري ماذا أراد مني.

قال برونو: أنا جاهز للصيف.

- جاهز لماذا؟

- للعمل، أليس كذلك؟

ولأنني لم أفهم، شرح لي: صمَّم أبوك المنزل كما كان يريده، وجعلني أعده بأن أبنيه بنفسي، وكان جالسًا هناك بالتحديد، حيث تجلس أنت الآن، عندما طلب مني هذا.

t.me/ktabpdf

لم تنتهِ الاكتشافات في تلك الأيام. خريطة المعابر، الأحمر والأخضر اللذان يصحبان الأسود، وفكرت أنه ما زال هناك مزيد من القصص التي سيقصها عليَّ برونو. بالنسبة إلى المنزل، إذا كان أبي أعد كل شيء بهذه الطريقة، لم أكن أرى أسبابًا تجعلني أعارض رغباته، إلا واحدًا.

قلت: ولكنني لا أمتلك الأموال لهذا. تلك التي ورثتها استخدمتها بالفعل في سداد حساباتي الكارثية. ما زال هناك بعض منها، ولكنها لن تكون كافية لبناء منزل، ولم تكُن لدي الرغبة في استخدامها لهذا الغرض. فلدي قائمة طويلة من الرغبات المتأخرة التي أرغب في تحقيقها.

أشار برونو بالموافقة. كان متوقعًا معارضتي. قال: يكفي أن نبتاع المواد. وبهذا الشأن أيضًا أعتقد أننا يمكن أن نوفر كثيرًا.

- أجل، ولكن من سيدفع لك أنت؟

- لا تقلق بشأني. ليس هذا نوع الأعمال الذي تنتظر من أجله مقابلًا.

لم يشرح لي ماذا يعني بذلك، وبينما أنا على وشك أن أسأله أضاف: ولكن سيكون من المفيد أن يمد لي أحدهم يد المساعدة. مع شخص آخر يمكنني أن أنتهي من المنزل في غضون ثلاثة أو أربعة أشهر. ما رأيك، هل تستطيع هذا؟

إذا كنا في أسفل في السهل لكنت ضحكت على اقتراحه. كنت سأجيبه بأنني لا أعرف كيف أفعل أي شيء، وأنني لا يمكن أن أكون نافعًا في أي مساعدة بأي شكل. ولكن وأنا أجلس هناك في وسط

مكتبة

الثلج وفي مواجهة البحيرة المتجمدة وعلى ارتفاع ألفي متر، بدأت أشعر بحتمية الأمر: لأسباب لا أعرفها، أراد أبي أن يحضرني إلى هنا، على هذا الفراغ الذي ضربته الانهيارات الجليدية، أسفل تلك الصخرة العجيبة، للعمل على هذا الحطام مع ذلك الرجل. وقلت لنفسي: حسن يا أبي، لتطرح عليَّ تلك الأحجية أيضًا، ولنرَ ماذا أعددت لي. لنرَ ماذا أمامي من جديد لأتعلمه.

سألته: ثلاثة أو أربعة أشهر؟

- بالتأكيد. إنه منزل في غاية البساطة.

- ومتى تريد أن تبدأ؟

أجاب برونو: بمجرَّد أن يذوب الثلج. ثم قفز من فوق الجدار، وبدأ يشرح لي كيف يفكر في أن يفعل ذلك.

t.me/ktabpdf

مكتبة

ستة

اختفى الثلج سريعًا في ذلك العام، وعدت إلى «غرانا» في بداية شهر يونيو/ حزيران، في ملء موسم ذوبان الثلج، بينما الماء يملأ مجاري المياه وينزل إلى كل مكان في الوادي، مشكلًا شلالات وجداول لم أرها قط من قبل. كان يبدو كأنك تشعر بذلك الثلج الذي يذوب على الجبال أسفل قدميك، وحتى على مسافة ألف متر إلى الأسفل كانت المياه تحوّل الأرض إلى سطح ناعم كالطحالب، وقررنا ألا نعير انتباهًا للأمطار التي تتساقط يوميًا. في صباح أحد أيام الاثنين في الفجر أخذنا من منزل برونو جاروفًا وفأسًا، وبلطة ومنشارًا ونصف وعاء من الديزيل، وصعدنا ونحن نحملها على ظهرينا إلى «بارما»، كما أطلقنا على منزلي. على الرغم من أن حمولته كانت أكبر بكثير مما أحمله، كنت أنا من يتوقف كل ربع ساعة لألتقط أنفاسي. أخلع حقيبة

t.me/ktabpdf

ظهري وأجلس على الأرض -كلها أخطاء، علمني أبي يومًا ما ألا أفعلها- وكنا نجلس هناك في صمت، يتجنب كل منا النظر إلى الآخر بينما يبطئ قلبي من ضرباته السريعة.

وهناك، ترك الثلج المكان للوحل وللحشائش الميتة، وهكذا استطعت أن أفهم بشكل أفضل أوضاع الحطام. كانت الجدران تبدو صلبة حتى ارتفاع متر بفضل أحجار الزاوية التي كان سيصعب علينا تحريكها حتى لو حاولنا معًا، ولكن، من بعد ارتفاع متر، كان الحائط الطويل يميل إلى الخارج، دفعته دعامات السقف قبل أن تسقط، والجدران القصيرة كانت كلها غير متزنة، المداميك الأخيرة من الحجارة معلقة بإهمال على ارتفاع رجل. قال برونو إن علينا أن نحطمها تقريبًا حتى أساسها. أي محاولة لإعادة الجدران المائلة لاستقامتها ستكون إضاعة للوقت، من الأفضل هدمها وبناؤها من جديد.

لكن علينا قبل ذلك أن نعد موقع البناء. كانت الساعة العاشرة صباحًا عندما دخلنا إلى الحطام وأخذنا ننظفه من كل بقايا الأنقاض بداخله. كانت أغلبها شرائح خشبية لما كان يومًا ما بلاط السقف، ولكن أيضًا بقايا الألواح الخشبية للأرضية القديمة بين الدور الأرضي والدور الأول، وفي وسط تلك الأخشاب المبلَّلة، كانت توجد عوارض طولها ستة أو سبعة أمتار ما زالت مثبتة في الحوائط أو محشورة في الأرض. بعضها قاوم المياه، وكان برونو يحاول أن يفهم كيف يمكننا إعادة استخدامها. تعبنا كثيرًا لنفرز تلك السليمة ونجرها

مكتبة

للخارج، بتحريكها أفقيًا في ما وراء الجدران على لوحين مائلين، بينما تلك المعطوبة كنا نقسمها ونضعها بعيدة كأخشاب للحرق.

وبسبب أصابعه الناقصة، تعلم برونو أن يستخدم المنشار بيده اليسرى. يثبت الجذع بقدمه ويعمل بطرف النصل، بالقرب من نعل حذائه الضخم، وترتفع سحابة من النشارة خلفه. وفي الهواء تنتشر رائحة الخشب المحروق الطيبة، ثم تسقط القطعة الخشبية وأذهب أنا لأجمعها وأكدسها.

كنت أتعب بسرعة. كنت معتادًا على تعب الذراعين ولكن ليس على تعب القدمين. في منتصف النهار خرجنا من الأطلال وقد غطتنا الأتربة ونشارة الخشب. كانت توجد أربعة جذوع كبيرة لأشجار اللاركس أسفل الحائط الكبير للصخرة، قُطعت بالفعل منذ عام، وتُركت هناك لتجف: في اللحظة المناسبة ستصبح دعائم السقف الجديد، ولكن الآن سأستخدمها لأجلس فوقها.

قلت: أشعر بالفعل بالتعب، ولم نبدأ بعد.

قال برونو: بلى لقد بدأنا بالفعل.

- يلزم على الأقل أسبوع فقط لهدم الجدران، وتنظيف المكان، ونصنع مساحة هنا حولنا.

- ربما، من يدري.

وفي ذلك الوقت بنى فرنًا من الحجارة وأشعل نارًا خفيفة بعيدان من الخشب. ولأنني كنت مغطى بالعرق سعدت كثيرًا بتجفيف

t.me/ktabpdf

نفسي أمام النار. بحثت في جيبي ووجدت التبغ، لففت سيجارة. قدمته له هو أيضًا فقال: لا أعرف كيف أفعل ذلك. إذا لففتها أنت، ربما أجرب.

ثم عندما أشعلتها له أخذ يسعل، وكان من الواضح أنه غير معتاد على التدخين.

سألني: هل تدخن منذ مدة طويلة؟

- بدأت حين كنت هنا في الصيف. ربما كان عمري وقتها ستة أو سبعة عشر عامًا.

- حقًا؟ لم أرك قط تدخن.

- لأنني كنت أدخن في السر. كنت أذهب إلى الغابة حتى لا يراني أحد، أو فوق سقف البيت.

- وممن كان عليك أن تختبئ؟ من والدتك؟

- لا أعرف. كنت أختبئ فحسب.

صنع برونو طرفًا حادًا لعصاتين بسكين جيب. أخذ قطعة من السجق من حقيبته، وقطعها إلى قطع صغيرة ووضعها على النار. كان معه أيضًا خبز، رغيف أسود قطع منه قطعتين كبيرتين وأعطاني إحداهما.

قال: لا يهم إلى كم سنحتاج من الوقت. لا يجب أن تفكر كثيرًا بهذه الطريقة في هذا العمل، إذا فعلت ذلك سيصيبك الجنون.

مكتبة

- إذًا فيمَ يجب أن أفكر؟

- في اليوم. انظر كم هو يوم جميل.

نظرت حولي. كان الأمر يتطلب تفاؤلًا حقيقيًا ليعّرفه المرء بهذه الطريقة. كان أحد أيام نهاية الربيع التي تعصف فيها الرياح في الجبل. تذهب كتل السحب وتجيء وهي تغطي الشمس، والهواء ما زال باردًا كأنه شتاء يمتنع أن يتنحى جانبًا. والبحيرة هناك في الأسفل تشبه حريرًا أسود تموجه الرياح. بل شيئًا على عكس التموجات، تبدو الرياح كأنها يد مجمدة تفرد التموجات. أشعرني المشهد بالرغبة في أن أمد يدي تجاه النار، وأن أبقيها هنا لأختلس من النيران بعضًا من حرارتها.

استأنفنا في فترة ما بعد الظهيرة إخراج الأنقاض وكشفنا ما يوجد أسفل الحطام، كانت توجد ألواح خشبية تشي بوضوح بطبيعة المبنى. عثرنا في جانب، بمحاذاة الجدار الطويل، على معالف إطعام الحيوانات، بينما كان يوجد مجرى صغير في المنتصف للتخلص من الفضلات. كانت ألواحًا بسمك ثلاثة أصابع، صقلها الاحتكاك المستمر لخطوم وحوافر الماشية. قال برونو إننا يمكننا تنظيفها وإعادة استخدامها في شيء آخر، وبدأ ينزعها إلى الخارج بالفأس. لاحظت شيئًا على الأرض ورفعته. كان بوقًا خشبيًّا، ناعمًا ومجوَّفًا، يشبه قرن حيوان.

قال برونو عندما أريته إياه: إنه كان يستخدم مع حجر العزق؟

t.me/ktabpdf

- حجر العزق؟

- حجر لشحذ النصل. ربما توجد كلمة أخرى له، ولكن من يدري ما هي الآن. لا بد أن أسأل أمي. أعتقد أنه حجر نهري.

- من النهر؟

شعرت كأنني طفل لا بد من شرح كل شيء له. وأظهر هو صبرًا لا نهائيًّا أمام كل أسئلتي. أخذ البوق من يدي ووضعه على جانب، ثم شرح: إنه حجر ناعم ومستدير، تقريبًا أسود. لا بد وأن يُبلل ليعمل جيدًا. تضعه على الحزام مع وضع الماء في الداخل، وبينما تجلي، يمكنك من حين إلى آخر أن تبلل الحجر، وتشحذ النصل، هكذا.

وبذراعه قام بحركة واسعة وناعمة، راسمًا هلالًا فوق رأسه. واستطعت أن أرى بوضوح المنجل المُتخيل والحجر المتخيل الذي كان يشحذه، عندئذٍ فقط أدركت أننا كنا نكرر واحدة من ألعابنا المفضلة: لم أعرف لماذا لم يخطر ذلك ببالي من قبل، حيث إننا ذهبنا إلى أطلال كثيرة مشابهة لهذا. ندخل إليها من خلال فتحات جدران توشك على السقوط. نسير على ألواح تتحرك أسفل أقدامنا، ونسرق بعضًا من الأشياء المحطمة ونتظاهر بأنها كنوز، فعلنا ذلك لأعوام.

وهكذا بدأت أن أرى المشروع الذي بدأنا فيه بطريقة مختلفة بعض الشيء. حتى تلك اللحظة كنت أعتقد أنني هنا فقط من أجل أبي، من أجل أن أحقق رغباتي ولأكفر عن ذنوبي، ولكن في تلك اللحظة، وأنا أنظر إلى برونو وهو يشحذ المنجل التخيلي، كان الميراث الذي

مكتبة

حصلت عليه، بالأحرى، بمثابة تعويض، أو فرصة ثانية لمد أواصر صداقتنا التي قُطعت. هل هذا ما أراد أبي أن يهديني إياه؟ ألقى برونو نظرة أخرى على البوق، ثم ألقى به في كومة خشب الحرق. ذهبت وأنتشله من هناك ووضعته جانبًا، وأنا أفكر أنني ربما وجدت له استخدامًا آخر في المستقبل.

فعلت الشيء نفسه مع شجرة الصنوبر الصغيرة التي استطاعت أن تنمو داخل الحطام. وفي الساعة الخامسة، عندما كنت بالفعل متعبًا جدًّا ولا يمكنني فعل أي شيء آخر، أخذت أعمل بالفأس لأحفر حول الشجرة الصغيرة وأخرجتها سليمة بجذورها. كان جذعها رفيعًا وملتويًا نظرًا إلى كل المجهود الذي كانت تبذله لتصل إلى الضوء من بين الحطام. وبجذورها مكشوفة تبدو كأنها تحتضر، أسرعت وزرعتها مرة أخرى في مكان قريب. حفرت حفرة في طرف السهل، من حيث يمكن رؤية البحيرة بطريقة أفضل، ووضعتها هناك، غطيت الجذور بالطمي وضغطت عليها جيدًا. ولكن عندما تركت الشجرة الصغيرة في الرياح، التي لم تكُن معتادة عليها، بدأت تتأرجح هنا وهناك. عندئذٍ بدت لي مخلوقًا ضعيفًا جدًّا، حمته الحجارة فترة طويلة ثم فجأة وجد نفسه في قلب العناصر الطبيعية.

سألت: هل تعتقد أنها ستقاوم؟

قال برونو: لا أعلم! إن ذلك نبات عجيب، قوي لينمو حيثما ينمو، وضعيف بمجرَّد أن تضعه في مكان آخر.

- هل جربت هذا من قبل؟

t.me/ktabpdf

- بعض المرات.

- وكيف انتهى الأمر؟

- بطريقة سيئة.

نظر إلى الأرض، مثلما يفعل عادةً عندما يفكر في قصة قديمة، وقال: أراد عمي أن يزرع شجرة صنوبر أمام المنزل. لا أعرف لماذا، ربما اعتقد أنها تجلب الحظ، وكان يحتاج إليه لا شك في هذا. وفي كل عام، كان يرسلني إلى الجبل لأحضر النبتة الصغيرة، ولكن كانت تموت دهسًا من الأبقار، وبعد فترة أوقفنا المحاولات.

- وماذا تطلقون عليها هنا؟

- شجرة الصنوبر؟ آرولا Arola.

- آه فعلًا. وتجلب الحظ؟

- يقولون هذا. ربما إذا صدقت هذا تجلبه لك.

سواء تجلب الحظ أم لا، شعرت بأنني متمسك بتلك الشجرة الصغيرة. غرست عصا قوية بجانب جذعها، وربطتها عند أكثر من موضع بحبال، ثم ذهبت إلى البحيرة لأملأ آنية بالماء وأسقيها. عندما عدت إلى أعلى رأيت أن برونو بنى بالفعل شيئًا كالمصطبة أسفل الحائط الضخم. وضع في الأرض عارضتين من عوارض السقف، وثبت فيهما بالمسامير بعض الألواح التي استخلصناها من الركام. والآن أخذ من حقيبته حبلًا صغيرًا وقماشًا مقاومًا للأمطار، من تلك التي يستخدمونها في «غرانا» لتغطية التبن في الحقول. وبألواح صغيرة من الخشب ثبت زاويتين من القماش في فتحة من

مكتبة

الصخرة، والآخرين في الأرض، وهكذا صنع مظلة وضع أسفلها حقيبته والمؤن.

سألته: هل ستترك تلك الأشياء هنا؟

- لا، لن نتركها، أنا أيضًا سأمكث هنا.

- ماذا تقصد بأنك ستمكث هنا؟

- أقصد أنني سأنام هنا.

- ستنام؟

وهذه المرة نفد صبره وأجاب مندفعًا: لا أستطيع أن أفقد أربع ساعات من العمل يوميًّا، ألا ترى هذا؟ البنَّاء يمكث في موقع العمل من الاثنين إلى السبت؟ العامل يذهب إلى الأسفل وإلى الأعلى ومعه المستلزمات. هكذا تتم الأمور.

نظرت إلى المخيم الذي بناه. الآن فهمت لماذا كانت حقيبة ظهره مليئة لهذا الحد.

- وهل تريد أن تنام هنا لمدة أربعة أشهر؟

- ثلاثة أشهر، أربعة، حسبما يتطلب الأمر. إننا في الصيف. يوم السبت سأنزل وأنام على فراش.

- ولكن ألا يجب أن أمكث هنا أنا أيضًا؟

- ربما في ما بعد. ما زال هناك كثير من الأدوات التي نحتاج إلى أن نحضرها. وقد استعرت بغلًا.

t.me/ktabpdf

فكر برونو كثيرًا في العمل الذي ينتظرنا. كنت أنا أرتجل، أما هو فلم يكُن يفعل ذلك بالتأكيد. فقد خطط كل مرحلة فيه، ما يجب عليَّ أن أفعله، وما يجب عليه هو، كل المراحل المتنوعة وأيضًا الجدول الزمني لها. شرح لي أين أعد المواد، وماذا يجب أن أحضر معي إليه فوق في اليوم التالي. وستريني أمه كيف أضع الأحمال على البغل.

وقال: سأنتظرك في التاسعة صباحًا. في السادسة ستكون حرًا لأن تذهب. إذا كان ذلك يوافقك، هذا كل ما في الأمر.

- بالتأكيد يناسبني.

- هل تعتقد أنك تستطيع ذلك؟

- بالتأكيد.

- حسنٌ، أراك غدًا.

نظرت إلى الساعة، كانت السادسة والنصف. أخذ برونو منشفة وقطعة صابون وانطلق ناحية الجبل ليغتسل في مكان ما يعرفه. نظرت مرة أخرى إلى الأطلال التي تشبه تمامًا ما عثرنا عليه في الصباح، إلا أنها كانت فارغة من الداخل، وفي الخارج يوجد جبل كبير من الخشب. وفكرت: لا بأس بالنسبة إلى عمل أول يوم. ثم أخذت حقيبتي، وصافحت شجرتي الصغيرة، وسرت تجاه «غرانا».

كانت هناك ساعة أحبها أكثر من الأخريات في شهر يونيو/حزيران هذا، بالتحديد تلك التي فيها أنزل بمفردي في نهاية اليوم. في الصباح كان الأمر مختلفًا، أكون في عجلة من أمري، والبغل لا يطيعني والفكرة الوحيدة المسيطرة عليَّ هي أنني لا بد أن أصل إلى

مكتبة

أعلى. ولكن في المساء، لا يكون لدي أي سبب لأجري. كنت أرحل في السادسة، أو السابعة مساءً، عندما تكون الشمس ما زالت مرتفعة في نهاية الوادي، لدي إضاءة حتى العاشرة ولا أحد ينتظرني في المنزل، أسير متمهلًا، يشوش تعبي على أفكاري، والبغل يسير خلفي دون أن أضطر إلى الاهتمام به. ومن البحيرة حتى الانهيال جوانب الجبل مزدهرة بالرودندرون. وفي المرعى الجبلي لغوليلمينا، حول الأكواخ المهجورة أفاجئ الماعز التي ترعى في المراعي المهجورة، ترفع أذنيها وتنظر إليَّ بحذر، ثم تهرب إلى الغابة مثل اللصوص. وأحيانًا أتوقف هناك لأدخن. وبينما البغل يرعى أجلس على جذع شجرة اللاركس، حيث التقطتْ تلك الصورة لي ولبرونو. أنظر إلى المرعى والتناقض العجيب بين بؤس الأشياء الإنسانية وازدهار الربيع: بدأت الأكواخ الثلاثة تتآكل، والحوائط تنحني كأنها ظهور مسنة، والأسقف تستسلم أسفل ثقل الشتاءات، بينما كل شيء حولها ينبت بالأعشاب والزهور.

كنت أحب أن أعرف ماذا يفعل برونو في تلك الساعة. هل أشعل ناره الصغيرة، أم يسير بمفرده في الغابة، أو سيستمر في العمل حتى حلول الظلام؟ يدهشني من نواحٍ كثيرة الرجل الذي أصبحه. توقعت أن أعثر على نسخة جديدة لأبيه، أو على الأقل الشبيهة بابنَي عمه، أو أحد البنائين الذين رأيتهم في إحدى المرات معه في الحانة. إلا أن لا شيء فيه يشبه هؤلاء الأشخاص. يبدو لي كشخص، عند لحظة ما في حياته، توقف عن صحبة الآخرين، عثر على ركن في العالم وعزل نفسه فيه. ذكرني بأمه، كثيرًا ما أراها في تلك الأيام، عندما أعد حمولة الصباح. ترينى كيف أربط السرج،

t.me/ktabpdf

وكيف أربط الألواح والأدوات جيدًا على جانبي البغل، وكيف أنخسه عندما يرفض الإذعان، ولكنها لم تقل أي شيء عن عودتي، ولا عن العمل الذي أقوم به مع ابنها. منذ صغري كان يبدو لي أن لا شيء يهمها في حياتنا، أنها على ما يرام في مكانها وأن الآخرين يعبرون عليها كأنهم فصول السنة، وكنت أتساءل إذا كانت تخفي مشاعر من نوع مختلف تمامًا.

ثم كنت أسير في الممر المجاور للنهر وأصل إلى «غرانا» عندما يكون الوقت مظلمًا تقريبًا. أربط البغل أسفل المنزل، وأشعل المدفأة، وأضع آنية من الماء على النار. كان يمكنني أحيانًا أن أفتح زجاجة من النبيذ، إذا ابتعتها. في خزانة المطبخ كانت توجد المعكرونة، والمربيات، وبعض معلبات الطوارئ. وبعد أول كأسين أشعر بأنني هالك من التعب. وأحيانًا أضع المعكرونة وأنام وهي تُطهى، وأعثر عليها في الليل، وقد انطفأ الفرن، والزجاجة فارغة إلى نصفها، وعشائي أصبح شيئًا لا يؤكل. عندئذٍ أفتح علبة فول وألتهمها بالملعقة، دون حتى أن أهتم بإخراجها من العلبة، ثم أفرد نفسي على فرشتي أسفل المائدة، وأغلق على نفسي في كيس النوم، وأسقط على الفور في النوم العميق مرة أخرى.

تقريبًا في نهاية شهر يونيو وصلت أمي مع صديقة. كانت صديقاتها يتناوبن على صحبتها خلال الصيف، على الرغم من أنها لم تكُن تمنحني الشعور بأنها أرملة حزينة. ولكنها قالت لي بنفسها إنها سعيدة بوجود أحدهم قريبًا منها، ولاحظت أنا تلك

مكتبة

الثقة الصامتة التي لها مع النساء الأخريات، كن يتحدثن قليلًا في وجودي، ويتفاهمن بنظرة واحدة. كنت أرى كيف يتقاسمن البيت القديم بحميمية بدت لي أثمن من الكلمات. فكرت طويلًا في أعقاب الجناز الهزيل لأبي حول وحدته، ذلك النوع من الصراع الدئم بينه وبين باقي العالم، مات في سيارته بلا أي صديق يشعر بفقده. إلا أنني في أمي كنت أرى ثمار حياة طويلة قضتها في الاهتمام بصداقاتها، في العناية بها كما تعتني بزهور شرفتها. كنت أتساءل إذا كان بإمكاني أن أتعلم هذا، موهبة كتلك، أو أن المرء يولد بها فحسب. وإذا كان ما زال هناك وقت لأتعلمها.

وهكذا الآن، عندما أنزل من الجبل، أعثر على امرأتين تهتمان بي، المائدة معَدَّة والملاءات نظيفة فوق الفراش، لا فول بعد الآن ولا كيس نوم. بعد العشاء نقف أنا وأمي في المطبخ لنتحدث. كان الأمر سهلًا بالنسبة إليَّ معها، وفي إحدى المرات قلت لها كأننا عدنا لسنوات عديدة مضت، ولكنني اكتشفت أن ذكرياتنا مختلفة حول تلك الأمسيات. في ذكرياتها كنت صامتًا دائمًا. تتذكرني غارقًا في عالم خاص بي يستحيل اقتحامه، ومنه أبعث إليها بقصص نادرة. كنت مسرورًا لأننا الآن لدينا الفرصة لنعوض هذا.

في بارما، بدأنا أنا وبرونو نقيم الجدران. كنت أصف لأمي الطريقة التي نعمل بها، متحمسًا حول اكتشافاتي كعامل: كل حائط يُصنع في الواقع من صفين متوازيين من الحجارة، يفصلهما فراغ نملأه بالحصى الأصغر. ومن حين إلى آخر نضع حجرًا كبيرًا عرضيًا ليربط بين

t.me/ktabpdf

الصفين. نستخدم الأسمنت أيضًا، ولكن في أضيق الحدود، ليس فقط لأسباب بيئية، ولكن أيضًا لأنني أحضره إلى الأعلى في أكياس تزن خمسة وعشرين كيلوغرامًا. كنا نخلط تراب الأسمنت برمال البحيرة، ونسكب الخليط بين الحجارة بحيث لا يظهر تقريبًا من الخارج. لأيام عديدة كنت أتحرك بين «بارما» والبحيرة لهذا الغرض: كان يوجد شاطئ صغير، على الضفة المقابلة، وكنت أذهب إليها لأملأ خرجي البغل. تعجبني كثيرًا فكرة أن تلك الرمال هي ما تبني هذا المنزل.

تستمع أمي إليَّ بانتباه، ولكن لم تكُن أعمال البناء هو ما يهمها.

سألتني: ومع برونو كيف الأحوال؟

- شيء غريب. أحيانًا يبدو لي أنني أعرفه منذ الأزل، ولكن عندما أفكر جيدًا أجد أنني تقريبًا لا أعرف أي شيء عنه.

- وما الشيء الغريب؟

- الطريقة التي يتحدث بها معي، فهو مهذب جدًّا معي، بل شيء أكثر من هذا، فهو مُحب، وهذا شيء لا أتذكره. يبدو لي دائمًا أن هناك شيئًا ما لا أفهمه.

وضعت قطعة من الخشب في المدفأة. كنت أرغب في إشعال سيجارة، ولكنني أخجل من أن أدخن أمام أمي، حتى إذا أردت أن أتحرر من هذا السر الأحمق، ولكنني لم أستطع. ذهبت لأصب لنفسي بعضًا من الجرابّا. لم تكُن الجرابّا، ولا أعرف لماذا، تحرجني.

مكتبة

عندما عدت لأجلس قالت أمي: هل تعرف أن برونو كان قريبًا منا جدًّا في تلك الأعوام؟ أحيانًا كان يمكث معنا كل الأمسيات. ساعده أبوك كثيرًا.

- ساعده في أي شيء؟

- ليس بطريقة عملية، كيف يمكنني أن أشرح هذا؟ أجل، أحيانًا أيضًا أقرضه بعضًا من المال، ولكن ليس هذا. في وقت ما تشاجر برونو مع أبيه، لم يعد يرغب في العمل معه، أعتقد أنه لا يراه منذ أعوام. ولهذا كان إذا احتاج إلى نصيحة يأتي إلى هنا. كان يثق كثيرًا بما يقوله أبوك.

- لم أكن أعلم هذا.

- ثم إنه كان يسأل دائمًا عنك، كيف أحوالك وماذا كنت تفعل. وكنت أقص عليه ما تحكيه لي في خطاباتك. لم أتوقف قط عن نقل أخبارك إليه.

قلت من جديد: لم أكن أعلم هذا.

كنت أتعلم ما يحدث للشخص الذي يرحل وعن الكيفية التي يستكمل الآخرون الحياة دونه. كنت أتخيل الأمسيات بينهم عندما كان عمر برونو عشرين أو اثنين وعشرين عامًا، يجلس هنا يتحدث مع أبي مكاني. ربما لم يكُن هذا ليحدث إذا مكثت، أو ربما كنا سنتقاسم تلك اللحظات معًا. أكثر من شعوري بالغيرة، كنت أشعر بالندم بأنني لم أكن معهم. وبدا لي أنني فقدت أكثر الأشياء أهمية، بينما كنت منشغلًا بأشياء تافهة لم أعد حتى أتذكرها.

t.me/ktabpdf

انتهينا من الجدران، وجاءت ساعة بناء السقف. كنا في شهر يوليو/ تموز عندما ذهبت إلى الحداد، هناك في البلدة، لآخذ منه ثماني دعامات من الصلب، طلبها برونو مثنية بشكل ما أراده هو، مع عشرات من مسامير توسيع طولها قدم. كنت أحمل المواد على البغل بالإضافة إلى مُولّد صغير بالموتور، ومزيد من الوقود، وأدواتي القديمة للتسلق. وبمجرَّد أن وصلت بكل شيء صعدت إلى قمة الحائط الصخري، حيث لم أصعد من قبل. كانت هناك أربع أشجار لاركس هناك. ربطت نفسي جيدًا في أكبرها وهبطت نصف المسافة مستخدمًا حبلًا مزدوجًا، مسلحًا بمثقاب كهربائي، ثم قضيت يومي بين التعليمات التي يصرخ برونو بها من أسفل، وأزيز المُولّد، والزمجرة الصاخبة للمثقاب وهو يخترق الصخرة. كنا نحتاج إلى أربعة مسامير لكل دعامة، وهو ما يعني إجمالي اثنين وثلاثين ثقبًا. حسب برونو تلك الأرقام هي أهم ما في العمل كله، لأن الحائط الصخري في الشتاء سيغرقه الثلج بشكل مستمر، وأنه فكر كثيرًا في كيفية بناء سقف يتحمل تلك الصدمات. مرات عديدة رفعت نفسي إلى أعلى بالحبل، غيرت نقطة الارتكاز بعيدًا بعض الشيء، وتزحلقت مرة أخرى لأسفل حيث كان يشير هو إليَّ بالمكان الذي أثقب فيه الصخرة. وفي المساء كانت الدعامات الثماني ثُبتت في مكانها، منتظمة على أبعاد متساوية على ارتفاع أربعة أمتار.

كانت أيامنا الآن تنتهي بتناول الجعة التي كنت أدسها في الخُرج في الصباح مع باقي المؤن. كنا نجلس أمام موقد النار التي سوّدها الرماد والجمر، ولكنني كنت أبيض، أتربة الصخرة تغطيني من كل جهة،

مكتبة

ويداي تؤلمانني بسبب استخدام المثقاب الجبلي. ولكن عندما رفعت نظري، رأيت الدعامات الحديدية تلمع فوق الجدران على ضوء شمس المساء. وشعرت بالفخر لأن برونو قرر أن يعهد إليَّ بهذه المهمة.

قال: المشكلة مع الثلج أننا لا نعرف وزنه أبدًا. توجد بعض الحسابات، ولكن من الأفضل دائمًا مضاعفة كل شيء.

- أي حسابات؟

- حسن، متر مكعب من المياه يزن عشرة قناطير، أليس كذلك؟ والثلج يمكن أن يزن من بين ثلاثة إلى سبعة، حسب الهواء الذي يحتويه. ولكن إذا كان السقف لا بد أن يتحمل مترين من الثلج، لا بد أن نحسب قوة تحمل قدرها أربعة عشر قنطارًا. وأنا أضاعف هذا الرقم.

- ولكن اعذرني، ماذا كانوا يفعلون في الماضي؟

- في الماضي كانوا يدعّمون كل شيء قبل أن يرحلوا في الخريف. كانوا يملأون المنزل بقوائم للتقوية. هل تتذكر تلك الجذوع الضخمة والقصيرة التي عثرنا عليها؟ ولكن يبدو أن حتى تلك الدعائم أيضًا لم تكفِ في شتاء ما، أو من يدري، ربما نسوا أن يضعوها.

نظرت إلى قمة الجدار، حاولت أن أتخيل الثلج الذي يتراكم فوقه، ثم ينفصل ويهبط إلى الأسفل. كانت قفزة هائلة.

قال برونو: كان أبوك يحب أن يناقش هذه الأشياء كثيرًا.

- حقًّا؟

t.me/ktabpdf

- كم يجب أن يكون عرض الدعامة، وعلى أي مسافة يجب أن تبعد الواحدة عن الأخرى، وما أفضل أنواع الخشب المستخدمة. خشب الراتينج لم يكُن يصلح، لأنه خشب طري. اللاركس أكثر متانة. ولم يكُن يكفيه أن أقول أنا له هذا، كان دائمًا يرغب في معرفة سبب كل شيء. واقع أن أحدهم ينمو في الظل والآخر في الشمس، وأن الشمس تقسي الخشب بينما يجعله الظل والمياه طريًا، ولا يصلح كدعامة.

- أجل، أعتقد أن هذا كان يعجبه.

- بل وابتاع أيضًا كتابًا. كنت أقول له، جاني، دع هذا الأمر، لنذهب ونسأل بنَّاء مسنًّا. وأخذته لمن كان رئيسي في العمل. ذهبنا إلى هناك بالمشروع و أحضر أبوك معه دفترًا صغيرًا سجل فيه كل شيء. حتى إذا كان بعد ذلك، في رأيي، ذهب على الرغم من ذلك ليتأكد من كتابه، لأنه لم يكُن يثق كثيرًا بالأشخاص، أليس كذلك؟

قلت: لا أعرف، أعتقد هذا.

منذ وقت الجناز لم أكن قد سمعت اسم أبي. أسعدني أن أسمع برونو وهو ينطقه، وإن كان يبدو لي، في بعض الأحيان، أننا عرفنا شخصين مختلفين.

سألت: هل سنضع الألواح فوقه غدًا؟

- يجب أن نقطعها حسب المقاسات المطلوبة أولًا، وبعد ذلك نشكلها لتناسب الدعامات. ولكي نرفعها سنحتاج إلى البغل، دعنا نرَ كيف ستسير الأمور.

مكتبة

- هل تعتقد أن هذا سيستغرق وقتًا طويلًا؟

- لا أعرف. لنهتم بشيء واحد في المرة، أليس كذلك؟ أولًا البيرة.

- حسنٌ. البيرة أولًا. مكتبة

وفي ذلك الوقت بدأت استعادة لياقتي. فبعد شهر من سير ذلك الطريق كل صباح، بدأت أسترجع مرة أخرى خطوتي القديمة، وبدا لي أن العشب، في الحقول المجاورة للمعبر، أصبح أكثر كثافة كل يوم، ومياه النهر أكثر هدوءًا، وأشجار اللاركس أكثر امتلاءً بالأوراق الخضراء. كان يبدو أن وصول شهر يوليو/ تموز بالنسبة إلى الغابة يشبه نهاية فترة الشباب المضطربة. وهي الفترة نفسها التي كنت أصل فيها أنا إلى هنا في صباي. عاد الجبل ليتخذ المنظر الأكثر ألفة بالنسبة إليّ، منذ ذلك الوقت الذي أعتقد فيه أن الفصول تتغير بالكاد هناك، وأنه يوجد صيف أبدي ينتظر عودتي. في «غرانا» كنت أقابل المزارعين الذين يعدون الإسطبلات، ينقلون الأشياء بالجرارات. خلال بضعة أيام سيأخذون قطعانهم إلى الأعلى، والمناطق المنخفضة للوادي ستعود لتزدحم ثانيةً.

ولكن لم يعد أحد يصعد إلى الأعلى. كانت هناك بقايا مبنيين آخرين بجوار البحيرة، ليسا بعيدين عن الطريق الذي أستخدمه في رحلتي الذهاب والعودة. الأول، محاط بنباتات القراص، في الحالة نفسها التي عليها وجدت عقاري في الربيع. لكن سقط السقف فقط جزئيًا، وعندما ألقيت بنظرة في الداخل، وجدت المنظر الحزين

t.me/ktabpdf

المعتاد، دُمرت الحجرة الوحيدة، كأن المالك، وهو يتركها أراد الانتقام من حياة شديدة البؤس، أو ربما حاول الزوار اللاحقون البحث، بلا جدوى، عن شيء ذي قيمة. بقيت فيها مائدة، ومقعد أعرج، وبعض الأواني المتناثرة بين القمامة، ومدفأة بدا لي ما زالت في حالة جيدة، وكانت لدي النية في أن آتي لأخذها قبل أن يدفنها انهيار آخر بالكامل.

كان حطام المبنى الآخر مجرَّد ذكرى لمبنى أكثر قدمًا وتعقيدًا، المبنى الأول لم يكُن عمره أكثر من مائة عام، أما هذا فعمره على الأقل ثلاثة قرون. لم يكُن مجرَّد إسطبل بسيط مبني ولكن مزرعة ألب كبيرة مكونة من عدة مبانٍ، كانت كأنها قرية صغيرة متكاملة، بسلالم حجرية ودعامات أسقف بأحجام ضخمة وغامضة، لأن أشجارًا بهذا الحجم كانت تنمو فقط على بعد مئات الأمتار في أسفل، ولم أستطع أن أتخيل كيف أحضروها إلى هنا فوق. داخل المنزل لم يكُن هناك أي شيء إلا الجدران القائمة التي غسلتها الأمطار. مقارنةً بالأكواخ التي أعتدت عليها، تبدو تلك الأطلال كأنها تحكي عن حضارة أكثر نبلًا، استُهلكت في فترة انهيار، وفي النهاية تلاشت.

في أثناء الصعود أحب أن أتوقف لدقيقة عند شاطئ البحيرة. أنحني وأربت على الماء وأستشعر حرارته بيدي. لا تصل الشمس، التي تنير قمم «الغرينون»، بعد إلى الحوض، والبحيرة ما زالت تحتفظ بخصائص الليل، فالسماء ليست مظلمة تمامًا ولم تتفتح بعد. لم أعد أتذكر جيدًا لماذا ابتعدت عن الجبل، ولا ماذا أحببت عندما توقفت عن حبه، ولكن كان يبدو لي في صعودي بمفردي كل صباح أننا نتصالح ببطء.

مكتبة

كانت البرما في أيام يوليو/ تموز تلك تشبه ورشة النجارة. قمت بعدة نقلات لألواح، والآن أصبح السهل مكتظًا بالخشب المكدس، جذوع أشجار طولها مترين ما زالت بيضاء ورائحتها راتينج. العوارض الثماني معلَّقة بين حائط الصخرة والجدار الطويل، مثبتة بالدعامات الحديدية، بميل ثلاثين درجة، ومثبتة من الوسط بجذع طويل من اللاركس. بدأت تقريبًا أتخيل المنزل، الآن بعد وضع هيكل السقف، سيطل الباب على الجانب الغربي وستكون له نافذتان في الشمال، تطلان على البحيرة. أراد برونو بناءها مقوسة، وكان يقضي أيامًا كاملة في نحت الحجارة بالمطرقة والإزميل. ومن الطابقين السفليين للمبنى القديم -الإسطبل السفلي والصالة العليا- احتفظنا بواحد فقط، أكثر ارتفاعًا واتساعًا. أحيانًا كنت أحاول أن أتخيل أيضًا طريقة دخول الضوء، ولكن كان أمر بعيدًا جدًّا عن قدرتي على التخيل.

عند وصولي أوقد من جديد نار المدفأة، وأضع فيها بعض الأغصان الجافة، أملأ الآنية بالماء وأضعها فوق النار. أخرج من حقيبتي الخبز الطازج والطماطم، تلك التي تزرعها أم برونو بمعجزة على ارتفاع ألف وثلاثمائة متر. في أثناء بحثي عن القهوة أضع رأسي بداخل الخيمة وأعثر على كيس النوم المعكوش، وبقايا شمعة ساحت على اللوح الخشبي، وكتاب نصف مفتوح. عندما ألقيت نظرة على الغلاف ابتسمت وأنا أرى اسم المؤلف: كونار. من كل أيام التدريس المدرسي التي أعطتها أمي لبرونو، احتفظ بشغفه بروايات تتحدث عن البحر.

t.me/ktabpdf

كان يخرج من المنزل بمجرَّد أن تصله رائحة النار. كان هناك يقيس ويقطع الألواح للسقف. يبدو بريًّا كلما تقدمت بنا الأسابيع، وإذا فقدت إحساسي بالزمن، أستطيع أن أعرف في أي يوم من الأسبوع نحن من طول لحيته. في التاسعة أجده مستغرقًا بعمق في العمل، تبتلعه الأفكار التي لا يخرج منها إلا بصعوبة.

يقول: آه، أنت هنا.

يرفع يده ويصافحني بتحيته المبتورة، ثم يأتي ليتناول الإفطار معي. كان يقطع جزءًا من الخبز وقطعة من جبن التوما بالسكين. يأكل الطماطم بقضمها، كما هي، دون أن يضع عليها الملح ولا أي شيء آخر، وهو ينظر إلى المبنى ويفكر في العمل الذي ينتظره.

مكتبة

سبعة

كان فصل العودة والمصالحة، كلمتان كنت أفكر فيهما كثيرًا بينما يمر الصيف. في إحدى الأمسيات قصت عليَّ أمي قصة تخصها هي وأبي والجبل، والطريقة التي تعرفا بها، وانتهت بزواجهما. شيء غريب أن أعرفها في وقت متأخر هكذا، على الرغم من أنها قصة ميلاد عائلتنا، وبالتالي فهي قصة ميلادي أنا أيضًا. ولكن في طفولتي كنت أصغر من أن أفهم هذا النوع من القصص، وبعد ذلك لم أرغب أنا في أن أسمع، كنت أصم أذني في سن العشرين حتى لا أسمع ذكريات العائلة، وأيضًا في تلك الأمسية كان رد فعلي الأول هو الإحجام. إلا أن جزءًا مني كان شغوفًا بالأشياء التي لم أكن أعرفها. بينما أستمع إليها، كنت أنظر من النافذة إلى الجزء المواجه للوادي الكبير في ظلال الساعة التاسعة مساءً. تتكاثف الصنوبريات على ذلك الجانب، غابة

t.me/ktabpdf

بلا أي فراغ، تنزل بحسم حتى النهر. لم يكُن يقطعها سوى وادٍ طويل في مسار أكثر إضاءة، وكان هذا ما يشد نظري.

ثم، في أثناء قصة أمي، بدأ يولد فيَّ شعور مختلف. فكرت: ولكن أنا أعرف هذه القصة. وكانت حقيقة، كنت أعرفها بطريقتي. لأعوام جمعت الجزيئات، كشخص يمتلك الصفحات المنزوعة من كتاب ما، وقرأها آلاف المرات بترتيب عشوائي. رأيت صورًا، وسمعت حوارات. رأيت والديّ وطريقتهما في التصرف. أعلم أي الموضوعات تجبرهما على السكوت المفاجئ والأخرى التي يتشاجران بسببها، وأي أسماء من الماضي يمكنها أن تحزنهما أو تؤثر في مشاعرهما. لدي كل جزء من أجزاء القصة، ولكن لم استطع أن أعيد تركيب الحكاية بالكامل.

بعد فترة من نظري إلى الخارج رأيت الأيائل تنتظر هناك على الناحية الأخرى. لا بد أن هناك عرق ماء في مكان ما في الوادي، كل مساء، قبل أن يحل الظلام، تخرج من الغابة لتروي ظمأها. لم تكُن المياه تُرى من تلك المسافة، تدلني الأيائل على مكانها. تروح وتجيء في أثرها، أراقبها أنا حتى ساد الظلام الدامس فلم أعد أميز أي شيء.

كانت القصة هي التالية: في الخمسينيات كان أبي هو أعز أصدقاء شقيق أمي، خالي بييرو. كانا هما الاثنان من مواليد عام 1942، وأصغر منها بخمسة أعوام. تعارفا وهما صبية في أحد المعسكرات، حيث يأخذهما قس البلدة. وفي الصيف يقضيان شهرًا كاملًا على جبال الدولميتي. ينامان في خيمة، ويلعبان في الغابات، ويتعلمان

مكتبة

صعود الجبل، والاعتماد على نفسيهما، وكانت تلك الحياة هي التي جعلتهما صديقين مقربين.

تستطيع أن تفهم هذا، أليس كذلك؟ سألتني أمي. أجل، لم أتعب على الإطلاق في تخيلهما.

كان بيرو متفوقًا جدًّا في المدرسة، في حين كان أبي قويًّا بقدميه وشخصيته. ليس بالتحديد، حيث إنه في بعض الأشياء كان الأكثر هشاشة بينهما، ولكنه كان من يُعدِي الآخرين بحماسه، وكان أكثرهم خيالًا وقلقًا. كان يجلب السعادة في وجوده، ولهذا السبب، وأيضًا لأنه كان يعيش في المدرسة الداخلية، أصبح واحدًا من الأسرة. بدا لأمي صبيًا ذا طاقة زائدة عن الحد، يحتاج إلى أن يجري ويتعب أكثر من الآخرين. كونه يتيمًا لم يكُن أمرًا يؤثر في أحد في تلك الفترة. لأنه كان أمرًا معتادًا في أعقاب الحرب، ومعتادًا أن تعول أسرة ابن أحد آخر، ربما قريب مات أو هاجر لا أحد يعرف أين. وفي المزرعة يوجد كثير من الأماكن وعمل أيضًا.

لم يكُن ذلك لأن أبي يحتاج إلى مكان بالفعل. لم يكُن يحتاج إلى سقف فوق رأسه، ولكنه كان يحتاج إلى أسرة، وهكذا وهو في سن السابعة أو الثامنة عشرة، كان دائمًا هناك، يومي السبت والأحد، وكل يوم من أيام الصيف من أجل الحصاد، وصناعة النبيذ وقطع العشب وقطع الأخشاب في الغابة. كان يحب الدراسة، ولكن أيضًا يحب الحياة في الهواء الطلق. حكت لي أمي عن المرة التي تراهنا فيها هو وبيرو على أن يدعسا، كنوع من التحدي، خمسة عشرة قنطارًا

t.me/ktabpdf

مـن العنب بأقدامهما، وعن اكتشـافهما للنبيذ في شـبابيهما، وعن اليوم الذي عثروا فيه عليهما في مخزن النبيذ في حالة سـكر شـديدة. وكانت توجد حكايات مماثلة لا نهاية لها، قالت. كانت تريد أن توضح لي شيئًا واحـدًا، أن هـذه العلاقة لم تولـد بالمصادفة، كانت هنـاك إرادة محددة خلفهـا. فالقـس، ذلـك الـذي كان يأخذهمـا إلى الجبـل، كان صديقًا لجدي، يأخـذ معه الأولاد والبنات إلى المخيم لسـنوات، ويراقب أبي عن قرب وكيفية ارتباطه بالآخرين. ووافق الجد بدوره على اسـتقبال هذا اليتيم في بيته، وكانت هذه طريقة أيضًا لضمان مستقبله.

كان بييرو يشـبهني، قالت أمي. كان كتومًا ومُفكرًا. ذو حساسـية تمكنـه مـن فهـم الآخرين، وهـو الأمر الذي يجعلـه أحيانًـا ضعيفًا في وجود شـخصية أمامه أقوى من شـخصيته. عندما أتـى وقت اختيار الجامعـة، كان واثقًـا في ما يرغب في دراسـته، وأراد أكثر من أي شيء أن يصبـح طبيبًا. وكان سـيكون طبيبًا جيدًا، أضافـت أمي. كان لديه كل مـا يحتاج إليـه لذلك، موهبة الإصغـاء والتعاطف. أمـا أبي، كان منجذبًـا للمادة أكثر من الآدميـين، منجذبًا للأرض، وللنار، وللهواء، وللمياه، تعجبه فكرة غرس يديه في مواد العالم واكتشـاف كيف هي. أجـل، فكرت، كان هو كذلك تمامًا. وكنت أتذكره أيضًا هكذا، تبهره كل ذرة تراب أو كريسـتال الجليد، ولا يبالي كثيرًا بالبشر. أستطيع أن أتخيل الشغف الذي انطلق به في سن التاسعة عشرة لدراسة الكيمياء.

وفي ذلـك الوقـت بدآ الذهـاب إلى الجبل بمفردهمـا. ومن يونيو/ حزيران إلى سبتمبر/ ايلول، في كل يوم سبت تقريبًا، يرحلان بالحافلة

مكتبة

لترينتو أو بيللونو، ثم يصعدان الأودية عن طريق الأتوستوب. يقضيان الليلة في المراعي، أو أحيانًا أخرى في جرون التبن. عادةً لم تكُن معهما النقود لابتياع أي شيء. ولكن لم يكُن أحد معه نقود، قالت أمي، بين من كانوا يذهبون إلى الجبل في تلك الفترة. جبال الألب كانت مغامرة الفقراء، القطب الشمالي أو المحيط الهادئ للفتية مثلهم. من بين الاثنين كان أبي هو ذلك الذي يدرس الخرائط ويخطط للمشروعات الجديدة. كان بييرو الأكثر حذرًا، ولكن أيضًا الأكثر عنادًا. يحتاج إلى وقت لإقناعه، ولكن من الصعب جدًّا أن ينسحب في منتصف الطريق، ولهذا كان الرفيق المثالي لشخص مثل أبي، الذي يميل للإحباط إذا لم تسر الأمور كما خطط لها.

ثم حدث انحراف في طريقهما. كانت دراسة الكيمياء مدتها أقل من الطب، وهكذا تخرج أبي أولًا في عام 1967 وبدأ خدمته العسكرية. انتهى أمره في «سلاح الألب» لسحب المدافع والملاط عن طريق المعابر الجبلية للبغال للحرب الكبرى. كانت شهادته تمنحه درجة ضابط الصف، أو **عريف البغال**، كما كان يقول هو، ولم يعش كثيرًا في الثكنة ذلك العام، بل قضاه كله وهو ينتقل من وادٍ إلى آخر مع فرقته. اكتشف أن تلك الحياة تعجبه. وعندما كان يعود يبدو أكبر سنًا، سواء عن الصبي الذي رحل أو أكبر سنًا من بييرو الذي يقضي أيامه بين الكتب. كمن ذاق أولًا مذاقًا أكثر قسوة وواقعية، واستعذب ذلك المذاق. وجرب، بالإضافة إلى الانغماس في شرب الجرابّا، المسيرات الطويلة والتخييم في الثلج. يتحدث لبييرو عن الثلج في أثناء الإجازة، عن أشكاله المختلفة، وعن طبيعته المتغيرة

t.me/ktabpdf

ولغته. وفي إحدى اندفاعاته ككيميائي، التي كانت لديه في تلك الفترة، عشق أيضًا عنصرًا جديدًا، وكان يقول إن الشتاء على الجبل كان عالمًا مختلفًا تمامًا، وإنهما يجب أن يذهبا إلى هناك معًا.

وهكذا في إجازة أعياد الميلاد لعام 1968، وبعد أن سُرح من الجيش بقليل، احتفلا هو وبييرو بموسم الشتاء الأول لهما. استعارا من أحدهم أدوات التزحلق وجلود الفقمة، وبدآ بزيارة الأماكن التي يعرفانها جيدًا، إلا أنهما لم يكُن بإمكانهما النوم أسفل النجوم، وكان عليهما الدفع ليناما في النُّزُل الجبلية. كان أبي في كامل لياقته البدنية، بينما لم يكُن خالي كذلك لأنه قضى شهوره الأخيرة في إعداد بحث التخرج، ولكنه كان بدوره متحمسًا للاكتشافات الجديدة. كانت لديهما بالكاد النقود ليأكلا ويناما، ولم يكُن بإمكانهما بالتأكيد أن يسمحا لنفسيهما بمرشد الألب، ولهذا كانت تقنيتهما هي ما لديهما. ولكن في نهاية الأمر، في رأي أبي، يتعلق الصعود قبل كل شيء بقوة القدمين، أما النزول فيحدث بأي طريقة. رويدًا رويدًا، طوّرا في ما بينهما أسلوبًا ما. إلى حدّ أنهما خطّطا للذهاب في شهر مارس إلى منطقة متفرعة في «ساسولونجو»، وكانا على وشك أن يعبرا المنحدر أسفل شمس الظهيرة.

استطعت أن أرى المشهد الذي كانت أمي تصفه، ربما من كثرة المرات التي سمعتها تحكيه. كان أبي متقدمًا بعض الشيء، نزع أحد حذاءَي التزحلق لينظم الهجوم عندما سمع الأرض وهي تستسلم أسفل قدميه. سمع صوت حفيف، شبيهًا بذلك الذي للموجة وهي

مكتبة

تنسحب فوق الرمال، كأن كل المنحدر الذي عبراه للتو يتراجع إلى الأسفل. وبطريقة بطيئة إلى أبعد حد، في البداية، تزحلق أبي لأسفل نحو متر، واستطاع أن ينتقل إلى جانب ويُمسك بصخرة، ورأى حذاء التزحلق الذي خلعه يستكمل وحده النزول. هكذا رأى بيرو، الذي كان يقف على منطقة من المنحدر ملساء أكثر وحادة، رآه وهو يفقد التوازن ويتزحلق على بطنه ناظرًا إلى أعلى، ويديه تبحثان عن شيء، لا وجود له، تتشبثان به. ثم اتخذ تراكم الثلج سرعة وكثافة. لم يكُن الثلج الجاف للشتاء الذي يتسارع في سحب ترابية، ولكن كان الثلج الرطب للربيع ينزل متدحرجًا. يتدحرج ويلتف حول نفسه عندما يتقابل مع عائق، وغطى بيرو دون أن يسحقه ولا أن يصدمه، فقط التف حوله واستكمل نزوله. وعلى بعد مائتي متر في الأسفل كان المنحدر يتحول إلى سهل، وهناك توقف الانهيال الثلجي.

قبل أن يتوقف تمامًا نزل أبي جريًا، ولكنه لم يستطع تمييز صديقه. تجمد الثلج الآن. وتحول إلى ثلج ثقيل ومضغوط بفعل السقطة. أخذ يدور حول الانهيال الثلجي صارخًا باحثًا في كل مكان ليرى إذا كان شيء ما يتحرك، ولكن عاد الثلج للسكون من جديد، على الرغم من أنه لم تمر عليه دقيقة من الانفصال. حكي أبي ما حدث في الشهور التالية هكذا: وكان مثل وحش ضخم أُزعج في أثناء نومه، زمجر فقط، ثم هز عن كاهله ما أغضبه، وعاد ليقبع من جديد حيث كان مستريحًا، وعاد بالفعل ليغط في نومه. بالنسبة إلى الجبل، لم يحدث أي شيء.

t.me/ktabpdf

كان الأمل الوحيد، ذلك الذي يحدث مرات نادرة، هو أن يكون بييرو هناك أسفل الثلج استطاع تكوين كرة هوائية حوله، وما زال يتنفس. ولكن لم يكُن لدى أبي جاروف، واتخذ أكثر قرار حكيم، بدأ ينزل إلى حيث يوجد الملجأ الجبلي الذي قضيا فيه ليلتهما السابقة، إلا أنه بعد ذلك بقليل أثناء نزوله الأسفل وجد نفسه يغوص في الثلج الهش. عندئذٍ عاد مرة أخرى إلى أعلى، وضع حذاء التزحلق الذي بقي، ونجح بطريقة ما في النزول به، وهو يتزحلق على فترات قصيرة ويسقط باستمرار، ولكنه كان أفضل من أن يغوص في كل خطوة. وفي منتصف الظهيرة وصل إلى النزل وطلب النجدة. وصلوا تقريبًا عند حلول الظلام، وعثروا على خالي في صباح اليوم التالي، وقد مات أسفل متر من الانهيال، مختنقًا من الثلج.

بالنسبة إلى الجميع كان واضحًا على الفور أن الخطأ خطأه. من يمكنه أن يكون المخطئ إن لم يكُن هو. شيئان يثبتان أنه هو وبييرو تعاملا مع الشتاء باستهتار: أنهما استعدا بطريقة سيئة، وأنهما صعدا هناك إلى أعلى الجبل في الساعة الخطأ. نزل الثلج منذ قليل، وكان الجو حارًّا جدًّا ليعبرا ذلك الجرف، وأبي هو الأكثر خبرة بين الاثنين، وبالتالي كان عليه هو أن يعرف، وأن يتجنب ذلك الطريق وينسحب قبل ذلك. وجدها جدي أخطاء لا يمكن التسامح معها، ومع مرور الوقت، وبدلًا من أن يتجاوز هذا، بدأ الغضب الذي يشعر به يتجذر بداخله. لم يصل إلى حد إغلاق باب منزله في وجهه، ولكن لم تعد لديه أي رغبة في رؤيته، وكانت تعبيرات وجهه تتغير بمجرَّد رؤيته. ثم بدأ أيضًا يغير الغرفة، حتى إنه، بعد ذلك بعام، وفي أثناء قداس الذكرى

مكتبة

السنوية لابنه، جلس في الجانب الآخر من الكنيسة. واستسلم أبي عندئذٍ وتوقف عن إزعاجه.

وعند هذه اللحظة بالتحديد من القصة، تدخل أمي في المشهد. على الرغم من أنها كانت دائمًا تقف في وضع المتفرجة، فإنها تعرف أبي منذ زمن، كانت في البداية تعده فقط مجرَّد صديق لأخيها، ثم عندما كبرا في السن أصبح صديقًا لها هي أيضًا. كانا يغنيان، ويشربان، ويسيران ويصنعان النبيذ معًا في مرات عديدة جنبًا إلى جنب، وبعد هذا الحادث بدآ يتقابلان ليتحدثا، كان أبي في أزمة شديدة في تلك الفترة، ولم يكُن هذا يبدو عدلًا في نظر أمي. لم يكُن يبدو لها من العدل لومه على كل شيء وتركه وحيدًا. انتهى الأمر بأن ارتبطا، تقريبًا قبل الزواج بعام. رفضت كل العائلة دعوة الزفاف، وهكذا تزوجا، في الجبل، بلا عائلة، وهما مستعدان بالفعل للرحيل إلى ميلانو، ثم بدأت حياتهما هناك من جديد، بيت جديد، أعمال جديدة، أصدقاء جدد وجبال جديدة. ثم أتيت أنا أيضًا في حياتهما الجديدة تلك، بل، قالت أمي، كنت أكثر شيء جديد بالنسبة إليهما، والذي منح لهما سببًا لوجود كل شيء آخر. أنا من يحمل ذلك الاسم القديم، اسم العائلة.

كان هذا كل شيء. عندما انتهت أمي من حكايتها، خطرت في بالي الكتل الجليدية، والطريقة التي كان أبي يحدثني عنها. لم يكُن من الذين يعودون في خطواتهم، ولم يحب اجترار الأيام الحزينة، ولكنه أحيانًا في الجبل، حتى في تلك الجبال العذارى التي لم يمت فيها أي صديق، كان ينظر إلى الكتل الجليدية ويبرز شيء ما من ذاكرته إلى السطح.

t.me/ktabpdf

وكان يقـول: إن الصيـف يمحو الذكريات مثلـما يذيب الثلج، ولكن الكتل الجليدية هي ثلج الشـتاءات المنصرمة، إنها ذكرى شـتاء يعصى على النسيان. الآن فقط فهمت عمَّ كان يتحدث، وتأكدت أخيرًا أنني كان لـدي بالفعـل أبـوان: الأول ذلـك الغريب الذي عشـت معه في المدينة لمدة عشرين عامًا، قطعت معه كل الجسـور في العشرة الأخيرة، والثـاني هو أب الجبل، ذلك الذي لمحته فقـط ولكنني عرفته أكثر من الآخر، الرجل الذي سـار خلفي في المعابر الجبلية، محب الجليد. ذلك الأب الآخر ترك لي منزلًا مُدمرًا لأعيد بناءه. عندئذٍ قررت أن أنسـى الأول، وأن أستكمل ذلك العمل لأخلد ذكراه.

مكتبة

ثمانية

في شهر أغسطس/ آب انتهينا من سقف المنزل. كان مكونًا من طبقتين من الألواح الخشبية تفصلهما طبقة من الصلب وطبقة عازلة. في الخارج ألواح من خشب اللاركس، موضوعة الواحد فوق الآخر وتتخللها قنوات لصرف المياه، وفي الداخل ألواح معشقة من خشب الراتينج؛ سيحمي اللاركس المنزل من الأمطار بينما سيحتفظ الراتينج بالحرارة في الداخل. قررنا ألا نثقب السقف لوضع فتحة إضاءة. حتى في نصف النهار في فصل الصيف، كان عدم وضعها يجعل المكان بالداخل مظللًا. لم تكُن النافذتان المواجهتان للشمال تستقبلان الضوء المباشر، ولكن بالنظر إلى الخارج ترى الجبل أمامك، يرتفع هناك في ما وراء البحيرة، يلمع، تقريبًا أبيض اللون. كانت صخوره الملحية وحجارته تلمع بشدة

t.me/ktabpdf

في تلك الساعة. يدخل الضوء من النافذتين آتيًا من هناك، كأنه من مرآة، وهكذا الأمر في منزل بني على الناحية المعاكسة.

خرجت إلى السهل لأراقب ذلك الجبل في ضوء الشمس، ثم التفتّ تجاه جبلنا «الغرينون» الذي كان يغطي السماء، وشعرت بالرغبة في أن أصعد على قمته وأن أرى شكل البارما من فوق. منذ شهرين وهو يحوم فوق رأسي، ولكنني لم أفكر في هذا قط، أعتقد أن قدمَيَّ هما ما يدفعاني الآن نحو تلك الرغبة، بالإضافة إلى حر الصيف. عادت قدماي لقوتهما من جديد، ولرغبتهما في الحركة، ويدفعني الصيف نحو المرتفعات.

نزل برونو من السقف حيث كان يعمل بصبر. لا بد أن يثّبت طبقة من الرصاص بين الحائط الصخري والسقف، لكي يمنع المياه التي تتساقط في أيام الأمطار من أن تتسرب إلى داخل المنزل. يتطلب وضعها تشكيل اللوح قطعة تلو الأخرى بمطرقة، ليتناسب مع كل فتحة وكل تعرج ويُثبت جيدًا فيها. كان الرصاص طريًا، وبالعمل بعناية، لُحم في النهاية في الصخرة وأصبح كأنه عروقها الداكنة. وهكذا أصبح السقف والجدار كأنهما شيء واحد.

سألت برونو عن الطريق المؤدي لغرينون، وأشار لي بأثر كان يذهب من بداية البحيرة خلال الجرف. يختفي خلف مجموعة كثيفة من أشجار الألدر، ويتجاوز منطقة رطبة، ثم يعود ليظهر من جديد، وبين ممرات أخرى يغطيها العشب. هناك في خلف، قال: ذلك الذي يبدو كأخدود مختبئ، هو في الحقيقة حوض مائي آخر، وهناك توجد

مكتبة

بحيرة أخرى أصغر من بحيرتنا، ومن البحيرة إلى الأعلى يوجد تراكم صخور، فلا يوجد هناك معبر للصعود، ربما توجد بعض الصخور المرصوصة التي تشير للطريق، أو بعض الآثار لطرق تستخدمها الغزلان، ولكن في كل الأحوال، قال وهو يشير إلى ثغرة بالقرب من الذروة، حيث حقول الجليد بارزة، إنني من خلال تثبيت عيني على الثلج لن أخطئ شيئًا، فمن هناك ستخرج إلى الذروة ثم سيكون من السهل الاستمرار حتى القمة.

قلت: أود أن أقوم برحلة إلى هناك، ربما يوم السبت أو الأحد، إذا كان الجو مشمسًا.

قال: لماذا لا تذهب الآن؟ يمكنني أن أنهي هذا بمفردي.

- هل أنت متأكد؟

- بالتأكيد. أنت حر اليوم. اذهب، اذهب.

كانت البحيرة العليا مختلفة تمامًا عن بحيرتنا. كانت أشجار الصنوبر السويسرية واللاركس، الصغيرة والأخيرة، والشجيرات من الصفصاف والألدر تختفي تدريجيًّا على طول المنحدر، وفي ما وراء السلسلة الجبلية تهب الرياح قليلة الكثافة للمرتفعات الجبلية. كانت البحيرة مجرَّد مستنقع أخضر اللون، تحيط بها مراعٍ فقيرة ومساحات ممتدة من العنب البري. كان هناك نحو عشرين من الماعز، لا يحرسها أحد، راقدة بالقرب من مبنى متهدم، وتجاهلت وجودي تقريبًا. ينتهي المعبر هناك، بين الأثر الذي صنعه عبور الماشية، وحيث تركت

t.me/ktabpdf

الأعشاب القليلة الأخيرة مكانها لكتل من الصخور. كنت أرى جيدًا حقل الثلج هناك فوق في القمة وأتذكر تعليمات أبي، ثم رسمت خطًّا بيني وبين الثلج وانطلقت. كنت أسمع في أذني صوته وهو يقول: إلى الأمام، اذهب إلى أعلى من هنا.

لم أكن سرت على مستوى أعلى من مستوى الغابة منذ فترة طويلة، ولم أذهب إلى هناك قط بمفردي، ولكن لا بد أنني تعلمت جيدًا، كنت أشعر بأنني على سجيتي في حركتي على الكتل الصخرية. أرى تكدس الصخور هناك فوق وأتجه مباشرةً إليها، وأنا أتحرك بين صخرة وأخرى، تبعًا لغريزة ما تدفعني لتفضيل الصخور الكبيرة والثابتة، وتجنب تلك المتزعزعة. عثرت على خاصية مرنة في الصخور، التي لا تمتص الخطوة مثل التراب أو العشب، ولكن تبعث قوتها للقدمين، مانحةً الجسد قوة دفع للاستمرار. وهكذا، بمجرَّد أن يضع المرء قدمه على صخرة، دافعًا وزنه إلى الأمام وإلى الأعلى، تبدأ القدم الأخرى بالذهاب إلى أبعد. شعرت بنفسي وأنا أجري وأقفز فوق الصخور، ثم توقفت عن التحكم في حركة قدمَي، وتركتهما لتنطلقا وحدهما. كنت أشعر بأنني أستطيع الاعتماد عليهما، وأنهما لن تخطئا. تذكرت أبي والفرحة التي كنت أراها تغمره عندما نتجاوز ارتفاع المراعي، وندخل إلى عالم الصخور. ربما هي نفسها الفرحة التي أشعر بها تغمر جسدي الآن.

عندما وصلت إلى حقل الثلج الصغير كنت أتنفس بصعوبة من الجري. توقفت لألمس ثلج أغسطس/ آب. كان مجمدًا وحُبيبيًّا،

مكتبة

قاسيًا جدًّا إلى حد أنه يجب على المرء حكه بأظافره، وجمعت حفنة مسحت بها على جبهتي وعنقي لأرطب وجهي. أخذت أمتصه حتى شعرت بوخز خفيف في شفتي، ثم صعدت الجزء الأخير من الطريق الصخري حتى الذروة. عندئذٍ فُتح الطريق لأرى الجانب الآخر من الـ «غرينون»، الجزء الواقع في الشمس، أسفل قدمي، وبعد حزمة صخرية، يوجد مرج طويل ينحدر بعذوبة وصولًا إلى مجموعة من الأكواخ، ومرعى تناثرت فيه الأبقار، وبدا لي كأنني عدت فجأة ألف متر إلى أسفل، أو أن موسم السنة قد تغير؛ فأمامي يوجد ضوء الصيف وأصوات الماشية الحية، وخلف ظهري، عندما أستدير، يوجد الخريف المُعتم، الكئيب المصنوع من الصخور الرطبة ورقع من الثلج. وأصبحت البحيرتان في الأسفل، من هذه الزاوية، كأنهما توأمان. بحثت عن المنزل الذي نبنيه أنا وبرونو، ولكن ربما كنت على ارتفاع أكثر مما ينبغي، أو ربما كان المنزل مختبئًا جيدًا، ولم أستطع أن أميزه من فوق الجبل لاندغامه بالصخرة التي صُنع منها.

كانت علامات الكتل الصخرية مستمرة بضعة أمتار أسفل السلسلة الجبلية، بطول حافة جيدة، إلا أنني كانت لدي الرغبة في التسلق ولم أجد صعوبات ضخمة أمامي، وهكذا قررت أن أسير بمحاذاة خط الذروة. وضعت يدي على صخرة بعد أعوام كثيرة، واخترت المساند المناسبة لقدمي ورفعت نفسي إلى أعلى. على الرغم من كونه مجرَّد تسلق بدائي، فإن تلك الحركات القديمة كانت تتطلب كل انتباهي. عليَّ أن أفكر من جديد أين أضع كل يد وكل قدم، وسرعان ما فقدت إدراكي للزمن. لم أهتم بالجبال حولي ولا بالعالمين

t.me/ktabpdf

الغريبين بينهما المتسارعين أسفل مني، لم يكُن هناك وجود لشيء سوى الصخرة التي أراها أمامي، معها توجد يدَي وساقَي، حتى وصلت إلى النقطة التي لم يكُن في الإمكان الصعود بعدها، عندئذٍ أدركت أنني وصلت إلى إحدى القمم.

ماذا بعد؟ فكرت. كان هناك تراكم من الصخور على القمة. في ما عدا بعض الحطام، ظهر المونتي روزا بجليده وهو يواجه الشمس. ربما كان عليَّ إحضار بعض الجعة لأحتفل، ولكنني لم أشعر بأي فرحة ولا ارتياح. قررت أن أتوقف فقط لوهلة لتدخين سيجارة، ثم أصافح جبل أبي وأعود إلى أسفل.

كان ما زال بإمكاني التعرف على كل واحدة من تلك القمم. كنت أراقبها بينما أدخن، من الشرق إلى الغرب، وأعثر على كل أسمائها في ذاكرتي. أتساءل على أي ارتفاع كنت، لأنه بدا لي أنني تجاوزت الثلاثة آلاف متر دون أن أشعر بأي شيء في معدتي، وهكذا نظرت حولي بحثًا عن لافتة ما، ووجدت صندوقًا معدنيًا مغروسًا في كومة من الحصى. كنت أعلم ما يحتويه، ومن خلال الفتحة الصغيرة وجدت دفترًا ملفوفًا داخل حافظة من البلاستيك لم تستطع حمايته تمامًا من المياه. كانت الصفحات المسطرة لها ملمس الورق الذي جف بعد ابتلال، يوجد أيضًا قلمان في الداخل، بهما يترك المتسلقون النادرون الذين يصلون إلى هذه النقطة فكرة ما، أو أحيانًا مجرَّد الاسم والتاريخ. مر الأخير من هنا الأسبوع الماضي. أخذت أتصفح الدفتر ووجدت أن فوق هذا الجبل العاري، الذي يلقي بظلاله على منزلي، والذي كنت

مكتبة

أعده ملكية خاصة بي، لم يصعد سوى عشرة أشخاص كل عام، وأن ذكرياته عن أولئك المتسلقين تعود إلى أعوام كثيرة مضت. قرأت أسماءً عديدة، وملحوظات لا أهمية لها. كان يبدو لي دائمًا أنه بعد أن يتعب المرء كل هذا التعب، لا يجد الكلمات ليكتب ما يشعر به، ولا ينتج سوى بعض التفاهات الشعرية أو الروحية. تصفحت الدفتر إلى الخلف، غاضبًا بعض الشيء من الجنس البشري، ولم أعرف ما كنت أبحث عنه حتى وجدته، سطران يعودان إلى عام 1997، تعرفت على الخط، والروح التي كانت وراء تلك الكلمات، كتب:

تسلقت إلى هنا من غرانا في ثلاث ساعات وثمانٍ وخمسين دقيقة. ما زلت في كامل لياقتي!

جوفاني غواستي.

تأملت كثيرًا في كلمات أبي. تمدد الحبر بفعل المياه، والتوقيع أقل وضوحًا من العبارتين اللتين سبقتاه. توقيع شخص معتاد على التوقيع كثيرًا، لم يكُن اسمًا بالفعل ولكن مجرَّد حركة آلية. حملت علامة التعجب كل مزاجه الجيد لذلك اليوم. كان بمفرده، أو هكذا يبدو من الدفتر، لذلك تخيلته يصعد عن طريق الصخور ويخرج من الذروة كما فعلت أنا. كنت متأكدًا أنه كان يراقب الساعة، وفي تلك اللحظة أخذ يجري. يرغب في أن يصل، بأي ثمن، في أقل من أربع ساعات. كان سعيدًا هنا فوق على القمة، فخورًا بساقيه، وسعيدًا أن يرى من جديد جبله المضيء. خطر ببالي أن أنزع الصفحة لأحتفظ بها، ثم بدا لي شيئًا كتدنيس المقدسات، وأخذ حجرة من القمة إلى أسفل

t.me/ktabpdf

الجبل. أغلقت على الدفتر جيدًا في الحافظة البلاستيكية، وأعدته إلى الصندوق وتركته هناك.

في الأسابيع التالية وجدت رسائل أخرى خاصة بأبي. كنت أدرس خريطته الخاصة بالمعابر، وأتبعها بحثًا عنه فوق القمم الأقل نبلًا، تلك التي نسيها الوادي المنخفض. وعلى «مونتى روزا»، وبالقرب من إجازة أغسطس/ آب، كانت مسيرات من الحبال تترك علاماتها على الجليد، وامتلأت الملاجئ الجبلية بمتسلقي الألب من نصف العالم، ولكن حيث كنت أذهب أنا لم أكن أقابل أحدًا قط، إلا بعض المتسلقين الوحيدين بعمر أبي أو ربما أكبر قليلًا، وكان يبدو لي أنني أقابله هو، عندما أتجاوزهم. وبالنسبة إليهم يبدو، على ما أعتقد، أنهم قابلوا ابنًا، لأنهم كانوا ينظرون إليَّ وأنا أقترب منهم ويتنحون جانبًا قائلين: لنفسح للشباب! ورأيت أن هؤلاء الرجال يرغبون في أن أتوقف وأتحدث، وهكذا بدأت أفعل هذا. في بعض المرات كنا نستغل الفرصة لنتناول بعض الطعام معًا. جميعهم يعودون إلى الجبال نفسها بعد ثلاثين، أربعين، خمسين عامًا، وكانوا مثلي يفضلون تلك الطرق التي أهملها الألبيون، والأودية المهجورة التي يبدو أن لا شيء تغير فيها.

حكى لي رجل أبيض الشاربين أن التسلق بالنسبة إليه طريقة ليعيد التفكير في حياته. مثل الذي، بالسير على المعبر القديم نفسه مرة في العام، يغوص بين ذكرياته ويصعد على مسار ذاكرته نفسها. كان يأتي من الريف، مثل أبي، ولكن من حقل الأرز بين «نوفارا» و«فيرشيللي». ومن المنزل الذي وُلد فيه كان يرى المونتى روزا فوق

مكتبة

أفق الحقول، ومنذ طفولته شرحوا له أن من هناك فوق تنبع المياه، مياه الشرب ومياه الأنهار، المياه التي تسقي حقول الأرز، كل المياه التي يستخدمونها تأتي من هناك، وطالما استمر الجليد في التوهج في الأفق لن يعانوا على الإطلاق من أي مشكلات جفاف. أعجبني هذا الشخص. ترمل منذ بضعة أعوام، ويفتقد زوجته بشدة. كان لديه بعض بقع من الشمس على رأسه الصلعاء، وغليون يعمل على ملئه بينما نتحدث. وفي لحظة ما تناول من حقيبته زمزمية، سكب نقطتين من الجرابًا فوق قالب سكر وقدمه لي.

قال: بهذا ستسير مثل القطار.

ثم بعد قليل: إيه، فعلًا، لا شيء مثل الجبل يساعد على التذكر.

وكنت بدأت، بالفعل، أنا أيضًا إدراك هذا.

وفي القمة كنت أعثر على صليب غير متوازن، وأحيانًا لم أكن أعثر على شيء. كنت أزعج الوعول التي تُفزع ولكن دون أن تهرب حقًا. ينفس الذكور منها فوقي كل ضيقهم لوجودي، أما الإناث والصغار خلفهم، كانت تقف على بعد. إذا حالفني الحظ كنت أعثر على الصندوق الحديدي مخبأ أسفل الصليب، أو في مكان ما بين الحجارة.

كان توقيع أبي في كل تلك الدفاتر. كان غالبًا مقتضبًا ودائمًا متباهيًا. كان يحدث لي أن أعود إلى الوراء عشرة أعوام لأجد ثلاث كلمات:

وصلت إلى هذه أيضًا.

جوفاني غواستي.

t.me/ktabpdf

لا بد أنه كان يشعر في لياقته في أحد الأيام، وأثر فيه شيء ما ليكتب:

وعول ونسور وثلج مُنعش. كأنها فترة شباب ثانية.

وفي واحدة أخرى قال:

ضباب كثيف حتى القمة. أغنيات قديمة. بانوراما داخلي رائع.

كنت أعرفها كلها تلك الأغنيات، وكنت سأحب أنا أيضًا أن أغني معه في الضباب. ولكن كان مزاجه حزينًا في الرسالة الأخرى التي وجدتها، تركها فقط في العام السابق:

عدت مرة أخرى إلى هنا بعد فترة طويلة. كان سيكون شيئًا رائعًا أن نجلس هنا كلنا معًا، دون أن نرى أحدًا، ودون أن نضطر قط إلى أن ننزل للوادي.

كلنا من؟ تساءلت. وأنا أين كنت في ذلك اليوم؟ من يدري إذا بدأ يشعر آنذاك بالفعل بأن قلبه ضعيف، أو شيء آخر حدث له ليكتب تلك الكلمات:

دون أن نضطر إلى أن ننزل للوادي.

ربما الشعور نفسه هو ما جعله يحلم بمنزل في أعلى مكان ممكن، حصين ومنعزل، حيث يمكنه أن يعيش بعيدًا عن العالم. كنت أنقل التواريخ والعبارات في يومياتي، قبل أن أضع الدفتر من حيث أخذته.

مكتبة

ربما كنا نعيش أنا وبرونو بالفعل داخل حلم أبي. تقابلنا في مرحلة من حياتنا، تلك التي تضع حدًا لسن ما، وتبدأ في مرحلة عمرية أخرى، وإن كان هذا ما فهمناه في ما بعد. من بارما كنا نرى النسور تحوم أسفلنا، وحيوانات المرموط تقف في حراسة مداخل جحورها. كنا نلاحظ صيادًا أو اثنين، من حين إلى آخر، هناك بجوار البحيرة، وبعض المشاة، ولكن لم يكُن أحد يرفع عينيه بحثًا عنا، ونحن لم نكن ننزل لنحيي أحدًا. كنا ننتظر حتى يذهبوا بعيدًا لننزل ونسبح في الظهيرة في أيام أغسطس/ آب. كانت مياه البحيرة مجمدة وكنا نتسابق على من يمكث فيها لمدة أطول، قبل أن يخرج جريًا نحو المراعي حتى تعود الدماء مرة أخرى تجري في شرايينه. كنا نحن أيضًا نمتلك قصبة صيد، مجرَّد عصا وخطاف، وبها من حين إلى آخر كنت أنجح في صيد شيء ما، وأنا أستخدم صراصير الحقل كطعم، وعندئذٍ يكون عشاؤنا سمكة سلمون مشوية على النار والنبيذ الأحمر. وكنا نجلس أمام النار لنشرب حتي يحل الظلام.

في تلك الفترة كنت أنا أيضًا أنام هناك فوق. عسكرت داخل المنزل غير المكتمل، أسفل نافذة من الاثنتين. في الليلة الأولى مكثت ساعات طويلة أحدق، من كيس نومي، في النجوم وأستمع إلى صوت الرياح. كنت ألتفت إلى الناحية الأخرى، وأيضًا في الظلام أشعر بوجود الحائط الصخري، كأنه يمتلك قوة مغناطيسية أو قوة جاذبية، أو مثلما يحدث عندما تغمض عينيك ويُقرب أحدهم يده أمامها وأنت تشعر بأنها هناك. كان يبدو لي كأنني أنام في كهف محفور في الجبل.

t.me/ktabpdf

ومثل برونو، سرعان ما فقدت اعتيادي للتحضر، كنت أنزل إلى البلدة مرة واحدة في الأسبوع، رغمًا عني، فقط لأبتاع احتياجاتنا، وأفاجأ عندما أجد نفسي بين السيارات بعد ساعتين فقط من المشي. وكان أصحاب المتاجر يتعاملون معي كأنني سائح، ربما فقط أكثر غرابة من الآخرين، وكنت أنا سعيدًا هكذا. وأشعر بتحسن بمجرَّد أن أتخذ طريق العودة. أحمل الخبز والخضراوات، والسلامي والجبن، والنبيذ على ظهر البغل، وأضربه على مؤخرته وأتركه ليسير لحاله على الطريق الذي يعرفه بالفعل ظهرًا عن قلب. ربما يمكننا بالفعل أن نمكث هناك فوق إلى الأبد، ولن يشعر أحد قط بهذا.

ثم بدأت أمطار نهاية أغسطس/ آب. كنت أتذكرها هي أيضًا. تجلب تلك الأيام الخريف إلى الجبل، لأنه بعد ذلك، عندما تعود الشمس، لا تكون هي الشمس الساخنة للأيام السابقة، ويكون الضوء بدأ في الخفوت وتستمر الظلال لفترات طويلة. كانت تلك التكدسات من السحب البطيئة، بلا شكل، التي تبتلع القمم، تقول لي في زمن ما إنها ساعة الرحيل، وكنت أنا أعارض السماء لأن الصيف لم يستمر سوى لحظة، ما إن بدأ حتى انتهى؟ لا يمكن أن يكون مرّ بهذه السرعة.

في بارما كانت الأمطار تدكُّ أعشاب المراعي، وتكسر سطح البحيرة، وتدق على سقفنا، وتختلط دقاتها مع طقطقة النيران. كنا نكسو إحدى الغرفتين بخشب الصنوبر، في تلك الأيام، ونتدفأ بالمدفأة التي أحضرتها. وضعناها على الحائط الصخري. كانت الصخرة، خلف

مكتبة

المدفأة، تتدفأ شيئًا فشيئًا، ثم ترسل بحرارتها إلى الحجرة، ويحتفظ خشب الراتينج الذي غطيناها به بتلك الحرارة. ولكن كانت هذه فكرة للمستقبل، فبدون الأبواب والنوافذ تهب الرياح بالفعل على أعناقنا، تدخل الأمطار في دفعات مائلة، وبعد العمل نمكث في المنزل ننظر إلى المدفأة ونغذيها بحطب الحطام القديم.

حدثني برونو في إحدى الأمسيات عن مشروع في ذهنه. كان يرغب في شراء المرعى الجبلي لعمه. يدخر منذ فترة الأموال. ابنا عمه، سعيدين للتخلص من الذكريات السيئة، عرضا عليه سعرًا، ودفع برونو كل ما يمتلكه للمقدم، ويتمنى أن يستطيع أن يقترض المبلغ الباقي من البنك. تلك الشهور في بارما كانت بالنسبة إليه فترة تجربة عامة، يتمنى أن يستطيع أن ينجح فيها. إذا سار كل شيء على ما يرام، سيقضي الصيف القادم في عمل الشيء نفسه، يريد أن يرمم الأكواخ، ويبتاع بعض الماشية ويعيد المرعى للعمل في خلال عامين.

قلت: مشروع جميل.

قال هو: والأبقار الآن لا تكلف شيئًا تقريبًا.

- وتجلب الربح؟

- ليس كثيرًا، ولكن هذا لا يهم. إذا كان الأمر يتعلق بالمال لكنت استكملت عملي بَنَّاءً.

- لم يعُد يعجبك عمل البنَّاء؟

t.me/ktabpdf

- بلى، يعجبني، ولكنني طالما عرفت أنه شيء مؤقت. إنه شيء أستطيع عمله، ولكنه ليس الشيء الذي ولدت لأجله.

- وما الذي خُلقت من أجله؟

- أن أكون من رجال الجبال.

وأصبح جادًّا وهو ينطق تلك الكلمات. سمعته يستخدمها بضع مرات، عندما كان يتحدث عن أسلافه، سكان الجبل القدامى الذين عرفهم من خلال الغابات والحقول البرية، والمنازل المنهدمة حيث قضى حياته يكتشفها. هجرهم لفترة بدا له ضروريًا أيضًا، عندما كان القدر الوحيد الذي يراه لنفسه هو قدر كل رجال الوادي. النظر إلى الأسفل، حيث توجد النقود والعمل، وليس إلى الأعلى، حيث توجد الأعشاب الضارة والأطلال. حكى لي أن عمه، في الفترة الأخيرة في المرعى الجبلي، لم يكُن يُصلح أي شيء. إذا كُسر مقعد يحرقه في المدفأة. إذا رأى نباتًا دخيلًا في المرعى لم يحاول حتى أن ينحني لينزعه. وكان أبوه يبدأ في السباب كثيرًا إذا ذكر أحدهم المكان أمامه، وكان بكل سرور سيقتل كل الماشية، وكانت فكرة أن كل شيء هناك في طريقه لأن يصبح حطامًا تمنحه نوعًا من المتعة القاسية.

ولكن برونو شعر بنفسه مختلفًا. مختلفًا جدًّا عن عمه وأبيه، وابني عمه، حتى أدرك في يوم ما إلى من يشبه، ومن أين تأتيه دعوة الجبل.

قلت: من أمك. ليس لأنني عرفت ذلك من قبل، ولكن فكرت في الأمر في تلك اللحظة.

مكتبة

أجاب برونو: أجل، أنا وهي متشابهان تمامًا.

توقف قليلًا ليزن جيدًا ما هو على وشك أن يقوله، ثم أضاف: لكنها امرأة. إذا ذهبت أنا لأمكث في الغابة لن يقول أحد شيئًا. إذا فعلت امرأة ذلك يعدونها ساحرة. إذا أنا التزمت الصمت، ماذا ستكون المشكلة؟ فلست سوى رجل لا يتحدث. امرأة لا تتحدث لا بد أن تكون شبه مجنونة.

كان حقيقيًّا، الجميع يفكرون هكذا. أنا نفسي لم أتبادل معها أكثر من كلمتين. حتى الآن، عندما أمر على غرانا وتعطيني البطاطس، والطماطم، وجبن التوما لآخذها إلى فوق. أصبحت أراها أكثر انحناءً وأقل وزنًا مما سبق، ولكنها ما زالت هي الكائن الغريب الذي يقف هناك فوق في البستان، الذي كنت أراه في صباي.

قال برونو: إذا كانت أمي رجلًا، لاستطاعت أن تعيش الحياة التي تريدها. أعتقد أنها ليست الشخص المناسب للزواج، وبالتأكيد ليس من أبي. حظها السعيد الوحيد أنها تمكنت من التحرر منه.

- وكيف تمكنت من ذلك؟

- بالتزامها الصمت، وبأن تمكث هناك فوق مع الدجاج. لا يمكنك أن تغضب كثيرًا من واحدة لها هذا الطبع، إن آجلًا أم عاجلًا ستتركها في سلام.

- ولكن هل قالت لك هي تلك الأشياء؟

t.me/ktabpdf

– لا. وأجل، ربما قالته بطريقة ما. لا يهم إذا كانت قالته لي، لقد فهمتها بمفردي.

كنت أعلم أن برونو على حق. هناك أشياء مشابهة عن والديّ فهمتها أنا أيضًا بمفردي. بدأت أدير في رأسي تلك العبارة: حظها السعيد الوحيد أنها استطاعت أن تتحرر منه، وسألت نفسي إذا كان الشيء نفسه حدث لأمي. ربما يكون هذا ما حدث، حسب معرفتي بها. ربما لم يكُن حظًا سعيدًا، ولكن مجرَّد شعور بالارتياح. كان أبي دائمًا شخصًا يملأ المكان، قياديًا ومُجهدًا. عندما يكون في الجوار لا وجود إلا له، كان طابعه يتطلب أن تدور حيواتنا جميعًا حول حياته.

– وأنت؟ سألني برونو بعد وهلة.

– أنا ماذا؟

– الآن ماذا ستفعل؟

– آه، أعتقد سأرحل، إن استطعت.

– إلى أين؟

– إلى آسيا ربما. حتى الآن لا أعرف.

سبق وتحدثت معه بالفعل عن رغبتي في السفر. كنت متعبًا لأنني ليس لدي النقود، خصوصًا لهذا الغرض، في الأعوام الأخيرة استهلكت كل طاقاتي في أن أعبر الشهر بسلام. لم أشعر بالحرمان بسبب شيء لم أمتلكه، ولكن بالتأكيد كانت تنقصني الحرية لأتجول حول العالم. بميراثي الصغير عن أبي سددت كل ديوني، وكنت

مكتبة

أرغب في أن أرتب مشروعًا يأخذني بعيدًا عن المنزل، أردت أن أركب الطائرة وأن أرحل لبضعة أشهر، بلا أي أفكار واضحة، وأن أرى إذا كانت توجد بعض القصص لأحكيها. لم أفعل ذلك قط.

قال برونو: لا بد أن الرحيل هكذا سيكون شيئًا جميلًا.

سألته، كنت أمزح، ولكن ليس تمامًا، فقد كنت أشعر بالاستياء بأن العمل على وشك الانتهاء. لم أشعر قط بهذه الراحة مع أحد من قبل: هل ترغب في المجيء؟

قال: لا، هذا الأمر ليس لي. أنت هو من يذهب ويعود، بينما أبقى أنا هنا. تمامًا كما فعلنا دائمًا، أليس كذلك؟

عندما أصبح المنزل جاهزًا، في سبتمبر/ أيلول، كان كما يلي: به حجرة من الخشب وحجرة من الحجارة. الحجرة الخشبية كانت الأكبر والأدفأ، بها المدفأة، والمائدة، ومقعدان، وصندوق يُستخدم كمقعد وخزانة. بعض ذلك الأثاث أتى من حطام المنازل في الجوار، انتشلته ونظفته بزيت التشحيم وورق الصنفرة، أما الباقي صنعه برونو مستخدمًا ألواح الأرض القديمة. وأسفل السقف، بجوار الحائط الصخري، توجد غرفة علوية يمكن الوصول إليها بسلم خشبي، وكانت الزاوية الأكثر دفئًا وتجهيزًا في المنزل، بينما المائدة موضوعة بجوار النافذة، وهكذا عندما نجلس حولها يمكننا النظر إلى الخارج. كانت الحجرة الحجرية صغيرة وباردة، ننوي استخدامها كمخزن للطعام، وورشة ومخزن للأدوات. تركنا هناك عديدًا من المعدات التي استخدمناها، وكل الخشب المتبقي. لم يكُن هناك حمام ولا مياه جارية

t.me/ktabpdf

ولا كهرباء، ولكن وضعنا زجاجًا سميكًا على النوافذ وبابًا ضخمًا للمدخل مزوَّدًا أيضًا بمزلاج وبلا قفل. أغلقنا فقط الحجرة الحجرية بالمفتاح، وكان ذلك حتى لا يسرق أحدهم المعدات، ولكننا تركنا الحجرة الخشبية مفتوحة، كما كان الأمر معتادًا في الملاجئ الجبلية، في حالة إذا ما مر أحدهم من هنا في الشتاء وكان يواجه أي صعوبات. نظفنا الأعشاب المحيطة بالمنزل كأنها حديقة، والآن، الحطب في مكان جاف أسفل سقف منحدر، وشجرة الصنوبر الصغيرة الملتوية تطل على البحيرة، وإن لم تبدو لي أقوى ولا في حالة جيدة منذ أن زرعتها.

في اليوم الأخير ذهبت إلى «غرانا» لأصطحب أمي. وضعت حذاءيها الجلديين اللذين كنت أراها تستخدمهما منذ طفولتي، لم يكُن لديها غيرهما. كنت أعتقد أنها ستتعب في الصعود، إلا أننا سرنا ببطء، حسب خطوتها، ولكننا لم نتوقف ولو مرة واحدة، أسير خلفها وأرى كيف تمشي. كانت تحتفظ بالإيقاع البطيء نفسه والهادئ لمدة أكثر من ساعتين، وتعطي الانطباع أنه من المستحيل أن تراها تفقد توازنها أو تنزلق.

فَرحت جدًّا بالمنزل الذي بنيناه أنا وبرونو. كان أحد أيام شهر سبتمبر/ أيلول، والمياه أصبحت بالفعل ضحلة في الأنهار، والعشب بدأ يجف في المراعي، ولم يعد الهواء هو هواء أغسطس/ آب الدافئ. أشعل برونو المدفأة وكان الجو جميلًا في المنزل، وجلسنا لنحتسي الشاي أمام النافذة. أعجبت أمي جدًّا بالنافذتين وجلست هناك فترة طويلة تنظر إلى الخارج، بينما كنا أنا وبرونو نرتب المواد التي سنأخذها لأسفل،

مكتبة

ثم رأيتها تخرج إلى السهل لتنظر جيدًا إلى كل شيء لتتذكره، البحيرة، والتراكم الصخري، وقمة الـ «غرينون»، وشكل المنزل، ونظرت طويلًا إلى اللافتة التي في اليوم السابق، وبالإزميل والمطرقة، حفرتها على حائط الصخرة ثم لونتها بالورنيش الأسود، وكانت تقول:

جوفاني غواستي

2004 -1942

أجمل الملاجئ تقبع في الذاكرة

ثم دعتنا لنغني أغنية. كانت أغنية تُغنى عندما يموت عاشق للجبل، يُطلب فيها من الله أن يتركه ليسير أيضًا في الحياة الأخرى، وكنا أنا وبرونو نعرفها. كان كل شيء رائعًا في رأيي، تم كما ينبغي. لم يكُن ينقص سوى أن أقول شيئًا واحدًا، فكرت فيه منذ فترة، وقررت أن أقوله في تلك اللحظة، حتى تسمعه أمي أيضًا، وهكذا يكون هناك شاهد ليتذكره. قلت لبرونو إنني أريد أن يكون هذا المنزل، منزلنا. منزلي ومنزله. كنت مقتنعًا بأن أبي أيضًا أراد هذا، لأنه تركه لنا معًا، ولكن أنا أتمنى هذا بصفة خاصة لأننا اشتركنا في بنائه. منذ تلك اللحظة، قلت، يمكنك أن تعده منزلك أيضًا، كما أعتبره أنا منزلي.

سألني: هل أنت متأكد؟

– بالتأكيد.

قال: إذًا لا بأس، أشكرك.

t.me/ktabpdf

ثـم أخـرج الجمر مـن المدفأة، وألقـاه بعيـدًا. أغلقت بـاب المنزل وأمسـكت بلجام البغل، وقلت لأمي أن تتقـدم الطريق، ونزلنا نحن الأربعة متتبعين إيقاع خطوتها تجاه «غرانا».

مكتبة

الجزء الثالث

صديق في الشتاء

t.me/ktabpdf

مكتبة

تسعة

كان شيخًا من نيبال، بعد ذلك بفترة، هو من حكى لي عن الجبال الثمانية. كان يحمل حمولة من الدجاج إلى الأعلى عن طريق أودية الإفرست، متجهًا إلى أحد الملاجئ الجبلية، حيث ستصبح وجبة دجاج بالكاري للسياح. كان يحمل على ظهره قفصًا مقسمًا إلى أقفاص صغيرة منفصلة، بداخلها دجاجات حية ومرتبكة. لم أر بدعة مثل هذه من قبل. رأيت سِلالًا مليئة بالشوكولاتة والبسكويت وحليب البودرة، وزجاجات الجعة والويسكي والكوكا كولا، تسير على طرقات نيبال لترضي ذوق الغربيين، ولكن لم أر قط محل دجاج متنقلًا. عندما طلبت من الرجل أن ألتقط له صورة، وضع قفصه فوق سور صغير، وخلع الرباط من المقدمة الذي يحمله به، وتوقف استعدادًا للصورة وهو يبتسم بجوار الدجاجات.

t.me/ktabpdf

وبينما يلتقط أنفاسه تحدثنا قليلًا. كان يأتي من مقاطعة سبق وزرتها، وتعجب لهذا، وأدرك أنني لم أكن مجرَّد زائر عابر، لأنني أستطيع بالفعل أن أكوِّن بعض العبارات باللغة النيبالية، وعندئذٍ سألني لماذا أنا مهتم جدًّا هكذا بالهيمالايا. كانت لدي إجابة على هذا السؤال، فقلت له: إنه يوجد جبل ما، حيث نشأت أنا، ارتبطت به كثيرًا، ومن هناك وُلدت لدي الرغبة في أن أرى أجمل وأبعد الجبال في العالم.

قال هو: آه، فهمت. فأنت تطوف حول الجبال الثمانية.

- الجبال الثمانية.

أخذ الرجل عصًا صغيرة وبها رسم دائرة في الرمال. رسمها بدقة، وكان من الواضح أنه معتادًا على رسمها، ثم بداخل الدائرة رسم قطرها، ثم قطرًا آخر عموديًّا على الأول، ثم ثالثًا ورابعًا من خلال النقطة المركزية، وبالتالي رسم عجلة ذات ثمانية أشعَّة. فكرت، إذا كنت أرغب في الوصول إلى هذا الشكل كنت سأنطلق من صليب، ولكن هذه هي طريقة الأسيوي النموذجي، الانطلاق من الدائرة.

- هل سبق ورأيت تصميمًا كهذا؟ سألني.

- أجل، أجبت- في الماندالا.

قال هو: تمامًا. نحن نقول إنه في مركز العالم يوجد جبل شاهق الارتفاع، السوميرو. حول السوميرو توجد ثمانية جبال وثمانية بحار. إن هذا هو العالم بالنسبة إلينا.

مكتبة

وفي أثناء قوله هذا، رسم، خارج العجلة، نقطة لكل شعاع، ثم موجة صغيرة بين كل نقطة وأخرى. ثمانية جبال وثمانية بحار. وفي النهاية رسم تاجًا حول مركز العجلة، يمكن أن يكون، فكرت، القمة التخيلية لسوميرو. قيّم عمله لوهلة وهز رأسه، كأنه رسم ذلك الشكل آلاف المرات من قبل ومؤخرًا لم يعد يجيده، ثم أشار بعصاه الصغيرة إلى المركز واختتم: والسؤال هو: هل يتعلم أكثر من دار حول الجبال الثمانية، أم من وصل إلى قمة سوميرو؟

نظر إليَّ حامل الدجاجات وابتسم. أنا أيضًا ابتسمت، لأن القصة كانت تسليني ولأنني أعتقدت أنني فهمتها جيدًا. مسح الرسم بيده ولكنه عرف أنني لن أنساه. حسنٌ، قلت لنفسي، لا بد أن أقص هذا على برونو.

كان مركز العالم بالنسبة إليَّ في تلك الأعوام هو المنزل الذي بنيناه سويًا. أذهب لأمكث هناك لفترات طويلة بين يونيو وأكتوبر، وفي كل مرة أصطحب معي بعض الأصدقاء وكانوا يقعون في حبه على الفور، وهكذا أصبحت لدي هناك الرفقة التي أفتقدتها في المدينة. خلال الأسبوع أعيش بمفردي، أقرأ وأكتب، وأقطع الخشب وأتجول بين المعابر القديمة. أصبحت الوحدة وضعًا مألوفًا بالنسبة إليَّ، وضعًا مريحًا، ولكن ليس بالكامل. ولكن في أيام السبت في الصيف يوجد دائمًا من يصعد ليزورني، بالتالي لا يعد المنزل شبيهًا بمنازل النساك، ويصبح أحد تلك الملاجئ الجبلية التي كان أبي يتردد عليها. مع وجود النبيذ فوق المائدة والمدفأة المشتعلة، يجلس الأصدقاء ليتناقشوا

t.me/ktabpdf

حتى وقت متأخر، يجلعنا البعد عن العالم إخوة لليلة. يتدفأ الملجأ بنار تلك الحميمية، وكان يبدو لي، أنه بين زيارة وأخرى، يحافظ على وهج الجمر.

حتى برونو كان يجذبه دفء البارما. أراه يظهر من الممر بالقرب من المساء، حاملًا معه قطعة «جبن التوما» وزجاجة كبيرة من النبيذ، أسمعه يدق الباب عندما يحل الظلام، كأنه شيء طبيعي هناك على ارتفاع ألفي متر، أن يستقبل أحدهم جاره في الليل. إذا كانت معي صحبة، ينضم إلي مائدتنا بكل سرور. وجدته يتكلم أكثر من المعتاد، كأنه شخص صمت طويلًا وكدس أشياء كثيرة ليحكيها. في غرانا ما زال منحصرًا في عالمه المصنوع من المنازل والكتب، والسير في الغابات والأفكار الصامتة، وفهمت حاجته الملحة التي تدفعه إلى أن يغتسل ويبدل ملابسه بعد يوم طويل في مواقع البناء، لأن يتجاهل التعب والنعاس، ويتخذ المعبر المؤدي إلى البحيرة.

مع أولئك الأصدقاء كنا نتحدث كثيرًا عن الذهاب إلى الحياة في الجبل جميعنا معًا. نقرأ «بوشكين» ونحلم، أو نتظاهر بأننا نحلم، أننا نحول إحدى تلك القرى المهجورة إلى قلعة صديقة للبيئة، حيث سنختبر فكرتنا عن المجتمع، ولا يمكن عمل ذلك إلا في الجبل. فقط هناك فوق سيتركوننا في سلام. كنا نعرف تجارب أخرى مماثلة في أنحاء الألب، جميعها استمرت لفترات وجيزة وانتهت نهاية سيئة، ولكن هذا بالتحديد ما يمنحنا موضوعات للنقاش، ولا يمنعنا عن التخيل. ماذا سنفعل لنوفر الطعام؟ ماذا عن الطاقة الكهربائية؟

مكتبة

كيف سنبني المنازل؟ ربما سنحتاج أيضًا إلى بعض النقود، ولكن كيف سنحصل عليها؟ أين سيذهب أبناؤنا إلى المدارس، إذا أردنا أن نرسلهم؟ وكيف سنحل مشكلة العائلة، التي تفسد كل مجتمع، العدو الأسوأ من الملكية والسلطة؟

كانت تلك هي لعبة اليوتوبيا التي نلعبها في كل مساء. أما برونو، الذي كان بالفعل يبني قريته المثالية، يتسلى بأن يهدمها لنا. كان يقول: بلا أسمنت لا يمكن أن تُبنى المنازل، وبلا سماد لا يمكن أن ينمو حتى عشب المراعي، وبلا بترول أريد أن أرى كيف ستقطعون الأخشاب. وفي الشتاء ماذا ستأكلون في رأيكم، «البولينتا»[1] والبطاطس مثل المسنين؟ وكان يقول: إنكم أنتم يا أهل المدن من تطلقون عليها اسم **طبيعة**. إنها مجرَّدة في ذهنكم فأصبح الاسم بالتالي مجرَّدًا. نحن هنا نقول: غابة، مرعى، نهرًا، صخرة، أشياء يمكن للمرء أن يشير إليها بإصبعه، أشياء يمكن استخدامها. إذا لم يكُن في الإمكان استخدام شيء ما، لا نعطيه اسمًا، لأنه لا يفيد في شيء.

كنت أحب أن أستمع إليه وهو يتحدث هكذا، وتعجبني رؤيته متحمسًا لشيء، أمام أفكار معينة نحصدها من جولاتنا حول العالم، كان هو الوحيد القادر على تنفيذها. في أحد الأعوام سحب خمسين مترًا من الأنابيب من أحد مجاري المياه الصغيرة التي تغذي البحيرة، وحفر جذع شجرة لاركس بالمثقاب وبنى نافورة أمام المنزل. هكذا الآن أصبحت لدينا المياه لنشرب ونغتسل، ولكن لم يكُن هذا هو

1- أكلة تقليدية إيطالية، تُصنع من دقيق الذرة.

t.me/ktabpdf

الهدف الرئيسي، أسفل تدفق النافورة وضع طوربينًا جعلني أستقدمه خصيصًا من ألمانيا. كان من البلاستيك، عرضه مجرَّد قدم، يشبه طاحونة هوائية لعبة.

قال عندما بدأ طوربيننا يعمل: إيه بيريو هل تتذكر؟

- أتذكر بالتأكيد.

كان هذا النظام يشحن بطارية من خلالها، في المنزل، كنا نستطيع أن نستمع إلى الراديو أو نشعل مصباحًا المساء كله. كانت تعمل ليلًا ونهارًا، ولم تكُن تعتمد على الطقس مثل الألواح الشمسية أو الطوربينات الهوائية، كان ثمنها زهيدًا ولا تستهلك أي شيء. كانت المياه المتدفقة من «الغرينون» وتجري تجاه البحيرة، تمر على المنزل، وتمنح الإضاءة والموسيقى لأمسياتنا.

كانت هناك فتاة أتت معي في صيف 2007. اسمها لارا. عشنا معًا فقط شهرين، وكنا في المرحلة التي بالنسبة إلى الآخرين هي بداية علاقة، ولكن بالنسبة إلينا كانت النهاية. بدأت الانسحاب، كنت أتهرب منها وأختفي، حتى تتركني هي قبل أن يصبح كل شيء مؤلمًا إلى درجة كبيرة. نظامًا مُجربًا معي، وفي تلك الأيام الأخيرة أجبرتني على أن أعترف بما أفعله. شعرت بالاستياء لليلة، ثم تجاوزت الموقف.

كانت أيامًا جميلة أيضًا، بمجرَّد أن أدركنا أنها الأخيرة. كان المنزل والبحيرة، والتراكمات الصخرية وذروات «الغرينون»، كلها تعجب لارا كثيرًا، فكانت تتجول لفترات طويلة بمفردها على المعابر في

مكتبة

الجوار، وتدهشني رؤية الطريقة التي تسير بها. كانت فتاة ذات ساقين قويتين، وعلى سجيتها في الحياة المتقشفة للجبل، وعرفتها في «البارما» أفضل من الشهرين اللذين تشاركنا فيهما الفراش. قالت لي، وهي تغتسل بالمياه الباردة وتتدفأ بالنار، إنها أتت من جبال أخرى تركتها قبل أعوام للدراسة، والآن تفتقدها. لا تشعر بالندم على اختيارها الذهاب إلى المدينة، بل كانت تشعر بأن ما بينها وبين تورينو قصة حب، فهي تحب طرقها وناسها، ولياليها والأعمال التي قامت بها، والمنازل التي سكنتها، قصة طويلة وجميلة ولكنها الآن انتهت.

قلت لها إنني أعرف تمامًا ماذا تعني، وإن شيئًا مشابهًا حدث لي أيضًا. نظرت إليَّ نظرة حزينة تحوي لومًا وندمًا. كنت أراقبها في الظهيرة وهي تنزل إلى البحيرة حيث تخلع ملابسها وتسبح عارية إلى الصخرة التي تشبه الحاجز المرجاني، وللحظة شعرت بأنني تعجلت في إبعادها عني، ولكن ذلك قبل أن أتذكر كيف أكون في علاقتي مع أي شخص. وبعد هذا لم أعاود التفكير في الأمر مرة ثانية.

في ذلك المساء دعوت برونو على العشاء. كان متأخرًا عامًا عن برنامجه بسبب القروض والمباني التي عطلته، ولكنه الآن انتهى تقريبًا من ترميم المرعى الجبلي. لم يكُن هناك شيء آخر في ذهنه، منذ ثلاثة أعوام وهو يصارع مع موظفي البنك وموظفي البلدية، يقوم بعملين في الشتاء ليربح النقود التي ينفقها في الصيف، في تلك الحالة من التركيز المطلق، القريب من الاستحواذ، التي رأيته فيها في موسمي معه كعامل. قضى الأمسية كلها وهو يحكي لنا عن القوانين

t.me/ktabpdf

الخاصة ببناء الإسطبلات، وأماكن تصنيع الجبن، والمخازن المناسبة لحفظه، والمعدات النحاسية والصلب، والأواني التي يمكن غسلها في الأكواخ القديمة. حوارات أعرفها أنا جيدًا، ولكن لم تكُن لارا تعرفها، وكان حماسه هذا جزئيًا موجهًا إليها. أضحكني، صديقي القديم برونو، لأنني لم أرَه قَطُّ وهو يحاول أن يترك انطباعًا ما لدى امرأة، يختار كلمات أكثر صعوبة من المعتاد، ويبالغ في إيماءاته، وينظر إليها خُلْسَة ليراقب ردود أفعالها.

قلت لها بعد أن رحل: أُعجب بكِ.

- وأنت كيف تعرف هذا.

- إنني أعرفه منذ عشرين عامًا، فهو أعز أصدقائي.

قالت لارا: لم أكن أعرف أن لك أصدقاء. كنت أعتقد أنك تهرب بمجرَّد أن ترى أحدهم.

لم أجبها. كانت السخرية هي أقل شيء يمكن أن يحدث لي. لا بد من أسلوب خاص للتعامل مع الهجر، وكانت هي تتحلى بهذا الأسلوب.

كنت أستعد للسفر في رحلة عمل، في ذلك الخريف، عندما بحث عني برونو في تورينو. كانت المرة الأولى التي سأذهب فيها إلى الهيمالايا، وكنت شديد الانفعال. عند سماعي لصوته على الهاتف اندهشت، لأننا نحن الاثنان لا نفضل هذا الجهاز، وأيضًا لأنني كنت بعيدًا تمام البعد بذهني عما يحدث هناك.

مكتبة

تحدث مباشرةً في الموضوع، كانت لارا قد عادت للتو لزيارته. لارا؟ فكرت. لم نتقابل منذ تلك الأيام التي قضيناها في الجبل. الآن صعدت هي إلى هناك بمفردها، كانت تريد أن تزور المرعى الجبلي، وتَعرِف أكثر عن مشروعاته في العمل. قص عليها برونو أنه في الربيع سيفتح مؤسسة زراعية، وكان ينوي أن يبتاع ثلاثين بقرة وألا يبيع الحليب لأي متجر، ولكن يقوم بإنتاج الجبن كما ينبغي، وأنه سيحتاج بالتأكيد إلى أن يستعين بأحد. وكان هذا ما تأمله هي، المكان يعجبها، فقد كبرت وسط الأبقار، وقدمت نفسها على الفور لهذا العمل.

فرح برونو جزئيًا ولكن شعر بالقلق أيضًا. لم يكُن يفكر في وجود امرأة. عندما سألني رأيي قلت له: أعتقد أنها يمكنها أن تقوم بذلك بالتأكيد، فهي عنيدة.

قال برونو: أجل فهمت هذا.

- ماذا إذًا؟

- ما لم أفهمه هو كيف هو الأمر بينكما.

قلت: آه، لا أعرف. لم أرها منذ شهرين.

- هل تشاجرتما؟

- لا، لا يوجد شيء بيننا، سأكون سعيدًا إذا أتت للعمل معك.

- هل أنت متأكد؟

- بالتأكيد، لا توجد أي مشكلة.

t.me/ktabpdf

- حسنٌ إذًا.

حياتي، وتمنى لي رحلة سعيدة. فكرت: يا له من رجل من أزمنة قديمة. من الآن يطلب الإذن ليفعل ما هو على وشك عمله؟ عندما أغلقت الخط، كنت أعرف بالفعل كل ما سيحدث بعد ذلك، وكنت سعيدًا من أجله، وكنت أيضًا سعيدًا من أجلها. ثم توقفت عن التفكير في برونو، ولارا، وأي شخص آخر، وبدأت في إعداد حقيبة ظهري لأرحل إلى الهيمالايا.

كانت الرحلة الأولى إلى نيبال، رحلة عبر الزمن بالنسبة إليَّ. على بعد رحلة مدتها يوم بالسيارة من كاتماندو، وعلى بعد أقل من مائتي كيلومتر من الزحام، بدأ وادٍ ضيق، غير مستوٍ، ومليء بالأشجار، به نهر لا يُرى ولكن يُسمع صوت هديره في العمق. كانت القرى مبنية على ارتفاع ألف متر إلى أعلى، حيث المنحدرات تقل حِدَّة في ضوء الشمس. كانت تربط بينها طرق للبغال مصنوعة من منحدرات حادة، وجسور ضيقة من الحبال، معلقة على الجداول التي كانت تقطع جوانب الوادي كالأنصال. حول القرى، كانت كل الجبال مغطاة بشرفات وحقول الأرز، ويشبه المنظر سلمًا ذا درجات نصف دائرية، تحدها أسوار جافة منخفضة ومقسمة إلى آلاف الممتلكات. كان أكتوبر هو موسم الحصاد، وفي أثناء صعودي كنت أراقب الفلاحين يعملون، والنساء يحصدنه راكعات في الحقول، والرجال يضربون السنابل في الفناء، ليفصلوا الحبوب عن القش. يُجفف الأرز على أنسجة، حيث توجد نساء أخريات، أكبر سنًا، ينخلنه بعناية.

مكتبة

أما الصبية فقد كانوا في كل مكان. رأيت اثنين منهم يحرثان حقل كأنهما يلعبان وهما يدفعان ثورين نحيفين بصراخهما وضربات عصًا، تذكرت عصا برونو الصفراء عندما تقابلنا في المرة الأولى.

هو أيضًا كا سيحب نيبال. هنا ما زالت لديهم محاريث خشبية، وأحجار النهر لسن المناجل، وسلال الخوص التي يحملونها على ظهورهم. وإن كنت أرى أحذية رياضية في أقدام الفلاحين، ومن منازلهم الصغيرة كنت أسمع أصوات الراديو والتلفاز، ولكن بدا لي أنني وجدت نموذجًا حيًا لحضارة الجبل التي اندثرت لدينا. لم أعثر على أي حطام طوال الطريق.

كنت أصعد إلى الوادي مع أربعة ألبيين إيطاليين آخرين، قادمين مباشرةً من «أنابورنا». كنت سأشاركهم خيمتهم أنا وآلة التصوير الخاصة بي، لبضعة أسابيع. كان عملًا جزيل الأجر، وبدا لي منذ بدايته كضربة حظ. تملؤني بالفضول فكرة أن أصور فيلمًا تصويريًّا عن حياة الألب، وأن أرى ماذا يمكن أن يحدث لمجموعة من الرجال في الظروف القصوى. ولكن ما أكتشفه بجوار معسكرنا الرئيسي كان يجذبني أكثر. وقررت بالفعل أن أتوقف، بعد مهمتي، وأن أتجول في مستويات الجبل المنخفضة بمفردي.

في اليوم الثاني للمسيرة، ظهرت، في نهاية الوادي، قمم الهيمالايا. عندئذٍ رأيت كيف كانت الجبال في بداية العالَم. جبالًا أبكارًا، مقطوعة بحدة، تبدو كأنها قُطعت للتو لتنضم للخليقة، لم تتآكل بمرور الزمن. كان ثلجها يضيء الوادي من على ارتفاع ستة أو

t.me/ktabpdf

سبعة آلاف متر. تندفع شلالات المياه من مرتفعات عالية وتحفر أوجه الصخور، وهي تحمل من منحدراتها طبقات من الطوب الأحمر وتلقي به في الأنهار. هناك في الأعلى، غير مبالية بما يحدث في الأسفل، تطل حقول الجليد على كل شيء. من هناك تأتي المياه، كما قال لي ذلك السيد ذو الشارب الأبيض. في نيبال أيضًا لا بد أنهم يعرفون هذا جيدًا، إذ دعوا اسم جبلهم على اسم إلهة الحصاد والخصوبة. بطول الممر كانت المياه في كل مكان، مياه الأنهار، والنافورات، والقنوات، ومياه الأحواض التي تغسل فيها النساء الملابس، والمياه التي أحب رؤيتها في الربيع وهي تروي حقول الأرز وتحول الوادي إلى عشرات المرايا.

لا أعرف إذا لاحظ متسلقو الألب الذين كنت أصعد معهم هذه الأشياء. كانوا متعجلين في أن يتركوا خلفهم القرى وأن يزرعوا الكلابات ومغارس الثلج في ذلك الجليد اللامع هناك في الأعلى، ولكنني لم أشعر بهذا. كنت أسير بين الحمالين، وهكذا أستطيع أن أسألهم ذلك الذي لا أفهمه: نوع الخضار المزروع في البساتين، نوع الخشب الذي يحرقونه في المواقد، ولمن تلك المعابد التي نقابلها طوال الطريق. في الغابات لم تكُن هناك صنوبريات ولا لاركس، ولكن أشجار غريبة ملتوية لم أستطع التعرف عليها حتى قال لي أحد الرجال إنها أشجار الرودندرون. رودوندرونيات! الشجرة المفضلة عند أمي لأنها تزهر فقط لأيام قليلة، في بداية الصيف، وتصبغ الجبل بألوانها الوردية والزهرية والبنفسجية، كانت في نيبال أشجارًا ترتفع إلى خمسة أو ستة أمتار، ذات لحاء أسود متقشر في حراشف، والأوراق الزيتية

مكتبة

الشبيهة بأوراق اللوري. وفي أعلى أكثر، عندما انتهت الغابة، ما رأيته لم تكُن نباتات الصفصاف أو العنبر، بل عيدانًا من قصب البامبو. بامبو! فكرت. بامبو على ارتفاع ثلاثة آلاف متر! مرت مجموعة صبية يحملون على ظهورهم حزمًا من العيدان المتأرجحة. كانوا يبنون بها الأسقف في القرية، يقطعونها طوليًا ويضعون بالتبادل الجزأين، واحدة محدبة والأخرى مقعرة، حتى تجري من فوقها الأمطار في موسم الفيضان. كانت الجدران من الحجارة، مطلية بالطين. تعلمت كل شيء بالفعل عن منازلهم.

يضع الحمالون حجرًا صغيرًا أو أحد البراعم التي جمعوها من الغابة في كل واحد من تلك المعابد، ونصحوني بأن أفعل مثلهم. دخلنا في أرض مقدسة، ولذلك، فمن هنا إلى ما فوق، ممنوعًا قتل أو أكل الحيوانات. عندئذٍ لم أرَ أي دجاج حول المنازل، ولا ماعزًا في المراعي. كانت توجد حيوانات أخرى برية، تتمشى على الجروف، ذات شعر طويل يصل إلى الأرض: أغنام الهيمالايا الزرقاء، ذكر لي هذا أحدهم. جبل بأغنام زرقاء، وقرود تشبه قرود البابون، تراقبنا من خلف عيدان البامبو، وفي ضوء الشمس تُرى أنواع ظلال الزواحف المختلفة وهي تتحرك ببطء. ومع ذلك شعرت بأنني في منزلي. حتى هنا، قلت لنفسي، حيث تنتهي الغابات ولا يتبقى شيء سوى العشب والصخور، أشعر بأنني في منزلي. هذا هو الارتفاع الذي أنتمي إليه، وأشعر فيه بأنني في أفضل حالاتي. كنت أفكر في هذا عندما خطوت على أول حقل الثلج.

t.me/ktabpdf

عدت إلى «غرانا» في العام التالي، ومعي خيط من أعلام الصلوات وعلقته بين شجرتي لاركس، بحيث يمكنني أن أراه من نافذة المنزل. كانت أعلامًا زرقاء وبيضاء، حمراء وخضراء، وصفراء. الأزرق للسماء، والأبيض للهواء، والأحمر للنار، والأخضر للماء، والأصفر للتراب، وكانت ظاهرة في ظلال الغابة. كثيرًا ما أنظر إليها في فترة ما بعد الظهيرة، وهي تحاول أن تتوافق مع رياح الألب وترقص بين فروع الأشجار. الذكريات التي لدي من نيبال مثل تلك الأعلام، حية، ودافئة، حتى إن جبالي القديمة الآن بدت منعزلة أكثر من أي وقت مضى. أخرج لأتمشى ولا أرى شيئًا سوى خرائب وحطام.

إلا أن شيئًا جديد كان يحدث أيضًا في «غرانا». أصبح برونو ولارا معًا منذ فترة بالفعل، ولم يحتاجا إلى أن يقصا عليَّ كيف صارت الأمور. بدا لي هو أكثر جدية من ذي قبل، كما يصبح الرجال أحيانًا عندما تصل امرأة إلى حياتهم. أما هي، فعلى العكس، تغيرت إلى الأسعد، طرحت عنها أتربة المدينة مع مشاعر الإحباط التي أتذكرها، والتي لم أعد أرى منها أي أثر. تعالت ضحكتها واحمر لون جلدها من الحياة في الهواء الطلق. كان برونو يعشقها. ها هي ذي نسخة أخرى لم أكن أعرفها من صديقي. على مائدة الطعام، في أول أمسية، بينما أحكي عن رحلتي، لم يتوقف عن لمسها، والتربيت عليها، وأن ينتهز كل فرصة ليدع يده على ساقها أو على ظهرها. حتى وهو يتحدث معي يلمسها طوال الوقت. كانت لارا تبدو أقل قلقًا، وأكثر ثقة في نفسها. تكفيها إيماءة أو نظرة طمأنينة ليس إلا، وكان كل شيء يُختزل في: **هل أنت هنا؟ أجل أنا هنا. فعلًا؟ قلت لك أجل.** فكرت: من الجميل أن

مكتبة

يوجد العشاق في الحياة، ولكن بداخل حجرة مغلقة، يشعرونك بأن ما يحدث مُبالغ فيه.

وخلال ذلك الشتاء لم يسقط كثير من الثلج، فقرر برونو أن يذهب إلى المرعى الجبلي، أو إلى الجبل كما يقول هو، في أول يوم سبت في شهر يونيو/ حزيران.

ساعدته في ذلك اليوم. كان قد ابتاع ثمانٍ وعشرين من أبقار الألبان، جميعها حبلى عندما أنزلها من شاحنة نقل الماشية في ميدان «غرانا». كانت عصبية من الرحلة، وأخذت تجري على المزالق وهي تجأر وتنغز بعضها البعض بقرونها. كان يمكن أن تهرب، لا أحد يعرف إلى أين، إن لم يكُن برونو، وأمه، ولارا وأنا على استعداد لها حول الميدان، أحطنا بها وهدأناها. رحلت الشاحنة. وبالاشتراك مع كلبين أسودين من سلالة رعاة غرانا، بدأنا نصعد المعبر. برونو على رأس القافلة ينادي: أوه، أوه، أوه! إيه، إيه، إيه!، وأمه ولارا في الصف، وأنا في المؤخرة لا أفعل شيئًا سوى الاستمتاع بالمشهد. كان الكلبان يعرفان عملهما حق المعرفة وكانا يجريان ليعيدا الأبقار التي تشرد، وهما ينبحان ويعقرانها في جانبها حتى تعود مرة أخرى إلى المجموعة. كان نباح الكلبين، وخوار الأبقار المعترض، وأصوات الأجراس المرتفعة تغطي على أي صوت آخر، وبدت لي كأنني أحضر عرضًا في كرنفال، أو عملية إقامة ميت. تسلق القطيع الوادي وعبر الأكواخ المهدمة، والجدران التي خلعها العليق والجذوع الرمادية لأشجار اللاركس التي سقطت، كأنه الدماء التي تعاود الضخ من

t.me/ktabpdf

جديد في عروق جسد ما، فتعيده إلى الحياة. كنت أسأل نفسي إذا كانت الثعالب والماعز، التي بالتأكيد تراقبنا من الغابة، تستطيع أن تشاركني، بطريقتها، في الإحساس الاحتفالي الذي أشعر به أنا.

في أثناء الصعود اقتربت مني لارا، لم تسنح لنا فرصة من قبل للتحدث بمفردنا، أنا وهي، ولكن أعتقد أن كلينا كان يرى أننا نحتاج إلى هذا. لا أعرف لماذا اختارت بالتحديد هذه اللحظة التي فيها لا بد من الصراخ بالكلمات في الأتربة التي تحيط بنا. ابتسمت لي وقالت: من كان يمكن أن يتوقع هذا منذ عام؟

فكرت، منذ عام أين كنا؟ آه، بالفعل، ربما في أحد البارات في تورينو، أو ربما في الفراش في منزلها.

سألتها: هل أنتِ سعيدة؟

قالت هي: جدًّا. وابتسمت من جديد.

قلت لها: إذًا فأنا أيضًا سعيد.

وكنت أعلم أننا لن نعاود التحدث في هذا الموضوع مرة أخرى.

وفي المراعي في تلك الفترة أزهرت الهندباء. كانت الزهور كلها تتفتح معًا في الصباح الباكر، كأن فرشاة من الأصفر المضيء غطت الجبل كله، وكأن الشمس نفسها تتدفق فوقه. أحبت الأبقار تلك الزهور الحلوة، وبمجرَّد أن وصلت انتشرت في المرعى كأنها في مأدبة. في الخريف انتزع برونو كل الأعشاب الضارة التي غطته، وأصبح من جديد له شكل الحديقة الجميلة.

مكتبة

سألته أمه: ألن تضع السور؟

قال هو: غدًا سأضعه، أما اليوم سأتركها لتحتفل.

اعترضت هي: ولكنها ستدمر العشب.

قال برونو: لا، لن تدمر أي شيء، لا تقلقي.

هزت أمه رأسها. سمعتها تنطق عدد كلمات في ذلك اليوم أكثر من كل الأعوام التي عرفتها فيها. صعدت معنا وهي تعرج، بقدم يابسة، تجرها بعض الشيء، ولكن بخطوة جيدة. لم أستطع أن أفهم كم هي نحيفة، كانت تختفي داخل ملابسها الواسعة وتنظر إلى كل شيء، تراجع كل شيء، تنصح وتنتقد، حتى يصبح كل شيء على أكمل وجه.

تبدو الأكواخ الثلاثة كأنها عادت لزمن مضى. منزل، وإسطبل ومخزن بالجدران والأسقف الحجرية، كلها مبنية بفن، حتى تضم بداخلها أعمال مزرعة حديثة. دخل برونو إلى المخزن وعاد ومعه زجاجة نبيذ أبيض، وتذكرت أنا ما فعله عمه منذ أعوام كثيرة مضت، فهو الآن سيد المنزل. لم يكُن هناك ما نجلس عليه. قالت لارا إنهم سيبنون مائدة جميلة ليتناولوا عليها الغداء في الهواء الطلق، ولكن علينا أن نحتفل الآن على أقدامنا، أمام باب الإسطبل الضخم، ونحن نراقب الأبقار التي بدأت تعتاد الجبل.

t.me/ktabpdf

مكتبة

عشرة

كان برونو يصر على حلب الأبقار يدويًّا. بالنسبة إليه هذه هي الطريقة المناسبة لتلك الحيوانات الرقيقة، التي تتعصب وتفزع من أي شيء. يستغرق نحو خمس دقائق ليحصل على خمسة لترات من الحليب من كل واحدة منها: توقيتًا حسنًا ولكنه يعني أيضًا اثنتى عشرة بقرة في الساعة أو ساعتين للقطيع كله. كان ذلك يجعله يستيقظ مبكرًا في الصباح قبل طلوع الشمس، وليس هناك عطلة السبت أو الأحد في المرعى، ولم يعد هو يتذكر ماذا كانت تعني متعة النوم حتى وقت متأخر، أو البقاء أسفل الغطاء مع فتاته. إلا أنه كان يحب هذا الطقس، ولم يكُن ليتركه لآخرين، كان يقضي الساعات بين الليل والصباح في دفء الإسطبل، وهو يحاول إيقاظ ذهنه أيضًا من النوم بينما يعمل، ويحلب الأبقار والذي كان بالنسبة إليه بمثابة إيقاظها واحدة تلو

t.me/ktabpdf

الأخرى بأن يربت عليها، حتى تبدأ إدراك رائحة الحشائش وغناء العصافير وتبدأ في التحرك.

كانت لارا تأتي إليه في السابعة تحضر له القهوة وبعض البسكويت. وكانت هي من يأخذ القطيع إلى المراعي مرتين يوميًا. يسكب برونو المائة وخمسين لتر حليب مع سابقاتها من الأمسية السابقة، يرفع القشدة التي طافت إلى السطح في أثناء الليل، ثم يشعل النار أسفل الغلاية ويضيف المنفحة، ونحو الساعة التاسعة تكون العجينة جاهزة، لتُصفى بالأنسجة ولتُشكل في القوالب الخشبية التي في مجملها خمسة أو ستة أشكال، ومن لترات الحليب الثلاثمائة كان يخرج ليس أكثر من ثلاثين كيلوغرامًا من جبن التوما.

كانت هذه هي المرحلة الغامضة بالنسبة إلى برونو، لم يكُن يعرف قط كيف ستكون النتيجة، إذا كان الجبن سيتكون أم لا، وهل سيصبح جيدًا أم سيئًا، كان هذا يبدو له كعملية كيميائية لا يمكنه التحكم فيها. فهو يعرف فقط كيف يعامل الأبقار جيدًا، ويقوم بكل جزء من العملية كما تعلمها تمامًا. بالقشدة كان يصنع الزبد، ثم بعد ذلك يغسل المرجل ومخضات الحليب والدلاء وأسطح العمل، وفي النهاية الإسطبل، ويفتح النوافذ على مصاريعها وهو يدفع الروث إلى البالوعات.

في ذلك الوقت يكون النهار قد انتصف. يأكل شيئًا ما، ثم يلقي بنفسه في الفراش لساعة، يحلم في أثنائها بأن العشب لا ينمو، أو بأن الأبقار لا تدر حليبًا، أو أن الحليب لا يتخثر، وينهض بفكرة أن يبني

مكتبة

سياجًا للعجول، أو أن يحفر قنوات للصرف حيث أغرقت الأمطار المرعى. وفي الساعة الرابعة تعود الأبقار من جديد إلى الإسطبل لحلبها مرة ثانية، وفي السابعة تأخذها لارا مرة أخرى إلى الخارج، وعندئذٍ تتولى هي أمر كل شيء، ولا يكون هناك مزيد من العمل، ويبطئ إيقاع العمل في المزرعة ويدخل في هدوء المساء.

وفي ذلك التوقيت كان برونو يحكي لي تلك الأشياء، ونحن نجلس في الخارج في انتظار الغروب، في رفقة نصف لتر من النبيذ الأحمر. كنا نراقب تلك المراعي الخلفية التي ذهبنا إليها يومًا من الأيام بحثًا عن الماعز. وفي ساعة الغسق ترتفع نسمة باردة من عمق الوادي، تكون أبرد ببضع درجات، تحمل معها رائحة العشب والأرض الرطبة، وربما أيضًا وعل يتجول على حدود الغابة. يشم رائحته أحد الكلبين ويترك القطيع ليطارده، عادةً يفعل ذلك واحد من الاثنين، ولكن لا يكون الكلب نفسه في كل مرة، كأنهما اتفقا في ما بينهما على تبادل المطاردة والحراسة. كانت الأبقار هادئة الآن. تصلنا أصوات الأجراس بندرة وبأقل طبقة صوتية.

لم تكُن لدى برونو الرغبة في أن يفكر في المشكلات العملية معي، لم يتحدث معي قط عن الديون والفواتير، والضرائب والفوائد على القرض. يفضل أن يحكي لي عن أحلامه، أو عن شعوره بالحميمية الجسدية بينما يحلب الأبقار، أو عن غموض المنفحة.

- إن المنفحة هي قطعة من معدة العجل -شرح لي- تخيل: تلك المعدة التي يحتاج إليها العجل ليهضم حليب أمه، نحن نأخذها

t.me/ktabpdf

ونستخدمها لنصنع الجبن. شيء طبيعي أن نقوم بذلك، أليس كذلك؟ ولكنه أيضًا بشع. ولكن بلا تلك القطعة من المعدة، لن يتكون الجبن.

قلت: تُرى من اكتشف هذا.

- الرجل البري.

- الرجل البري؟

- بالنسبة إلينا هو الإنسان القديم الذي كان يعيش في الغابات. شعره طويل، له لحية وتغطيه أوراق الأشجار. من حين إلى آخر كان يدور في القرى وكانت الناس تخشاه، ولكنهم يتركون له في الخارج شيئًا ليأكله، ليشكروه لأنه علمنا استخدام المنفحة.

- رجل يشبه الشجر؟

- جزء حيوان، وجزء إنسان، وجزء شجرة.

- وفي اللهجة الدارجة ماذا تسمونه؟

- Omo servadzo

كانت الساعة تقترب من التاسعة من تلك الأمسية، وفي المرعى كانت الأبقار تشبه الظلال، وتشبه لارا الظل أيضًا، وهي ملتحفة بشالها الصوف. تقف بثبات، ترعى القطيع. إذا ابتعدت بقرة بعيدًا مما يجب كانت تناديها باسم، وينطلق الكلب ليحضرها دون الحاجة إلى أوامر.

سألته: وهل توجد أيضًا المرأة البرية؟

مكتبة

قرأ برونو أفكاري وقال: إنها بارعة، وقوية، ولا تتعب قط. هل تعرف ما يؤسفني؟ أننا ليس لدينا الوقت لنقضيه معًا كما أتمنى. يوجد عمل كثير للغاية. أستيقظ في الرابعة فجرًا، وفي المساء أنعس في أثناء تناول العشاء.

قلت: الحب جُبل لفصل الشتاء.

ضحك برونو: هذا حقيقي جدًّا. لا يولد كثير من رجال الجبال في الربيع، ولكن جميعهم يولدون في الخريف، مثل العجول.

كانت الإشارة الوحيدة للعلاقة الجنسية التي سمعتها منه على الإطلاق، وسألته: ومتى ستتزوجها؟

– آه، لو كان الأمر بيدي على الفور. إنها هي التي لا تريد أن تتحدث عن الزواج، لا في الكنيسة ولا في البلدية، ولا شيء. إنها أفكاركم يا أهل المدينة، حاول أن تفهم منها.

انتهينا من النبيذ ثم نهضنا لنذهب إلى الإسطبل قبل أن يحل الظلام التام. كانت لارا تجمع القطيع بمساعدة الكلب، وعاد الآخر أيضًا، ظهر فجأة لا أحد يعرف من أين، استدعاه نداء الواجب من صوت الأجراس. وبلا عجلة، كونت الأبقار صفًا يصعد من المرعى ويتوقف في المزود. في الإسطبل وصل كل منها إلى مكانه الليلي. وضع برونو السلاسل على أعناقها، وربطت أنا أذيالها في حبال عالية، حتى لا تتسخ كثيرًا عند رقادها. كانت هناك عقدة تعلمتها بلفة سريعة على الأصابع. أغلقنا الباب الضخم، وذهبنا لنتناول العشاء، بينما بدأت الأبقار تجتر في الظلام.

t.me/ktabpdf

في وقت متأخر عدت إلى البارما على ضوء مصباح أمامي. كان هناك مكان لي أنا أيضًا في المرعى، ودعاني برونو ولارا لأن أمكث هناك، ولكن شيئًا ما دفعني لتحيتهما وأتخاذ الطريق نحو البحيرة، كأنني كنت أحاول الاحتفاظ بالمسافة المناسبة من تلك العائلة الصغيرة، وكان ابتعادي طريقة لاحترامي لهما، وحمايتي لنفسي.

ما كان لا بد أن أحميه هي تلك القدرة على البقاء بمفردي. استلزم الأمر وقتًا طويلًا لأعتاد الوحدة ولأصنع منها مكانًا يمكنني أن أرتاح فيه وأكون بخير، إلا أنني أشعر أن العلاقة بيننا دائمًا صعبة، وهكذا اتجهت إلى المنزل كأنني أستعيد علاقة الثقة بيننا. إذا لم تكُن السماء مغطاة، كان يمكنني أيضًا أن أطفئ المصباح. يكفي ربع القمر والنجوم لأستطيع أن أخمن طريقي بين أشجار اللاركس. لم يتحرك أي شيء في تلك الساعة سوى خطواتي والنهر، الذي استمر في الانهمار والتدفق، بينما الغابة تنام. وفي الصمت يتضح صوته ويمكنني أن أميز بوضوح أصوات كل انحناءة، ومنحدر وشلال وما يعوقها من حياة نباتية، ثم كيف تصبح أكثر حدة بالتدريج فوق الصخور.

ومع الصعود إلى الأعلى يهدأ النهر. وعند تلك النقطة يختفي أسفل الصخور ويجري أسفل الأرض. بدأت أسمع صوتًا أخفت بكثير، صوت الرياح التي تهب في الحوض المائي. تبدو البحيرة كأنها سماء ليلية متحركة، تدفع الرياح الأمواج من شاطئ إلى آخر في تموجات صغيرة، ويظهر وهج النجوم على الماء الأسود بطول خطوط القوى، ينطفئ وينير من جديد، مغيرًا اتجاهه فجأة. مكثت بلا حركة أراقب

مكتبة

تلك التصميمات. بدا لي أنني نجحت في أن أمسك بحياة الجبل قبل وجود الإنسان. لم أكن أزعجه، كنت ضيفًا مُرحبًا به، عندئذٍ عرفت من جديد أنني لن أشعر أبدًا بالوحدة في صحبته.

وفي صباح أحد أيام نهاية شهر يوليو/ تموز، نزلت إلى البلدة مع لارا. عدت منذ برهة من تورينو، وكانت تحمل قوالب التوما الأولى بعد أسابيع من إنضاجها. أخذ برونو بغلًا خصيصًا لهذا، ليس الذكر الرمادي الذي كان ينقل الأسمنت قبل ذلك بأعوام، ولكن انثى ذات جلد أشعث وداكن، أصغر سنًا ومناسبة لحياة المرعى الجبلي. بنى لها خرجًا خشبيًا، وعليه وضع اثني عشر قالبًا من الجبن، تزن في المجمل ستين كيلوجرامًا، الحمولة القيمة الأولى التي تُنقل إلى الوادي.

لحظة تاريخية له ولنا. وبعد أن ثبت الحمولة جيدًا قبَّل لارا، وربت على جانب البغلة وأشار لي قائلًا: بيريو، أنت تعرف الطريق. تبادلنا التحية وذهب ليغسل الإسطبل. ومثل الفترة التي قضيناها في موقع البناء، قرر أن النقل ليس واجبه، فرجل الجبل يمكث في الجبل، وامرأته تتنقل من أعلى إلى أسفل بالأشياء، فهو لن ينزل قبل اللحظة التي فيها سيترك المرعى الجبلي في الشتاء.

دخلنا المعبر في صف هندي، أنا في الأمام، لارا خلف البغلة، وفي النهاية ذلك الكلب، من بين الاثنين، الذي يتبعها في كل مكان. في البداية كان لا بد للبغلة أن تعتاد أولًا على الحمولة فكانت تسير بصعوبة. كان الأمر يتطلب حرصًا أكبر في النزول أكثر من الصعود، معها، لأن الحمولة تتذبذب على أقدامها الخلفية، وفي المنحدر لا بد

t.me/ktabpdf

من مساعدتها بإمساك الحبل المربوط حول رقبتها بقوة. ثم بعد ذلك، في نهاية المرعى الجبلي، يعبر الطريق النهر ثم ينبسط. كان هو المكان الذي نظرت فيه إلى برونو في إحدى المرات وهو يبتعد على دراجته الآلية، قبل أن يختفي عن نظري لكل تلك الأعوام. من هناك يمكننا أنا ولارا أن نكمل الطريق متجاورين، والكلب يدخل ويخرج من الغابة يطارد الحيوانات البرية، والبغلة تتبعنا على بعد خطوة. وأصبحت أنفاسها وضجيج حوافرها وجودًا هادئًا خلف ظهرينا.

قالت لارا: ماذا يعني عندما يناديك هكذا؟

- هكذا كيف؟

- بيريو.

- آه، يرغب في أن يذكرني بشيء على ما أعتقد. إنه الاسم الذي أطلقه عليَّ ونحن صبية.

- وماذا يرغب في تذكيرك؟

- هذا الطريق. كم من المرات سرت فيه صعودًا ونزولًا! في أغسطس/ آب كنت آتي إلى هنا من «غرانا» كل الأيام، وكان هو يترك المرعى ويهرب معي. ثم يتلقى كثيرًا من الركلات من عمه، ولكن لم يكُن يهمه. كان هذا منذ عشرين عامًا، وها نحن الآن نسير من هنا لنأخذ التوما التي أعدها إلى الأسفل. تغير كل شيء، ولم يتغير شيء.

- وماذا تغير أكثر؟

مكتبة

- المرعى الجبلي بالتأكيد. والنهر. كان مختلفًا يومًا ما. هل تعرفين؟ كنا نلعب هناك في الأسفل.

قالت لارا: نعم، أعرف، لعبة النهر.

التزمت الصمت لبرهة. وأنا أفكر في المعبر، تذكرت تلك المرة الأولى مع أبي، عندما ذهبنا لنتعرف إلى عم برونو. وهكذا، بينما ننزل أنا ولارا، تخيلت أنني أرى من الماضي صبيًا يسير أمام أبيه. كان الأب يرتدي كنزة حمراء وبنطلونًا قصيرًا، ينفخ كالمنفاخ، ويدفع ابنه ليسير.

يومك سعيد! أتخيل أنني أقول لهما هذا. يجري الصبي! تُرى هل سيتوقف أبي ليصافح هذا الرجل الذي يهبط من المستقبل، ومعه فتاة، وبغلة، وحمولة توما؟

قالت لارا: برونو قلق عليك بعض الشيء.

- عليَّ أنا؟

- يقول إنك دائمًا بمفردك. يعتقد أنك لست بخير.

أخذت أضحك: وهل تتحدثان عن هذا في ما بينكما؟

- من حين إلى آخر.

- وأنتِ ماذا ترين؟

- أنا لا أعرف.

فكرت بعض الشيء، ثم أعطتني إجابة أخرى: أنت الذي اخترت هذا، وإنك إن آجلًا أم عاجلًا ستتعب من البقاء وحدك وستبحث

t.me/ktabpdf

عن شخص ما. ولكن لأنك أنت الذي اخترت أن تعيش هكذا، إذًا أنت بخير.

قلت: صحيح.

ثم لأعيدها إلى الضحك مرة أخرى، أضفت: ولكن أتعلمين ماذا حكى لي عنكِ؟ أنه طلب منكِ أن تتزوجيه ولكنكِ لا ترغبين في التحدث في هذا.

أجابت وهي تضحك: ذلك المجنون؟ لن أتزوجه أبدًا!

- لماذا؟

- من تتزوج شخصًا لا يرغب في النزول من فوق الجبل؟ شخصًا أنفق كل شيء يملكه ليمكث هناك فوق ويصنع الجبن؟

سألت: هل الأمر بهذه الخطورة؟

- لتنظر بنفسك. فنحن نعمل منذ شهر ونصف وهذا كل ما لدينا.

قالت وهي تشير في ما وراء ظهرينا.

أصبحت جادة. ولفترة طويلة مكثت صامتة تفكر في ما يقلقها.

كنا تقريبًا وصلنا عندما قالت: أحب كثيرًا ما نفعله. حتى عندما تمطر طوال النهار وأذهب لأرعى الأبقار تحت المياه، فهذا الأمر يجعلني هادئة جدًّا، يبدو لي أنني أستطيع التفكير في الأشياء وكم منها لم يعد بهذه الأهمية. وهو وضع مجنون إذا نظر المرء إلى مسألة النقود. ولكن الآن لا أريد حياة أخرى، أريد هذه الحياة.

مكتبة

رأينا شاحنة صغيرة بيضاء في ميدان «غرانا»، بين جرار وخلاط أسمنت، وسيارتي التي تقف هناك منذ شهر. كان هناك عاملان يحفران خندقًا بجوار الطريق. ينتظرنا رجل، لم أره قط من قبل، عمره نحو خمسين عامًا، ولم يكُن هناك أي شيء غير معتاد في المشهد، سوى شعورنا نحن بغرابة رؤية السيارات والآلات والأسفلت والملابس النظيفة بعد كل تلك الأيام في الجبل مع الماشية.

ساعدت لارا لإنزال الجبن من الخرج وفحصها الرجل كل واحدة منها، وهو يختبر القشرة، ويشمها، ويعطي بعض الضربات بعقلة أصابعه ليرى إذا كان بداخلها أي فقاعات هوائية. بدا عليه الرضا. في الشاحنة لديه ميزان، وضع عليه الجبن ووزنها، وسجل الوزن في سجل وسلم مبلغًا من المال وفاتورة إلى لارا، سُجل عليها أول ربح لهما. نظرت إلى وجهها وهي تنظر إلى هذا الرقم، ولكن لم أستطع أن أرى أي رد فعل. ودعتني من نافذة السيارة الصغيرة، ثم اتجهت إلى المعبر مع البغلة والكلب، واختفوا في الغابة، أو استعادت الغابة مخلوقاتها.

في تورينو تخلصت من الشقة التي سكنتها في الأعوام العشرة الأخيرة. أصبحت حملًا زائدًا لأنني لم أعُد أستعملها إلا قليلًا. أتذكر جيدًا ماذا يعني أن أذهب وأعيش فيها، عندما كانت المدينة تبدو مليئة بوعود المستقبل. لم أكن أعرف إذا كنت أنا من خدع نفسي أو أنها هي التي لم تُوفِ بوعودها، ولكن بتفريغ منزل في يوم واحد مما امتلأ به في عشر سنوات، وإخراج الأدوات التي أخذتها بداخلي بطريقة

t.me/ktabpdf

عشوائية، كنت كمن يسترجع مرة أخرى خاتم الخطوبة، ويستسلم للانسحاب.

أجر لي أحد الأصدقاء حجرة بسعر زهيد لفترات وجودي في تورينو. حملت صناديق أخرى في السيارة وأخذتها لأمي في ميلانو. من الطريق السريع ظهر جبل «المونتي روزا» من خلف الضباب كالسراب، وفي المدينة كان الحر يسيح الأسفلت، وبدا لي أنني أنقل بلا فائدة أشياء من مكان لآخر، وبأنني أصعد إلى أعلى ثم أهبط إلى أسفل على درج المبنى لأكفر عن ذنب ما اقترفته في الماضي.

في تلك الفترة كانت أمي في «غرانا»، وهكذا قضيت أكثر من شهر في شقتنا القديمة، أدور على مكاتب المنتجين الذين أعمل معهم في الصباح، وفي المساء أراقب حركة السيارات من النافذة، متخيلًا نهرًا نحيلًا مدفونًا أسفل الطريق العريض. لم يكُن هناك أي شيء ينتمي إليَّ، ولم أشعر بأنني أنتمي إلى شيء. أحاول أن أُدخل سلسلة من الأفلام الوثائقية عن الهيمالايا، يمكنها أن تبقيني بعيدًا لمدة طويلة، حيز الإنتاج. استغرق الأمر كثيرًا من الاجتماعات غير المثمرة، قبل أن أجد أحدًا يثق بي، وفي النهاية وفرت المبلغ الذي أحتاج إليه ليغطي نفقات الرحلة فقط، وقليلًا من النفقات، ولكنه كان يكفيني.

عندما صعدت من جديد إلى «غرانا»، في سبتمبر، كان الهواء باردًا، والدخان يتصاعد من بعض مداخن البلدة. نزلت من السيارة وشعرت بأن رائحتي لا تعجبني، وهكذا في بداية المعبر غسلت وجهي ورقبتي في النهر، وفي الغابة دعكت يدي بفرع لاركس أخضر. كانت

مكتبة

هذه هي طقوسي المعتادة، ولكنني أعرف أن الأمر يستغرق بضعة أيام لأخلع عني، حقًا، رائحة المدينة.

وعلى طول الوادي المتسع بدأت المراعي تتحول إلى اللون الأصفر، وأراضي برونو، في ما وراء الجسر المصنوع من الألواح، والنهر، كلها سحقتها حدوات الماشية، ومن هناك إلى الأعلى انتهى العشب، مقصوصًا تمامًا ومسمَّدًا، لا تزال هناك بعض المناطق العشبية تكشطها بعض البقرات في أيام الطقس السيِّئ، عندما تثيرها رائحة العواصف المتوقَّعة. كنت أشتمها الآن في الجو، مع رائحة السماد القوي ودخان الخشب الذي يتصاعد من أكواخ برونو. كانت الساعة التي فيها يصنع الجبن، وهكذا قررت أن أنسحب مباشرةً وأن أنزل لأزوره في وقت آخر.

وعندما تجاوزت الإسطبل سمعت صوت الأجراس، ورأيت لارا ترعى القطيع في أعلى، بعيدًا عن المعبر، على المنحدرات حيث بقيت الأعشاب الأخيرة، حييتها بإشارة بيدي، وبادلتني هي التحية، إذ رأتني بالفعل من فترة، وهي ترفع المظلة المغلقة. بدأت النقاط الأولى بالفعل في السقوط، وفي أعقاب كل تلك الليالي التي أقلقها الحر والأحلام المزعجة، أشعر بالإجهاد يجتاحني، أريد فقط أن أصل إلى البارما، أشعل المدفأة وأنام. لا يمكن لشيء سوى النوم الطويل في مغارتي داخل الجبل أن يحسن من حالتي.

ثم حلت ثلاثة أيام من الضباب لم أبتعد خلالها كثيرًا عن المنزل، أمكث أمام النافذة لأراقب الطريقة التي بها ترتفع السحب من

t.me/ktabpdf

الوادي الكبير وتندس في الغابة، وهي تعبر بين أفرع أشجار اللاركس وتظلل على ألوان أعلام الصلاة حتى تبتلعها بالكامل. في المنزل يطفئ الضغط المنخفض النار في المدفأة، ويخنقني بالدخان بينما أقرأ أو أكتب. عندئذٍ أخرج في الضباب وأفرد رجلي سيرًا حتى البحيرة، وهناك ألقي بحجر يختفي حتى قبل أن ينتج ارتطامه الشبحي، أتخيل مدارس أسماك صغيرة فضولية تسبح حوله. وفي المساء أستمع إلى بعض من محطات الراديو السويسري أو غيرها، وأنا أفكر في ما يعده هذا العام لي. كانت فترة إعداد مناسبة للمشروعات الكبيرة.

في اليوم الثالث سمعت دق على بابي، وكان برونو. قال: إذًا أنت قد عدت بالفعل. هل تأتي معي إلى الجبل؟

– الآن؟ سألته، نظرًا إلى أنه في الخارج غطى اللون الأبيض كل شيء. تقريبًا كان منتصف النهار، ولكن يمكن أن يكون أي ساعة أخرى.

– تعالَ، سأطلعك على شيء.

– ماذا عن الأبقار؟

– أتركها هناك الأبقار. لن تموت.

هكذا رحلنا ونحن نصعد المنحدر، طوال المعبر الذي يقود إلى البحيرة العليا. كان برونو يرتدي حذاءه المطاط برقبة، متسخًا بالسماد حتى فخذيه، وفي أثناء سيرنا يقص عليَّ أنه اضطر أن يغوص في السماد ليُخرج بقرة سقطت في الضباب. وضحك. يصعد إلى فوق بسرعة،

مكتبة

حتى إنني تعبت من اللحاق به. قال إن الحية قرصت كلبه، وإنه أدرك ذلك لأنه رآه دائمًا بجوار المياه، يشرب باستمرار من العطش، وعندما فحصه وجد مكان عقرة الحية وبطنه متورمة. ويجر نفسه بطريقة مثيرة للشفقة، وكانت لارا على استعداد أن تضعه فوق البغلة وتأخذه إلى الطبيب البيطري، عندما قالت أم برونو إنه عليهم جعله يشرب أكبر كمية من الحليب يمكنه شربها، الحليب فقط، بلا مياه أو طعام. والآن طاب وأخذ تدريجيًا يستعيد عافيته.

وقال: مع الحيوانات هناك شيء جديد نتعلمه كل يوم. هز رأسه ثم عاود الصعود بخطوته تلك التي كادت تقتلني. وحتى البحيرة الثانية استمر في سرد حكايات عن أبقاره، والحليب، والسماد، والعشب، لأنه في أثناء غيابي حدثت أشياء كثيرة لا بد أن أعرف عنها. كان يفكر في المستقبل، بأنه يمكنه شراء بعض الأرانب والدجاج، ولكن عليه أن يبني سورين جيدين، لأنه توجد ثعالب في المنطقة. ونسور أيضًا. قال، ربما لا يصدق الجميع هذا، ولكن النسر أكثر شراسة من الثعلب مع حيوانات الحظائر.

لم يسألني كيف كان الأمر في تورينو أو في ميلانو. لم يكُن يرغب في معرفة ما قمت به في كل تلك الشهور الماضية. يتحدث عن الثعالب والنسور والأرانب والدجاجات ويتظاهر بأن المدينة لا وجود لها، كالمعتاد، كأنه ليست لي حياة بعيدة عن هنا، تسكن صداقتنا فوق في الجبل، وما يحدث في الوادي لا يجب أن يمسها.

سألته وأنا ألتقط أنفاسي على شاطئ البحيرة الصغيرة: والمزرعة كيف حالها؟

t.me/ktabpdf

هز كتفيه وقال: جيدة.

- والحسابات تسير على ما يرام؟

تجهم، ونظر إليَّ كأنني سألته سؤالًا سخيفًا فقط من أجل أن أفسد عليه يومه. ثم قال: الحسابات تهتم بها لارا. حاولت أن أنظمها، ولكن أعرف أنني لا أجيد هذا.

صعدنا حتى التراكم الصخري في الضباب الكثيف. بلا ممر، سرنا كلٌّ منا في طريقه. لم تكُن الرؤية كافية لنتبع التجمعات الصخرية، وبالفعل كنا نفقدها على الفور، ولكننا تبعنا المنحدرات والغريزة، والخطوط التي يقترحها التراكم الصخري نفسه. صعدنا بلا رؤية ومن حين إلى آخر كنت أسمع أصوات الحصى الذي كان يحركه برونو فوقي أو تحتي، وأدرك أثره وأتبعه، وإذا ابتعدنا كثيرًا أحدنا عن الآخر كان الثاني ينادي: أوه؟ والآخر يجيبه: أوه! ونُعدل من طريقنا كأننا سفينتان في الضباب.

إلى أن، في لحظة ما، أدركت أن الضوء يتغير. الآن يلقي بظلاله على الصخور أمامي. رفعت عيني ورأيت لونًا أزرق على أمواج ضباب يظهر بشكل نادر، وبعد بضع خطوات كنت خارجه. وجدت نفسي فجأة وأنا أنظر في كامل ضوء الشمس، وسماء سبتمبر فوق رأسي وأبيض السحاب المكثف أسفل قدمي. كنا على علو أكثر من الفين وخمسماية متر بكثير. لم تكُن تظهر سوى بعض القمم على هذا الارتفاع كأنها سلسلة من الجزر، نتوءات صخرية لسلسلة مغمورة من الجبال.

مكتبة

رأيت أيضًا أننا كنا بعيدين عن قمة «الغرينون»، أو على الأقل خارج الطريق المعتاد، ولكن بدلًا من أن أعبر الكتلة الصخرية متجهًا نحو الجزء المتفرع، قررت أن أصل إلى ذروة فوقي مباشرةً وحاولت ذلك، وأدركت أن الأمر لم يكُن صعبًا. وبينما أتسلق تخيلت أنني الأول في اكتشافه، وهو شيء يجب أن يُسجَّل في سجلات نادي الألب الإيطالي، مع اسم من قام بهذا الإنجاز: **الذروة الشمالية- الغربية للغرينون، بيترو غواستي، 2008.** ولكن على مسافة قريبة، على الحافة، عثرت على بعض علب اللحم أو السردين الصدئة، من النوع الذي لم يكُن أحد يهتم بأن يأخذه معه مرة أخرى إلى الوادي، فاكتشفت مرة أخرى أن شخصًا ما سبقني.

يفصل وادٍ بين القمة التي كنت عليها وتلك التي للطريق المعتاد، تزداد حدة كلما تقدمت في الصعود. اتخذ برونو هذا الطريق، وعلى المنحدر الحاد رأيته وقد طور طريقة غريبة خاصة به، يستخدم يديه وقدميه ويتسلق على الأربعة بسرعة، ويختار بالغريزة الأماكن الصحيحة ليضع عليها يديه وقدميه، ولم يضع إطلاقًا وزنه كله عليها. أحيانًا يسقط التراب أسفل قدميه أو يديه ولكنه يكون عندئذٍ انتقل إلى مكان آخر، يستمر سقوط الحصى كأنه انهيارات صغيرة تحمل ذكرى عبوره. فكرت: الرجل البري. وصلت إلى أعلى قبله، واستطعت من الذروة أن أراقب بإعجاب أسلوبه الجديد.

سألته: من أين تعلمت التسلق بهذه الطريقة؟

– من الشامواه. مرة شاهدتها وقلت لنفسي: الآن سأجرب هذا أنا أيضًا.

t.me/ktabpdf

- وهل نجحت هذه الطريقة؟

- ما زالت أمامي بعض التعديلات لتحسينها.

- هل كنت تعلم أننا سنصعد فوق السحب؟

- كنت أتمنى ذلك.

جلسنا ونحن نستند إلى كومة من الصخور التي فيها وجدت في إحدى المرات كلمات أبي. نحتت الشمس كل طرف وتجويف في الصخر، وفعلت بالمثل في وجه برونو: أصبحت لديه تجاعيد جديدة حول عينيه، وظلال عظام الخد، خطوط غائرة لا أتذكر أنني رأيتها من قبل. لا بد أن موسم العمل الأول في المرعى الجبلي كان قاسيًا.

وبدت تلك لي اللحظة المناسبة لأتحدث معه عن رحلتي. قلت له إنني في ميلانو استطعت أن أجمع مبالغ تسمح لي بالبقاء على الأقل لمدة عام. كنت أريد أن أتجول في مقاطعات نيبال وأحكي عن الشعوب التي تعيش في تلك الجبال، حيث يوجد كثير جدًّا منها في أودية الهيمالايا، وكلها مختلفة في ما بينها. كنت سأرحل في أكتوبر، بمجرَّد أن ينتهي موسم الأمطار. لدي القليل من النقود ولكن أعرف كثيرًا ممن يعملون هناك، وربما ساعدوني واستضافوني. واعترفت له أنني تركت منزل تورينو، ولم يعد لي منزل هناك الآن ولا أريده، وإذا صارت الأمور على ما يرام في نيبال ربما مكثت هناك أيضًا لفترة أطول.

مكتبة

استمع إليَّ برونو في صمت. عندما انتهيت من الحديث أخذ يفكر لبرهة في معاني كلامي. نظر إلى المونتي روزا وقال: هل تتذكر تلك المرة مع أبيك؟

- بالتأكيد أتذكرها.

- أنا أفكر فيها من حين إلى آخر، أتعرف هذا؟ كان الجليد في ذلك اليوم وصل إلى العمق؟

- لا أعتقد، ربما كان فقط في منتصف الطريق.

- بل أعتقد هذا.

ثم سألني: هل الهيمالايا تشبه هنا بعض الشيء؟

أجبته: لا، لا وجه للشبه.

من الصعب أن أشرح له السبب، ولكن كنت أريد أن أحاول، وأضفت: هل تعرف تلك الآثار الضخمة المحطمة، مثل تلك الموجودة في روما وأثينا؟ تلك المعابد القديمة التي لم يبقَ فيها سوى بعض الأعمدة، وعلى الأرض توجد الحجارة التي كانت أسوارًا. الهيمالايا تبدو كمعبد أصيل، كأنك ستتمكن أخيرًا من رؤية المعبد كاملًا بعد أن عشت حياتك كلها تنظر إلى الأطلال.

ثم ندمت على الفور لأنني تكلمت بتلك الطريقة. أخذ برونو ينظر إلى الجليد فوق السحب وفكرت بأنني في الشهور القادمة سأتذكره بهذا المشهد، كأنه حارس تلك الأكوام من الحطام.

t.me/ktabpdf

ثم نهض، وقال: ساعة الاجترار. هل ستنزل أنت أيضًا؟

أجبت: أعتقد أنني سأمكث هنا قليلًا.

- أحسنت. ومن ذا الذي يريد أن يعود إلى هناك؟

دخل إلى الوادي الذي صعد منه، واختفى بين الصخور. كان هناك لسان من الثلج في أسفل، كله متجه نحو الشمال، وعبر هو التراكم الصخري ليصل إليه، وعلى قمة ذلك الحقل الثلجي الصغير اختبر تماسكه بقدمه. رفع عينه نحوي وحياني، وبادلته أنا التحية بإيماءة كبيرة ليراها من بعيد. لا بد أن الثلج تماسك بشدة، لأن برونو قفز فوقه وسارع الخطى، سار إلى الأسفل في خطوات كبيرة وهو يتزحلق بحذائي العمل، رافعًا ذراعيه ليحافظ على توازنه، وفي لحظة ابتلعه الضباب.

مكتبة

أحد عشر

وُلدت أنيتا في الخريف، مثل رجال الجبل.

لم أكن هناك في ذلك العام، في نيبال أصبحت على اتصال بعالم المنظمات غير الحكومية، وأتعاون مع بعض منها. أصور أفلامي التسجيلية في القرى التي فيها يبنون المدارس والمستشفيات، ويبدؤون مشروعات زراعية أو أعمالًا للنساء، وأحيانًا يبنون معسكرات للاجئي التبت. لم يكُن كل ما أراه يعجبني. لم يكُن المديرون في كاتماندو سوى سياسيين محترفين، ولكن في الجبال نفسها أقابل أناسًا من كل الأنواع: من هيبيز مسنين إلى طلبة يقومون بخدمتهم المدنية العالمية، ومن أطباء متطوعين إلى متسلقي الألب الذين بين رحلة وأخرى يتوقفون ليعملوا كبنائين. حتى تلك لم تكُن إنسانية مُحصنة من الطموح والصراعات حول السلطة،

t.me/ktabpdf

ولكـن كانت المثالية تحيط بكل شيء، وكنت أنا أشـعر بالراحة بين أصحاب النزعة المثالية.

وفي شـهر يونيو/ حزيـران كنت في «موسـتانغ»، هضبـة جافة على حـدود التيبت، مكونة من منازل بيضاء مبنيـة على الصخرة الحمراء، عندمـا كتبت لي أمـي لتقول لي إنهـا صعدت إلى «غرانا»، واكتشـفت أن لارا حبلى منذ خمسـة أشـهر. شـعرت على الفور بأن نداء الواجب يدعوهـا. خلال الصيف كانت ترسـل لي أحدث الأخبار على شـكل تقاريـر طبيـة: في يونيو/ حزيران لوت لارا كاحلهـا أثناء وجودها في المرعـى، واضطرت إلى القفز عليهـا لعدة أيام، وفي يوليو/ تموز، بلون جلدهـا الشـاحب جـدًّا، عانت مـن ضربة شـمس في أثنـاء إعدادها للتبن، وفي أغسطس/ آب أصبحت ساقاها متورمتين وتُعاني آلامًا في الظهـر، وكانت ما زالت تحمل جبن التوما إلى الأسـفل بالبغل يومين في الأسـبوع. كانت أمي تأمرها بأن ترتاح، ولكن لارا لم تكُن تصغي إليهـا. عندمـا اقترح برونو أن يعين عاملًا مكانهـا، اعترضت قائلةً إن البقـرات جميعهـا حبلى أيضًا، وإنهـا لا تحتاج إلى عمل كثير، فبالنسـبة إليها، رؤيتها هادئة بهذه الطريقة تساعدها هي أيضًا على الهدوء.

كنت أنا في كاتماندو، آنذاك، في قلب موسم الأعاصير. في كل مساء تتعـرض المدينة لجلد عاصفة ما. الآن توقفت مواصلاتها المجنونة من دراجـات آلية ودراجات عادية، وحشـود الـكلاب الضالة تبحث لها عن ملجأ أسـفل الأسقف المعلقة، والشوارع نفسها تصبح كأنهار من الوحـل والقمامـة، وكنـت أغلق على نفسي في مكان مـا أو آخر بخط

مكتبة

التليفـون، أمام كمبيوتر عتيـق، وأحاول اللحاق بالأخبار الأخيرة. لم أكن أعلم إذا كنت أوجه إعجابي للارا أكثر، وهي تنتظر طفلها الأول في المرعـى الجبلي، أو لتلك المرأة الأخرى التي تبلغ من العمر سـبعين عامًا، وتصعد لتزورها على قدميها وتصحبها إلى المستشفى كل شهر. وكانت نتيجة أشعة شهر أغسطس/ آب قاطعة بأن لارا ستنجب فتاة. وحتـى الآن تكمل رعـي الأبقار، ببطن كبيرة للغاية تمنع أي حركة في ما عدا السير أمام القطيع، ثم الجلوس أسفل الشجرة لتراقبه.

ثم في آخر يوم أحد من شهر سبتمبر/ أيلول نزلت الأبقار وجلودها مصقولـة ولامعـة، مرتديـة أطواقهـا الجلديـة المطـرزة، وأجراسـها الصاخبـة، إلى الوادي بموكب احتفالي بنهاية الموسـم. وضعها برونو داخل الإسـطبل الذي استأجره لفصل الشـتاء، وعند هذه اللحظة لم يكُن هناك كثير لعمله سوى الانتظار. لا بد أنه قام ببعض الحسابات، على نمط رجـل الجبل الحقيقي، حيث إن لارا أنجبت بعد ذلك بفترة وجيزة، كأن هذا الأمر أيضًا عملًا موسميًا.

أتذكـر أيـن كنـت عندما زفـت إليَّ أمـي الخبر، كنـت في منخفض دولبو، على شاطئ بحيرة تشبه بحيرة الألب بشكل لا يمكن تصوره، محاطـة بغابات مـن الصنوبريات الحمـراء والمعابد البوذيـة الصغيرة، مـع فتاة تعرفـت إليها في كاتماندو. في المدينة، تعمـل في ملجأ للأيتام، ولكـن في تلك الأيام أخذنا عطلة لنذهـب فيها إلى الجبل بمفردنا. في أحد الملاجئ الجبلية، بلا مدفأة على ارتفاع ثلاثة آلاف وخمسمائة متر، وجدرانه لم تكُن سـوى بعض الألواح المطلية بالأزرق، ضممنا كيسا

t.me/ktabpdf

النوم، واحتمينا داخلها. من النافذة نظرت خارجًا إلى السماء المرصعة بالنجوم، وإلى أطراف الصنوبريات أثناء نومها، رأيت القمر يظهر في لحظة ما. جلست مستيقظًا لفترة طويلة وأنا أفكر في أن صديقي برونو قد أصبح أبًا.

عندما عدت إلى إيطاليا عام 2010 وجدتها تغوص في أزمة اقتصادية طاحنة، وكانت ميلانو تعلن عنها بدايةً من المطار الخارج عن الخدمة: فقط أربع طائرات على مساحة كيلومترات من المهابط، ولوحات إعلانات أحدث الصيحات تضيء في المحلات الفارغة. من القطار الذي أخذني إلى المدينة، وكان مثلجًا بسبب التكييف الذي يعمل في أمسيات شهر يوليو/ تموز، لاحظت مواقع البناء في كل مكان، الرافعات الطويلة متوقفة، ومبانٍ عالية جدًّا تُبنى، ذات شكل غريب، بدأت تتخذ مكانًا لها في الأفق. لم أستطع أن أفهم لماذا كانت كل الصحف تتحدث عن الإفلاس الحادث على الرغم من أنني ألاحظ في ميلانو، وأيضًا في تورينو، طفرة بناء تشبه ما حدث في العصر الذهبي. كان البحث عن الأصدقاء القدامى يشبه الدوران في ممرات المستشفيات: شركات الإنتاج، مؤسسات الدعاية، القنوات التلفزيونية التي عملت معها أيضًا أغلقت جميعها بسبب الإفلاس، وعديد من الأصدقاء يجلسون على أرائكهم لا يفعلون شيئًا. وفي سن الأربعين تقريبًا، يلجأون إلى أشغال باليومية، ويقبلون النقود من والديهم المحالين على المعاش. ولكن انظر إلى الخارج، قال لي أحدهم، ألا ترى أن البنايات تبرز من كل مكان؟ من ذا الذي يسرق منا ما نستحقه؟ حيثما ذهبت أتنفس ذلك الهواء المليء بالإحباط والغضب،

مكتبة

ذلك الشعور بالشكوى المتبادلة بين الأجيال. ووجود تذكرة العودة بالفعل في جيبي أشعرني بالارتياح.

بعد ذلك ببضعة أيام أخذت حافلة إلى الجبل، ثم أخرى في بداية الوادي، ونزلت بجوار الحانة التي اعتدت أن أذهب إليها مع أمي لنتحدث في الهاتف، على الرغم من أنه لم يكُن هناك أي أثر لكابينة التليفون الحمراء منذ فترة. سرت على المعبر مثلما كنت أفعل آنذاك. طريق البغال القديم الذي كان يقطع منحنيات الطريق الأسفلتي، وسرعان ما أصبح مخنوقًا ومكدسًا بأوراق الشجر، ثم بدلًا من أن أتبعه، سرت عبر الغابة، معتمدًا على ذاكرتي. عندما خرجت على الجهة الأخرى اكتشفت أنه بجوار حطام البرج كان يبرز لاسلكي للهواتف المحمولة، وهناك تحت في عنق النهر يوجد سد أسمنتي يمنع مسار المياه. كان الدخيل الصغير الصناعي مكدسًا بوحل ذوبان الجليد، يصطاده حفار من المياه ويلقي به على الشاطئ، مدمرًا بعجلاته وبوحله الترابي منطقة العشب التي كان برونو يرعى فيها أبقاره وهو صغير.

ثم، كالمعتاد، وصلت إلى ما وراء «غرانا»، وبدا كأنني أترك كل شيء مسموم خلفي، كأنني أدخل إلى وادٍ مقدس مثل الذهاب إلى «آنابورنا»، في ما عدا أن هنا لم يكُن هذا على أي أساس ديني، ولكنه الإهمال الذي ترك كل شيء بلا تغيير. اكتشفت مرة أخرى الأرض الفضاء التي كان برونو يطلق عليها «ورشة النشارة»، بسبب المسارين الموجودين هناك والعربة الصغيرة التي لا أحد يعلم متى

t.me/ktabpdf

كانت تُستخدم لقطع ألواح البناء. وهناك بجوارها يوجد تليفريك لنقل الألواح إلى المراعي الخشبية، بسلكه الحديدي الملتف حول شجرة لاركس الذي ابتلعه لحاؤها الآن. نسوه لأنه لا يساوي شيئًا، جبل طفولتي، هذا سبب حظه. أبطأت الخطى كما يهمس الحمالون النيباليون، بلغتهم، على المستويات المرتفعة: «بيستارى بيستارى». لم أكن أريد أن ينتهي كل شيء بسرعة. في كل مرة أعود إلى هنا يبدو لي كأنني أعود إلى نفسي، إلى المكان الذي أعثر فيه على نفسي وأستريح.

في المرعى الجبلي كانوا في انتظاري على الغداء. برونو ولارا والصغيرة أنيتا التي لم تكمل عامها الأول بعد، تلعب على أحد الأغطية في وسط المرعى، ولم ترفع أمي عينيها من عليها لثانية. قالت: ها هو العم بيترو يا أنيتا، انظري! وأحضرتها لي على الفور لنتعرف.

فحصتني الطفلة بارتياب، وأثارت لحيتي فضولها، جذبتها وأصدرت صوتًا لم أفهمه، وضحكت من الاكتشاف. كانت أمي تبدو شخصًا آخر بخلاف السيدة العجوز التي صافحتها قبل أن أرحل. ولكن ليس هي، بل المرعى كله أكثر حيوية مما أتذكره، كانت توجد دجاجات وأرانب، والبغلة، والأبقار والكلبان، ونار مشتعلة وضعوا عليها البولينتا وحساء لينضجا، وأُعدت المائدة في الهواء الطلق.

كان برونو سعيدًا جدًّا لرؤيتي مرة أخرى حتى إنه احتضنني، وكان هذا تصرفًا غير معتاد بيننا، وبينما يعتصرني كنت أنا أتساءل كم تغير. عندما انفصلنا نظرت جيدًا إلى وجهه، باحثًا عن التجاعيد، والشعر الرمادي، وثقل السنين على ملامحه، وكان لدي الانطباع بأنه يبحث

مكتبة

عن الشيء نفسه في وجهي. هل ما زلنا كما كنا؟ عندئذٍ أجلسني على رأس المائدة وصب النبيذ، أربع كؤوس مليئة بالنبيذ الأحمر لنشرب نخب عودتي.

لم أعد معتادًا على النبيذ أو اللحم، وسرعان ما شعرت بأنني سكرت منهما. كنت أتكلم بحرية شديدة، ولارا وأمي تنهضان بالتناوب للاهتمام بأنيتا، حتى بدأت الصغيرة تشعر بالنعاس، وكانت هناك إشارة في ما بينهما، على ما أعتقد، أو مجرَّد اتفاق صامت، فأخذتها أمي بين ذراعيها وابتعدت وهي تهدهدها. أحضرت لهم إبريق شاي هدية، والأكواب، وعبوة من الشاي الأسود، وهكذا بعد الغداء أعددته لهم على طريقة التبت، بالزبد والملح، وإن لم يكُن زبد المرعى قويًا وزنخًا مثل الزبد المصنوع من حليب الخشقاء. وبينما أقلبه كنت أحكي لهم كيف أن أهل التيبت يستخدمون الزبد بكل الطرق: فهم يشعلون به المصابيح، ويضعونه كبلسم على شعور النساء، ويدهنون به العظام الآدمية في «مراسم الدفن السماوي».

قال برونو: ماذا؟

شرحت له أنه على الهضاب العليا لا يوجد خشب كافٍ لحرق الأجساد، فيسلخون الميت ويتركونه على قمة الهضبة حتى تفترسه الطيور الجارحة، وبعد بضعة أيام يعودون ويتركون العظام وقد نُظفت، فيأخذون الجمجمة والهيكل العظمي ويطحنونهما ويخلطونهما بالزبد والدقيق، فيتحولان بدورهما إلى طعام للطيور.

قالت لارا: يا له من شيء بشع!

t.me/ktabpdf

سألها برونو: لماذا؟

- ولكن ألا تتخيل؟ الميت هناك على الأرض والطيور الجارحة تنهش أعضاءه قطعة تلو الأخرى.

قال: ولكن البقاء في حفرة لن يكون مختلفًا كثيرًا، شيء ما سيأكله على أية حال.

قالت لارا: أجل، ولكن على الأقل أنت لا ترى هذا.

قال برونو: ولكنني أراه شيئًا جميلًا، أن يصبح المرء طعامًا للطيور.

ولكنه اشمأز من الشاي، وعندئذٍ أفرغ كوبه وأكوابنا أيضًا وملأها بالجرابًا من زجاجة كبيرة. كنا نجلس نحن الثلاثة سكارى بعض الشيء حينئذٍ. وضع ذراعه حول كتف لارا وقال: وماذا عن فتيات الهيمالايا؟ هل هن جميلات مثل فتيات الألب؟

أصبحت جادًا بلا داعي، وقلت شيئًا ما.

- لست في طريقك لأن تتحول لأحد الرهبان البوذيين، أليس كذلك؟

ولكن فهمت لارا معنى تحفظي وأجابت في مكاني: لا، لا، فهو يعيش بصحبة أحد.

عندئذٍ نظر برونو إلى وجهي وضحك، لأنه أدرك أنها على حق، وأنا بالغريزة بحثت عن أمي، التي كانت أبعد بكثير من أن تسمع.

مكتبة

بعد ذلك، ذهبت لأستلقي أسفل شجرة لاركس عجوز، شجرة وحيدة تحتل المراعي فوق المنازل. مكثت ممدًا وعيناي شبه مغلقتين ويداي أسفل عنقي، أنظر إلى قمم وذروات الغرينون بين الأغصان وتركت نفسي لأسقط في النعاس، و يعيدني ذلك المنظر دائمًا إلى أبي، وفكرت في أنه بطريقة ما، دون أن يعرف، أسس هو لي العائلة الغريبة التي أجد نفسي بينها. من يدري فيمَ كان سيفكر برؤيتنا كلنا معًا نتناول الغداء. زوجته، وابنه، وابنه الآخر من الجبل، وامرأة شابة، وطفلة. وفكرت، إذا كان مقدرًا لنا أن نكون أخوين، سيكون برونو بالتأكيد الابن البكر. الذي يبني. يبني المنازل ويكوِّن عائلة، مزارع، الأخ الأكبر بما لديه من أرض وماشية وذرية. وأنا الأخ الصغير المسرف، ذلك الذي لا يتزوج، ليس له أبناء، يذهب بعيدًا دون أن يرسل أخباره لشهور، إلا أنه يعود فجأة إلى المنزل في أيام الأعياد وفي ساعة الغداء بالتحديد. من كان سيفكر في هذا، أليس كذلك يا أبي؟ ونمت في الشمس بخيالات الخمر تلك في رأسي.

مكثت معهما أسبوعين من فصل الصيف، فلم تكُن فترة طويلة لكي لا أشعر بأنني مجرَّد ضيف فقط، ولم تكُن طويلة إلى حد الشعور بأنني لم أفعل شيئًا لفترة. وهناك في منزل بارما، ترك غيابي لمدة عامين آثاره عليه، كثيرًا جدًّا، إلى حد أنني بمجرَّد أن رأيت المنزل مرة ثانية شعرت برغبة في الاعتذار له. بدأت الأعشاب الضارة بالفعل تحيط به، بعض ألواح السقف بدأت تتزعزع وتخرج من مكانها، وقبل أن أرحل نسيت أن أنزع ماسورة المدخنة البارزة خارج السقف، فكسرها الثلج وتسبب ذلك في بعض الخسائر داخل المنزل أيضًا. على هذا الحال، ستكفي بضعة أعوام أخرى ليسترده الجبل من جديد،

t.me/ktabpdf

ويحوله مرة أخرى إلى كومة من الحجارة كما كان. وهكذا قررت أن أقضي أيامي في العناية به، وأن أعده جيدًا لرحيلي من جديد.

وبالمكوث مع برونو ولارا، اكتشفت أن شيئًا آخر بدأ يتدهور في فترة غيابي. عندما لا تكون أمي موجودة، وأنيتا وُضعت في فراشها، تتحول المزرعة السعيدة إلى مؤسسة تعاني من ضائقة مالية، ويتحول صديقاي إلى شريكين متنازعين. لم تكُن لارا تتحدث عن شيء آخر. قالت لي إن أرباح التوما لم تكُن تكفي لدفع أقساط القرض. تدخل النقود وتخرج دون أن يتبقى في جيوبهما أي شيء، وفي الوقت نفسه القرض مع البنك كما هو. في الصيف، عندما يعيشان فوق، ينجحان في أن يكفيا نفسيهما تقريبًا، المشكلة تظهر في الشتاء مع إيجار الإسطبل والمصاريف الأخرى، هو ما لا يتحملانه. اضطرا إلى طلب قرض آخر. ديون جديدة لسداد ديون قديمة.

قررت لارا في ذلك الصيف أن تلغي خطوة، بأن تستبعد تاجر الجملة الذي قابلته وأن تبيع مباشرةً للمتاجر، وإن كان ذلك يعني كمية عمل أكبر بالنسبة إليها. تترك الطفلة مرتين في الأسبوع في «غرانا» لدى أمي، وترحل بالسيارة لتقوم بدورة التسليم، وفي الوقت نفسه على برونو في المرعى أن يتصرف بمفرده. كان لا بد أن يستعينا بأحد العمال، ولكن هذا سيعيدهما، ماليًا، حيث كانا مرة أخرى.

يبدأ هو في التأفف بمجرد أن تبدأ هي في قص تلك الأشياء عليَّ. في إحدى الأمسيات قال: ألا يمكن أن نغير هذا الموضوع؟ أنا وبيترو لا نلتقي قط، هل لا بد أن نمكث هنا لنتحدث عن النقود؟

مكتبة

شعرت لارا بالإهانة وقالت: إذًا عمَّ نتحدث؟ لا أعرف، عن الخشقاء؟ ما رأيك يا بيترو، ألا يمكننا أن نبدأ مشروع تربية قطعان الخشقاء هنا؟

علق برونو: فكرة جيدة.

قالت لي لارا: هل تسمعه؟ إنه يعيش على قمة الجبل، لا يشعر بالمشكلات التي نعيش فيها نحن البشر الفانون.

ثم وجهت كلامها له: على العموم! إنك أنت الذي وضعت نفسك في هذه الكارثة.

قال برونو: في الواقع، هي ديوني بالفعل، ولا يجب عليكِ أن تقلقي عليها بهذه الطريقة.

عند تلك الكلمات حدقت هي فيه بغضب، نهضت فجأة وتركت المكان. شعر هو بالندم على الفور بأنه أجابها بطريقة سيئة.

قال لي، عندما مكثنا بمفردنا: هي على حق، ولكن ماذا يجب عليَّ أن أفعل؟ لا يمكنني العمل أكثر مما أفعل، والتفكير المستمر في النقود لن يحل شيئًا، ولذلك من الأفضل التفكير في شيء أفضل، أليس كذلك؟

سألته: ولكن إلى كم تحتاجون؟

مكتبة

- لا تسأل. إذا قلت لك ستفزع.

t.me/ktabpdf

– يمكنني أن أساعدك أنا. يمكنني المكوث معك هنا للعمل حتى نهاية الموسم.

– لا، شكرًا.

– لن تحتاج إلى أن تدفع لي شيئًا. سأفعل ذلك بكل سرور.

– لا. قال برونو باقتضاب.

في الأيام الباقية قبل رحيلي لم نعد للتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى. كانت لارا تمكث بمفردها، تشعر بالإهانة، والقلق، مشغولة بالطفلة. وبرونو يتظاهر بأن شيئًا لم يحدث. وأنا أتحرك بين الأعلى والأسفل إلى «غرانا» لأهتم بالمواد التي أحتاج إليها لأصلح المنزل. وضعت الأسمنت في الأماكن التي تحطمت، أغلقت فتحة المدخنة، نظفت الأرض حوله من الأعشاب الضارة، وطلبت تقطيع ألواح من اللاركس على مقاس القديمة، وكنت فوق السقف أستبدلها عندما أتى برونو ليحييني، ربما كان يرغب في الذهاب إلى الجبل ولكن عندما رآني فوق غير رأيه وصعد معي فوق السقف.

كان العمل نفسه الذي قمنا به بالفعل قبل ذلك بستة أعوام. عثرنا على الفور على إيقاعنا القديم. ينزع برونو المسامير من الخشب القديم، وأنا ألقي به على العشب، ثم أضع اللوح الجديد وأثبته بينما هو يدق عليه المسمار. لم نكن نحتاج إلى أن نقول أي شيء. لمدة ساعة بدا لنا كأننا عدنا إلى ذلك الصيف، عندما وجب على حياتنا أن تتخذ اتجاهًا ما، لم تكُن لدينا مشكلات سوى بناء جدار أو رفع دعامة. وانتهينا

مكتبة

بسرعة شديدة، وعاد السقف في النهاية كالجديد، وذهبت أنا إلى النافورة لأتناول زجاجتي من الجعة التي تركتها لتبرد في الماء المثلج.

في ذلك الصباح أنزلت أعلام الصلاة، بعد أن محتها وقطعتها الرياح، وحرقتها في المدفأة، ثم علقت مكانها أعلامًا جديدة، ولكنني لم أعلقها مكان القديمة، وإنما بين جدار الضخرة وإحدى زوايا المنزل، وأنا أفكر في النُصب التذكارية البوذية التي رأيتها في نيبال. وكانت تتحرك في الرياح الآن فوق اللوحة التذكارية لأبي، وتبدو كأنها تباركها. عندما عدت كان برونو ينظر إلى أعلى.

سألني: ما المكتوب على القماش.

قلت: نوع من أنواع الصلوات التي تطلب الحظ، الرخاء، السلام، التناغم.

- وهل أنت تصدق في هذا؟

- في ماذا، الحظ؟

- لا، في الصلوات.

- لا أعرف، إلا أنها تجعلني في مزاج جيد، وهذا كثير في حد ذاته، أليس كذلك؟

- نعم، معك حق.

وخطر ببالي تعويذتنا للحظ، وذهبت لأرى كيف أصبحت. ما زالت شجرة الصنوبر الصغيرة هناك، نحيفة ومعوجة كما كانت

t.me/ktabpdf

عندما زرعتها، ولكنها حية. عبرت شتاءها السابع حتى الآن. حتى هي تتماوج مع الرياح، ولكنها لم تكُن توحي لا بالسلام ولا بالتناغم، بل بالأحرى بالإصرار، والتشبث بالحياة. وفكرت، ربما لم تكُن تلك فضائل في نيبال، ولكنها كذلك في الألب.

فتحت الجعة، وبينما أعطيها لبرونو سألته: قل لي، كيف هو حال أن تكون أبًا؟

قال: كيف هو؟ أريد أن أعرف ذلك أنا أيضًا.

رفع عينيه نحو السماء ثم أضاف: حاليًا المسألة سهلة، آخذها على ذراعي وأربت عليها كأنها أرنب أو قط صغير. هذا ما أعرف عمله، وعملته دائمًا. الصعوبة ستظهر عندما سيكون عليَّ أن أقص عليها شيئًا.

- لماذا؟

- ولكن ماذا أعرف. أنا لم أرَ سوى هذا في حياتي.

قال «هذا» وأشار بيده كأنه يقصد البحيرة والغابة، والمراعي والكتل الصخرية التي أمامنا. لم أكن أعرف إذا كان قد ابتعد من قبل عن هنا، ولا أين ذهب. لم أسأله قط، وذلك لأنني لم أرغب في إهانته، وأيضًا لأن الإجابة لن تغير شيئًا.

قال: أنا أعرف كيف أحلب بقرة، وكيف أصنع الجبن، أعرف كيف أقطع شجرة وكيف أبني منزلًا، وسأعرف أيضًا أن أقتل حيوانًا وآكله إذا كنت أتضور جوعًا. تلك الأشياء علموها لي منذ صغري.

مكتبة

ولكـن من ذلك الذي علمني أن أكون أبًا؟ أبي لم يفعل ذلك بالتأكيد. في نهاية الأمر اضطررت إلى أن أوسعه ضربًا ليتركني في حال سبيلي، هل حكيت لك ما حدث؟

قلت: لا.

- هـذا مـا حدث، كنـت أعمل كل اليـوم في موقع البنـاء، وكنت أقـوى منـه. أنـا متأكد أننـي جرحته جـدًّا، لأننـي لم أره بعدهـا. هذا المسكين البائس.

نظر مرة أخرى إلى السماء. الرياح نفسها التي تحرك أقمشة الصلاة كانت تدفع السـحب في ما وراء الذروات. قال: لهذا يسـعدني أن أنيتا فتاة، هكذا يمكنني أن أحبها وكفى.

لم أره قط بهذا الإحباط من قبل. لا تسير أموره كما كان يتمنى. كان لدي إحساس العجز نفسه الذي كان يحدث لي عندما كان يتوقف هو عـن الكلام ليـوم كامل، غارقًا في حزن كان يبدو لي مطلقًا ولا شـفاء منه. كنت أتمنى أن أعرف حيلة صديق قديم لأرفه عنه.

وقبل أن يرحل خطرت في ذهني قصة الجبال الثمانية، وفكرت أنها ستعجبه. حكيتها له وأنا أحاول أن أتذكر كل كلمة وكل إيماءة قالها لي حامل الدجاجات، ورسمت الماندالا بمسمار على لوح خشبي.

سـألني: إذًا أنـت من يرتحل إلى الجبـال الثمانية، وأنـا الذي يصعد جبل سوميرو؟

- يبدو هذا بالفعل.

t.me/ktabpdf

– ومن من الاثنين يفعل شيئًا جيدًا؟

أجبته: أنت.

ولم أقل هذا لأشجعه فحسب، ولكن لأنني كنت أصدقه، وأعتقد أن هذا كان يعرفه هو أيضًا.

لم يقل برونو شيئًا. نظر إلى التصميم مرة أخرى ليتذكره، ثم ربت على كتفي، وقفز من فوق السقف.

دون أن أخطط للأمر بأي طريقة، وجدت نفسي أنا أيضًا في نيبال أهتم بالأطفال، ولكن ليس في الجبل بل في ضواحي كاتماندو التي تمتد إلى كل الوادي وتشبه إحدى مدن الصفيح المنتشرة في العالم. كانوا أبناء من نزحوا إلى المدينة بحثًا عن الرزق. أحيانًا يكونون فقدوا أحد والديهم أو الاثنين، ولكن غالبًا ما كان الأب أو الأم يعيش في أحد الأكواخ ويعمل كالعبيد في مكان آخر من عش النمل هذا، ويترك الأطفال ليربوا في الشوارع. كان هؤلاء الأطفال يتعاملون مع مصير لا وجود له في الجبال، ففي كاتماندو كان الأطفال المتسولون، والعصابات الصغيرة المكرسة لكل أنواع التهريب، والأطفال القذرون المذهولون الذين ينبشون في قمامة المدينة، جزءًا مألوفًا من مشهد المدينة مثل الكلاب الضالة والقرود في المعابد البوذية.

توجد منظمات تحاول أن تهتم بهم، و تعمل الفتاة التي أعيش معها في إحداها، وكان حتميًا، بسبب ما كنت أراه في الشارع وأسمعها تحكيه، أن أبدأ أنا أيضًا في مدّ يد المساعدة، فالإنسان يعثر على مكانه

مكتبة

في العالم بطرق أغرب مما يمكنه أن يتوقع، فبعد كل هذا الترحال، أجد نفسي في مدينة كبيرة في سفح الجبال، مع امرأة تعمل في ما كانت تعمله أمي، ومعها، كلما سنحت لنا الفرصة، أهرب إلى الأعلى، لأستعيد قواي التي استنفذتها المدينة.

عندما أسير على تلك المعابر كنت أفكر دائمًا في برونو. لم يكُن هناك كثير من الغابات والأنهار، ولكن يذكرني الصبية به. أتذكر عندما كان في عمرهم، يكبر في ما تبقى من تلك البلدة المتألمة، مع الحطام الذي يلعب فيه بمفرده، والمدرسة التي تحولت إلى مخزن. كان هناك كثير يمكن أن يفعله أحد بمواهبه في نيبال: كنا نعلم الإنجليزية والحساب من الكتب، ولكن ربما علينا أن نعلم أبناء المهاجرين هؤلاء كيف يزرعون بستانًا، ويبنون إسطبلًا، ويربون الماعز، وهكذا من حين إلى آخر أتخيل فكرة أن أشده إلى هنا، بعيدًا عن جبله المحتضر، ليعلم أبناء جبل جددًا. كنا نستطيع أن نقوم بأشياء عظيمة في ذلك الجزء من العالم.

إذا توقف الأمر علينا لما سمع أحدنا عن الآخر لسنوات، كأن صداقتنا لم تكُن تحتاج إلى رعاية. كانت أمي تهتم بأن تعطي كلًّا منا أخبار الآخر، وهي المعتادة أن تعيش بين رجال لا يتحدثون. تكتب لي عن أنيتا، وعن شخصيتها التي بدأت تتشكل، عن الطريقة التي تنمو بها، برية وبلا خوف. تعلقت جدًّا بتلك الطفلة، وتقلقها رؤية والديها دائمًا في أزمة. يعملان أكثر مما يجب، واستمرا في إبداع طرق للعمل أكثر من المعتاد، إلى حد أن كثيرًا ما تأخذ أمي معها أنيتا إلى «غرانا»

t.me/ktabpdf

لتحررهما، على الأقل، من عبء العناية بها. تشعر لارا بالاختناق من الديون وعاد برونو للتقوقع في نزعته الصامته وعمله.

لم تقل أمي بوضوح ممَ كانت تخشاه، ولكن لم يكُن صعبًا قراءة ما بين السطور، سواء هي أم أنا بدأنا نفهم كيف سينتهي الوضع.

استمر الوضع على هذا الحال بعض الوقت، وفي خريف 2013 أشهر برونو إفلاسه وأغلق مؤسسته الزراعية وسلم مفاتيح المرعى الجبلي لحاجب المحكمة، وذهبت لارا لتمكث مع والديها وأخذت معها الطفلة. حتى إذا كانت الأمور، حسب أمي، سارت بالترتيب العكسي، أنها هي قررت أن تتركه فيئس هو واستسلم للفشل، لم يكُن لهذا أهمية. كانت نبرة الخطاب التي أرسلت بها هذه الأخبار ليست حزينة فحسب بل مقلقة أيضًا، وفهمت أن أمي تخشي ما يمكن أن يحدث لبرونو. كتبت تقول: فقد كل شيء، وبقي وحيدًا. هل تستطيع أن تعمل شيئًا ما؟

قرأتها مرتين قبل أن أفعل ما لم أفعله قط في نيبال، تركت الحاسوب وطلبت أن أستخدم الهاتف، دخلت إلى إحدى الكبائن ووضعت كود إيطاليا ورقم برونو. كنت في أحد تلك الأماكن في كاتماندو التي يقتل الناس فيها الوقت. يأكل صاحب المكان صحنًا من الأرز والعدس، ويجلس بجانبه شيخ يراقبه، وأخذ صبيان يتجسسان عليَّ في المقصورة ليريا ماذا أفعل. مرت خمس أو ست دقات في أثنائها بدأت أفكر أن برونو لن يرد عليَّ، وحسب معرفتي له، يمكن أن يكون قد ألقى

مكتبة

بالهاتف في الغابة وقرر ألا يتحدث مع أحد أبدًا. إلا أنني سمعت نقرة، وضجيجًا بعيدًا وصوتًا مرتبكًا يقول: آلو؟

صرحت: برونو! أنا بيترو!

وانفجر الصبية في الضحك وهم يسمعونني أصرخ بالإيطالية. لصقت السماعة في أذني. أضاف تأخير المكالمة العابرة للقارات نوعًا آخر من التردد، ثم قال برونو: نعم، كنت أتمنى أن تكون أنت.

لم يكُن يرغب في التحدث عما حدث مع لارا، ولكن كان يمكنني أن أتخيل ذلك في كل الاحوال. ولكن سألته كيف أحواله، وماذا سيفعل.

أجاب: أنا بخير، أشعر فقط بالتعب. أخذوا مني المرعى الجبل، هل عرفت؟

- أجل، وماذا فعلت بالأبقار؟

- آه، وزعتها.

- وأنيتا؟

- أنيتا مع لارا لدى والديها. لديهم أماكن كافية هناك. تحدثت معهما، وهما بخير.

ثم أضاف: اسمع، كنت أريد أن أطلب منك شيئًا ما.

- قل لي.

t.me/ktabpdf

- هل يمكنني أن أستخدم المنزل فوق في بارما؟ لأنني الآن لا أعرف أين سأمكث.

- ولكن هل تريد أن تذهب إلى فوق؟

- لا أريد أن أرى أحدًا، أنت تعرف الأحوال. سأبقى بعض الوقت في الجبل.

قال هذا بالتحديد «في الجبل». كان غريبًا جدًّا الاستماع إلى صوته في هاتف في كاتماندو، صوت يصل إليَّ خشنًا ومشوشًا وأجد صعوبة في التعرف عليه، ولكن في تلك اللحظة عرفت أنني أتحدث معه هو. كان برونو، صديقي القديم.

قلت: بالتأكيد، امكث هناك كما يحلو لك. إنه منزلك.

- أشكرك.

كان هناك شيء آخر لا بد أن أقوله، ولكنه كان صعبًا، فلم نكن معتادين في ما بيننا أن نطلب المساعدة أو أن نقدمها. وبلا أي لف في الكلمات سألته: اسمع، هل تريد أن آتي؟

في أوقات أخرى، كان برونو يجيبني على الفور أن أمكث حيث أنا، ولكن في هذه المرة التزم الصمت. ثم عندما أجاب، أجاب بنبرة لم أسمعها قط منه: ساخرة بعض الشيء، ومستسلمة البعض الآخر.

قال: إيه، سيكون هذا جميلًا.

- إذًا سأرتب بعض الأمور هنا وأحضر، حسن؟

مكتبة

- حسنٌ.

كان ذلك بعد ظهر أحد أيام أكتوبر، خرجت من مكان الاتصالات، بينما المدينة تسقط في الظلام. في ذلك الجزء من العالم، لم تكُن الطرق مُنيرة، ويعود الناس في ساعة الغروب إلى منازلهم في عجلة، ويظهر توتر من الليل الذي يقترب. في الخارج توجد الكلاب، والأتربة، والدراجات الآلية، وبقرة مستلقية في وسط الشارع تعطل المواصلات، والسياح يتوجهون إلى المطاعم والفنادق، وهواء أمسية في نهاية الصيف. في «غرانا»، على العكس، بدأ الشتاء، وكنت أنا أفكر أنني لم أحضر أي شتاء قط هناك.

t.me/ktabpdf

مكتبة

اثنا عشر

كان الوادي العميق لغرانا، في منتصف شهر نوفمبر، يحرقه الجفاف والجليد. كان له لون المَغْرَة، والرمال والطمي، كأن المراعي تعرضت لحريق وأُطفئ. ولكن في الغابات لا يزال يشتعل: على جوانب الجبل تضيء الشعلات الذهبية والبرونزية لأشجار اللاركس الأخضر القاتم للصنوبريات، وعندما يرفع المرء عينيه نحو السماء تتدفأ النفس. ولكن في أسفل في البلدة كانت تسود الظلال. لم تكُن الشمس تصل إلى عمق الوادي، وكانت الأرض قاسية أسفل الأقدام، مغطاة هنا وهناك بطبقة من الصقيع. وعلى الجسر المصنوع من الألواح الخشبية، عندما انحنيت لأشرب، رأيت أن الخريف أثر تأثيرًا ساحرًا على نهري: يُشكل الجليد مزالق وأنفاقًا، ويعكس الكتل الرطبة، ويحجز أطراف الأعشاب الجافة ويحولها إلى منحوتات.

t.me/ktabpdf

وفي أثناء صعودي نحو المرعى الجبلي لبرونو قابلت مجموعة من الصيادين. كانوا يرتدون سترات للتمويه ومناظير مُكبرة حول أعناقهم ولكن لم تكُن معهم بنادق. لم يبدوا لي من المنطقة، ولكن ربما تتغير الوجوه أيضًا في الخريف، ولم أكن أنا سوى دخيل. كانوا يتناقشون بلهجة المكان، وعندما رأوني صمتوا، قيموني بنظرة، ثم تجاهلوني، واستمروا في طريقهم. سرعان ما اكتشفت أين مركزهم، هناك في المرعى الجبلي، بجوار المائدة التي كنا نجلس عليها أنا وبرونو في المساء، وجدت أعقاب سجائر، والعلب الفارغة المكرمشة.

لا بد أنهم تسلقوا إلى الأعلى في الصباح المبكر بهدف دراسة الغابات من هذا الموقع المتميز. ترك برونو قبل أن يرحل كل شيء منظمًا، أحكم إغلاق باب الإسطبل، وأغلق المصاريع، وخزن الأخشاب بجوار جانب المنزل، وقلب آنية الشرب بجوار الجدران، بل وقام أيضًا بتوزيع الفضلات الجافة وبلا رائحة في المراعي الصفراء. كان المكان يبدو كأي مرعى جبلي آخر مستعد لشهور الشتاء، وأبطأت الخطى بعض الشيء أتذكر كيف كان مليئًا بالضوضاء والحياة عندما زرته في المرة الأخيرة. وكسر الصمت صوت خوار من الجانب الآخر للوادي. سمعت هذا الصوت مرات قليلة سابقة، ولكن تكفي مرة واحدة لأن يتذكره المرء للأبد. كان صوتًا قويًا، أجشًا، غاضبًا، يخيف به ذكر الوعل منافسيه في الحب، وإن كان الوقت متأخرًا للتزاوج.

مكتبة

ربما كان ذلك الوقت غاضبًا فحسب. عندئذٍ عرفت أيضًا ما كان يبحث عنه أولئك الصيادون.

وحدث لي شيء مماثل بعد ذلك بقليل، فوق بجوار البحيرة. تظهر الشمس بالكاد فوق ذروات الغرينون وتدفئ الكتل الصخرية وهي تواجهها في منتصف النهار، ولكن ما زالت الفتحة الصغيرة في نهاية المنحدر تقبع في الظلال حتى في تلك الساعة، وتكونت طبقة من الثلج على الماء، شيء كالهلال لامع وقاتم. عندما اختبرته بعصا، وجدت الثلج رفيعًا جدًّا وانكسر. أخذت قطعة منه من المياه وأمسكته ونظرت من خلاله، وفي هذه اللحظة سمعت صوت منشار كهربائي. سمعت ضربتَي موتور، ثم صرير النصل الذي يأكل الخشب. نظرت إلى فوق لأفهم من أين يأتي. كانت هناك مجموعة من أشجار اللاركس في منتصف المنحدر، أعلى بقليل من مستوى البارما، نمت فوق شيء كالشرفة. يظهر جذع شجرة ميتة، عاريًا ورماديًا، في وسط كومة صفراء من جذوع أخرى. سمعت صوت المنشار يغوص مرتين في الخشب، ثم الوقفة اللازمة للدوران حول النبات، ثم من جديد ارتفع صوت الصرير. اهتز طرف شجرة اللاركس الميتة، ورأيتها تنحني ببطء، ثم أخيرًا تسقط في ارتطام قوي، مع طقطقات الأفرع المتكسرة من السقطة.

– قال لي برونو في ذلك المساء: ماذا تريدني أن أقول لك يا بيترو، ساءت الأمور. هز كتفيه ليعرفني أنه ليس لديه مزيد ليضيفه في هذا

t.me/ktabpdf

الشـأن. كان يشرب قهوة سخنها على المدفأة وينظر إلى الخارج، حيث يسـود الظلام بدايةً من السـاعة الخامسـة. في المنزل نستخدم الشمع، الآن وقد توقفت طاحونتنا الصغيرة بسـبب الجفاف، ورأيت عبوتين كاملتـين، هناك، من الشـمع الأبيـض، بالإضافة إلى شـوالات دقيق الـذرة، وبعض قوالب التوما التـي تبقت من الإنتاج الأخير، وخزين من المعلبات، والبطاطس، وصناديق نبيذ. لم يكُن خزين شخص لديه النية للنزول بسرعة. في أثناء الشـهر الذي مر منذ مكالمتنا، أعد برونو المـؤن واسـتعد لفترة حـداده الخاصة: صارت الأمـور في المزرعة على نحو سيئ، وانتهت علاقته بلارا نهاية سيئة، وتحدث عن هذه الأشياء -أو بالحري يتجنب الحديث عنها- كأنها تنتمي إلى فترة بعيدة، سـواء في الزمن أو في أفكاره. وبدلًا من أن يتذكرها، بدا كأنه يريد أن ينسـى كل شيء عنها.

قضينا أيام نوفمبر تلك نقطع الأخشاب للشتاء. في الصباح نفحص المنحدر بحثًا عن شـجرة ميتة، ونصعد لنسـقطها، ننظفها من الأفرع، ثم يُدير برونو رأسها بالمنشار الآلي، ثم نقضي ساعات طويلة في محاولة لأن نجرهـا إلى المنـزل. نربطها بحبل متين وندفعها إلى الأسـفل بقوة أذرعنا. بنينا منحدرات، عبر الغابة، باسـتخدام ألواح خشـبية قديمة تعمـل عمل الجسـور الصغيرة، وبعض الأفرع المتجـاورة التي يخاطر الجذع فوقها بأن يتكسر بسبب الميل، ولكن يحدث إن آجلًا أم عاجلًا، أن يتعرقل في معوق ما، وعندئذٍ يتعين علينا العمل على نقله من هناك.

مكتبة

يسبه برونو، ويمسك بالفأس كأنه أحد معازق الحدادين وهو يرفع به الجذع ليدحرجه في نصف دائرة، يجرب من ناحية ثم من الأخرى، وهو يسب، ثم في النهاية يلقي بالفأس ويذهب ليحضر منشاره الآلي. كنت دائمًا أشعر بالإعجاب من الطريقة التي يعمل بها. الرشاقة التي بها ينجح في التعبير من خلال استخدام أي آلة، ولكن لم يكُن هناك أي أثر لهذا الآن، يبدأ عمل المنشار بغضب، يحركه بيديه، يزيد الغاز، وأحيانًا ينتهي البنزين ويكون على وشك أن يلقي بهذا أيضًا، وفي النهاية يقطع الجذع لأجزاء، وبهذا تُحل المشكلة، حتى إذا كانت ما زالت أمامنا رحلات حمله إلى المنزل، ثم نبدأ تقسيم الجذع بالإزميل والمطرقة حتى حلول الليل. كانت ضربات الحديد فوق الحديد تتذبذب عبر الجبل، أكثر قوة وصريرًا، وشرًا عندما يدقها برونو، أكثر ترددًا وبلا إيقاع عندما آخذ أنا مكانه، وتستمر حتى تصل إلى الضربة القاضية وينقسم الجذع، وكنا ننهي العمل بعد ذلك بالبلطة.

لم يكُن هناك كثير من الثلج «فوق الغرينون»، وذلك الموجود يتركنا نميز بين الكتل الصخرية والغابات، ما زالت الحواف والنتوءات الصخرية بارزة حيث لم يكُن الثلج سوى طبقة بسيطة من الصقيع. ولكن مع اقتراب نهاية الشهر، وصلت موجة باردة، وهبطت درجة الحرارة فجأة وتجمدت البحيرة خلال ليلة واحدة. في صباح اليوم التالي ذهبت إلى الأسفل لأرى، تحول الثلج بجوار الشاطئ إلى اللون الرمادي والمعتم بسبب كمية كبيرة من الفقاعات الهوائية المحبوسة،

t.me/ktabpdf

وكان يبدو بالتدريج داكنًا أكثر، ثم أسود كلما ابتعدت عنه. لم أستطع حتى أن أنقره بعصا، فقررت أن أخاطر وأسير فوقه لأرى إذا كان سيتحمل ثقل وزني.

لم أخطُ سوى بضع خطوات حتى سمعت صوت دوي من عمق البحيرة مما جعلني أتراجع على الفور. وأنا في أمان على الشاطئ سمعته مرة أخرى، دويًّا كئيبًا، يبدو كأنه دق منخفض على طبل يضربه أحدهم باستمرار، بطريقة بطيئة جدًّا وإيقاع منتظم، ربما مرة كل دقيقة، وربما أبطأ أيضًا من هذا. لا يمكن أن يكون شيئًا سوى المياه تصارع الثلج من أسفل، فمع ظهور نور النهار بدا كأن المياه تود أن تتحرر خارج المقبرة التي وجدت نفسها محبوسة بداخلها.

في وقت الغروب تبدأ أمسياتنا اللانهائية. يكتسي الأفق في عمق الوادي بالحمرة فقط لبضع دقائق قبل أن يسود الظلام، ثم حتى ساعة الذهاب للنوم، لا يتغير الضوء قط، سواء كانت الساعة السادسة، السابعة، الثامنة، ونحن نقضيها في صمت أمام المدفأة، والشمع فوق رؤوسنا لنقرأ. وكان وميض النار، والنبيذ الذي لا بد أن نحرص عليه ليكفينا، هما رفاهيتنا الوحيدة على العشاء. طهوت البطاطس بكل الطرق الممكنة في تلك الأيام. مسلوقة، مشوية، على السيخ، مقلية بالزيت، في الفرن مع جبن التوما، وأنا أقرب الشمعة من الطاسة لأرى إذا كانت قد نضجت. نأكلها في عشر دقائق، ثم نبدأ ساعتين أو ثلاث ساعات أخرى من السهر الصامت. الواقع أنني كنت في انتظار شيء ما

مكتبة

-لا أعرف حتى ماذا- لم يحدث، أتيت من نيبال لنجدة صديقي، والآن لا يبدو أن صديقي بحاجة إليَّ. إذا طرحت عليه سؤالًا يجيب بإجاباته تلك الغامضة، ويقتل بذلك أي محاولة للحوار. يستطيع قضاء ساعة كاملة محدقًا في النار، وفقط من حين إلى آخر، عندما لا أتوقع هذا، يتحدث كأنه يستأنف حديثًا من منتصفه، أو يستأنف بصوت عال تسلسل أفكاره.

في مساء أحد الأيام قال: ذهبت مرة إلى ميلانو.

قلت: فعلًا؟

- من فترة طويلة جدًّا، عندما كان عمري عشرين عامًا. في أحد الأيام تشاجرت مع رئيس العمل وطردني من موقع البناء، وكان لدي كل الظهيرة بلا عمل وقلت: الآن سأذهب. أخذت السيارة وقدتها على الطريق السريع، ووصلت في المساء. كنت أرغب في شرب الجعة في ميلانو. نزلت من السيارة في أول حانة، تناولتها ثم عدت أدراجي.

- وكيف كانت ميلانو؟

- لا أعرف، مزدحمة بالبشر.

ثم أضاف: وذهبت أيضًا إلى البحر. بعد كل تلك الكتب التي قرأتها، ذهبت في إحدى المرات إلى جنوة، ورأيته. كان معي غطاء في السيارة، نمت هناك. لم يكُن أحد ينتظرني في المنزل، في كل الأحوال.

t.me/ktabpdf

- وكيف كان البحر؟

- بحيرة كبيرة.

كانت حوارات من هذا النوع، يمكن أن تكون حقيقية أو لا، ولا تؤدي إلى أي شيء. تبقى خلالها الشخصيات التي نعرفها بعيدة عنها دائمًا. فقط في إحدى المرات قال: كان جميلًا، أليس كذلك، عندما كنا نجلس في المساء أمام الإسطبل؟

عندئذٍ، ركنت الكتاب الذي كنت أقرأه وأجبته: أجل، جميلًا جدًّا.

- الطريقة التي يحل بها الليل في شهر يوليو، يهبط بهدوء. هل تتذكر؟ كانت أكثر ساعة أحبها، ثم عندما أنهض لأحلب الأبقار في الظلام. كانتا هما الاثنتان تنامان، وأنا أشعر بأنني أسهر على كل شيء، كأنهما يمكنهما النوم في هدوء لأنني أنا موجود.

أضاف: شيء غبي، أليس كذلك؟ ولكنه بالفعل ما كنت أشعر به.

- لا أرى فيه أي شيء غبي.

- شيء غبي لأنه لا أحد يمكنه أن يعتني بالآخرين. أن يعتني المرء بنفسه هو في حد ذاته إنجاز. يمكن للرجل أن يتصرف جيدًا إذا كان ماهرًا، ولكنه إذا اعتقد في نفسه أنه ماهر أكثر مما ينبغي، يُدمر نفسه.

- ماهر أكثر مما ينبغي تقصد أن يكون أسرة؟

- ربما الأمر كذلك للبعض.

مكتبة

- إذًا فذلك الشخص لا يجب أن ينجب أطفالًا.

قال برونو: لا، في واقع الأمر.

نظرت إليه في شبه الظلام وأنا أحاول أن أفهم ما يدور في رأسه. كان نصف وجهه شاحبًا من ضوء المدفأة، والآخر يقبع في الظلام.

سألته: ماذا تقول؟

ولم يجبني. أخذ ينظر إلى النار كأنني لست موجودًا.

شعرت بضيق شديد يدهمني ويدفعني للخروج في الليل، وأنا أفتقد سيجارة لتصحبني. مكثت في الخارج أنظر إلى النجوم غير المرئية، وأنا أسأل نفسي ماذا أتيت لأفعل، حتى بدأت أسناني تصطك من البرد. عندئذٍ دخلت إلى الغرفة الدافئة المظلمة المُدخنة. لم يكُن برونو تحرك من مكانه. دفَّأت رجليّ أمام المدفأة، ثم ذهبت إلى الدور العلوي لأغلق على نفسي في كيس النوم.

في صباح اليوم التالي استيقظت أولًا. لم تكُن لدي الرغبة في أن أمكث في تلك الغرفة الصغيرة في ضوء النهار، وهكذا لم أشرب القهوة وذهبت لأتجول. نزلت لأرى البحيرة، ووجدتها مغطاة بطبقة صقيع ليلية تحركها الريح هنا وهناك، كانت ترفعها في أمواج وهَبَّات، وزوابع صغيرة تظهر وتختفي في لحظة، كأنها أرواح قلقة. أسفل الصقيع يبدو الثلج أسود كأنه صخر. وبينما أنا أقف هناك لأنظر إليها سمعت صدى

t.me/ktabpdf

طلقة رصاص تتصاعد في الوادي، وتتخبط من جهة إلى أخرى، فكان من الصعب تخمين إذا كان الصوت جاء من أسفل في الغابات أو من القمم فوق. ولكنني على الفور رفعت عيني إلى فوق بحثًا عن مصدرها، فاحصًا الصخور والمنحدرات باحثًا عن أي إشارة لحركة.

عندما عدت إلى البار ما رأيت اثنين من الصيادين أتيا ليتحدثا مع برونو. كانت لديهما أسلحة حديثة، ذات موجهات تليسكوبية. وفي أثناء الحديث فتح أحدهما حقيبته ووضع حقيبة سوداء عند قدم برونو. عندما لاحظ الآخر وجودي، وجه إليَّ إشارة تحية، وعندئذٍ ربطت تلك الإيماءة بشيء آخر مألوف، وفهمت من كانا هذان الاثنان، كانا ابنَي عم برونو الذي ابتاع المرعى الجبلي منهما. لم أكن قد رأيتهما منذ خمسة وعشرين عامًا. لم أكن أعرف أنهما ما زالا على اتصال به، ولا كيف عثرا عليه هنا فوق، ولكن من يدري كم من الأشياء توجد في «غرانا» لا يمكنني حتى تخيلها.

ومن الحقيبة السوداء، بعد أن رحلا، ظهر حيوان شامواه، ميت بالفعل ونُزعت أحشاؤه. عندما علقه برونو على فرع لاركس من قدميه الخلفيتين، رأيت أنها كانت أنثى. جلدها أسود من الشتاء، ويجري خط كثيف وأسود في وسط ظهرها، عنقها نحيفًا، يتدلى منه فك بلا حياة، قرنان صغيران ويشبهان الخطافين، ومن فجوة بطنها ما زال البخار يتصاعد في برد الصباح.

مكتبة

ذهب برونو إلى المنزل ليحضر سكينًا وشحذها بعناية قبل أن يبدأ العمل، ثم كان دقيقًا وحريصًا كأنه لم يفعل شيئًا آخر سوى هذا في حياته: قام بشق الجلد حول عظم الساق، واستمر حوله بداخل الفخذين، نزولًا إلى الخصر حيث يتلاقى القطعان، ثم صعد مرة أخرى إلى فوق، فصل طبقة الجلد عن عظم الساق، وضع السكين جانبًا، وأمسك بعظم الساق بكلتا يديه وهو يجذبها بعنف ليعري أولًا فخذة ثم الأخرى. وأسفل الجلد كانت هناك طبقة بيضاء سميكة -الدهن الذي جمعته الشاماواه لشهور الشتاء- وأسفل ذلك الدهن كان يمكن أن تلمح لون لحمها الوردي. أخذ برونو السكين مرة أخرى، قام بشق في الصدر، وبشقين آخرين في قدميها الأماميتين، أمسك مرة أخرى بالجلد المسلوخ الذي يتدلى الآن في منتصف الظهر وجذبه بشدة. يتطلب الأمر بعض القوة ليستطيع المرء أن ينزع الجلد من اللحم، واستخدم هو قوة أكثر من الضرورية، واضعًا فيها الغضب الذي احتفظ به مكتومًا منذ حضوري. انفصل الجلد في قطعة واحدة كأنه الرداء، ثم أمسك بواحدة من القرنين بيده اليسرى، وغرس سكينه بين غضروف الرقبة، وسمعت تهشم العظام المتكسرة. خرج الرأس ومعه الجلد، وفرشه برونو على الأرض، واضعًا جهة الفراء على العشب وناحية الجلد إلى فوق.

بدت الشاماواه أصغر الآن. مسلوخة، ومنزوعة الرأس، ولم تعد تبدو كشاماواه -فقط لحم وعظام، وغضاريف- كأنها أحد تلك

t.me/ktabpdf

الذبائح المجمدة المعلقة في المخازن الباردة للأسواق الكبيرة. غرس برونو يده في القفص الصدري، وأخرى في القلب والرئتين، ثم قلب الذبيحة. أخذ يحسس بأصابعه ليعصر على أوردة وعضلات الظهر، فتح فيها شقًا صغيرًا، ثم عاد مرة أخرى إلى الخط الذي تبعه، وهو يغرس فيه السكين. كان اللحم الذي أخرجه عندئذٍ لونه أحمر داكن.

قطع منه وترين طويلين سوداوين تغطيهما الدماء. كان ذراعاه تلطخا بالدماء الآن أيضًا. اكتفيت بما رأيت ولم أمكث لأشهد ما تبقى من عملية الجزارة. رأيت فقط في النهاية الهيكل العظمي للشامواه معلقًا من على أحد أفرع الشجرة، وتحول إلى لا شيء.

بعد ذلك ببضع ساعات قلت له إنني سأرحل. على المائدة حاولت أن أستكمل حوار اليوم السابق، ولكن هذه المرة بطريقة مباشرة أكثر. سألته ماذا يفكر في أن يفعل مع أنيتا، وعلامَ اتفق مع لارا بشأن الطفلة، وإذا كانت لديه النية في أن يذهب ليزورها في أعياد الميلاد.

أجاب: في أعياد الميلاد، لا أعتقد.

- إذًا متى؟

- لا أعرف، ربما في الربيع.

- آه فعلًا، أو ربما في الصيف؟

مكتبة

– اسمع، هل سيغيِّر هذا شيئًا؟ أليس من الأفضل أن تظل مع أمها؟ أو تريدني أن أحضرها معي إلى هنا لتعيش هذه الحياة؟

قال: «هنا» كما يفعل دائمًا، كأن في أسفل واديه توجد حدود غير مرئية، جدار مبني فقط من أجله، يمنعه من الذهاب إلى باقي العالم.

قلت: ربما يمكنك أنت أن تنزل، ربما لا بد أن تغير أنت من حياتك.

قال برونو: أنا؟ ولكن بيريو، هل تتذكر فعلًا من أنا؟

أجل، أتذكر ذلك. راعي الأبقار، البنَّاء، ورجل الجبل، وبصفة خاصة ابن أبيه، مثله تمامًا، سيختفي من حياة ابنته فحسب. نظرت إلى الصحن الموضوع أمامي، أعد برونو أحد أطباق الصيادين المفضلة، قلب الشامواه ورئتيه مطهية في النبيذ والبصل، ولكنني لم أمسسه.

سألني، محبطًا: ألن تأكل؟

أجبته: ثقيل جدًّا عليَّ.

أبعدت الصحن وأضفت: الآن سأنزل. لدي بعض الأشياء لأنظمها. ربما أعود لأودعك قبل أن أذهب.

قال برونو دون أن ينظر إليَّ: أجل، بالتأكيد. لم يكُن يصدقني هو أيضًا. أخذ صحني، وفتح الباب وألقى بما تبقى من الطعام للغربان والثعالب التي تتمتع بمعدة أقوى من معدتي.

t.me/ktabpdf

في شهر ديسمبر قررت أن أذهب لأزور لارا. صعدت إلى واديها في أحد الأيام، كان الثلج ينزل بكميات قليلة، في بداية موسم التزلج. لم يكُن المنظر يختلف كثيرًا عن «غرانا»، وفي أثناء قيادتي للسيارة فكرت في أن الجبال كلها تتشابه بطريقة ما، ولكن لم يكن في ذلك المكان شيء يذكِّرني بشخص أحببته، وهذا ما يصنع الفارق. إنها طريقة حراسة المكان لقصتك، وطريقتك في إعادة قراءتها في كل مرة تعود إليه. لا وجود إلا لجبل واحد فقط في الحياة مثل هذا الجبل، وتصبح الجبال الأخرى كلها، بالمقارنة معه، مجرَّد قمم صغيرة، ولو كان الأمر يتعلق بجبال الهيمالايا.

على رأس الوادي يوجد منتجع تزحلق صغير، مكون من طابقين أو ثلاثة في مجمله، من تلك التي تحاول النجاة بصعوبة مع وجود الأزمة الاقتصادية والتغييرات المناخية. تعمل لارا هناك، في مطعم على الطراز الألبي بالقرب من مطلع مصاعد التزحلق، كان كوخًا رديئًا مثله مثل ممرات الثلج الصناعي. أتت لتحتضني وهي ترتدي مريلة النادلة وتبتسم، ولكنها لم تستطع إخفاء تعبها. كانت لارا شابة، لا يزيد عمرها عن ثلاثين عامًا، ولكنها منذ فترة تعيش بالفعل حياة امرأة ناضجة، وكان هذا واضحًا على وجهها. كان يوجد قليل من المتزحلقين، لذلك طلبت إذنًا من زميلة أخرى، وجاءت لتجلس على الطاولة معي.

ونحن نتحدث أطلعتني على إحدى صور أنيتا: طفلة شقراء، نحيفة، مبتسمة، تحضن كلبًا أسود أكبر منها. حكت لي أنها سجلتها في السنة

مكتبة

الأولى في الحضانة. كان من الصعب إقناعها بالاعتياد على بعض القواعد، في البداية كانت تقريبًا طفلة برية، إما تتشاجر مع شخص ما، أو تبدأ في الصراخ، أو تجلس في أحد الأركان ولا تتحدث مطلقًا طوال اليوم. الآن ربما، بالتدريج، بدأت تتحضر. ابتسمت لارا، وقالت: ولكن الشيء الذي يعجبها هو عندما آخذها إلى أي مزرعة. هناك تشعر بالفعل أنها في منزلها. تترك العجول تلحس يديها، حتى بلسانهم الخشن ذلك، دون أن تشعر بأي خوف. وحتى مع الماعز ومع الخيول، فهي على سجيتها مع كل الحيوانات. أتمنى ألا يتغير هذا الشيء فيها، وألا تنساه أبدًا.

توقفت لتحتسي بعض الشاي. رأيت أن أصابعها حول الفنجان لونها أحمر، وأظافرها كلها متآكلة.

نظرت حولها في المطعم وقالت: أتعرف أنني كنت أعمل هنا أيضًا عندما كان عمري ستة عشر عامًا؟ كل الشتاء، أيام السبت والأحد، عندما كان أصدقائي يذهبون للتزحلق. يا للبؤس.

قلت أنا: ولكنه ليس مكانًا سيئًا.

- بلى، هو كذلك. لم أكن أفكر بأنني سأضطر للعودة إليه، ولكن كما يقولون: أحيانًا لكي تتقدم إلى الأمام، عليك أن تعود خطوة إلى الوراء. إذا كان لديك قدر من التواضع للاعتراف بهذا.

تشير بهذا إلى برونو. وعندما بدأنا نتحدث عن الموضوع، كانت قاسية عليه جدًّا. قالت لي إنها قبل عامين أو ثلاثة، عندما كانت قيمة

t.me/ktabpdf

المزرعة واضحة، كان يمكنهما العثور على حلول. أن يبيعا الأبقار، يؤجرا المزرعة ويبحثا كلاهما عن عمل. سيجد برونو عملًا على الفور في أي موقع بناء، أو أي معمل لصناعة الجبن، أو حتى في منتجعات التزحلق. كان سيمكنها هي العمل كمساعدة في متجر ما أو نادلة. كانت مستعدة للقيام بهذا الاختيار، وأن تعيش حياة معتادة أكثر، حتى يتحسن الوضع. أما برونو، من الناحية الأخرى، لم يكُن يرغب في أن يتحدث حتى عن هذا. لا توجد أي حيوات بديلة ممكنة في ذهنه. وفهمت لارا هذا في لحظة ما، سواء هي أو أنيتا، سواء كل ما اعتقدت أنها بنته معه هناك فوق، كل هذا بالنسبة إلى برونو أقل أهمية من جبله، أو ما يعنيه الجبل بالنسبة إليه. في تلك اللحظة أدركت أن تلك العلاقة انتهت بالنسبة إليها. وبدأت من اليوم الثاني تخيل مستقبل بعيد من هناك، مع طفلتها الصغيرة ولكن بدونه.

قالت: أحيانًا يستهلك الحب نفسه بالتدريج، وأحيانًا أخرى يصل إلى نهاية فجائية، أليس هكذا تسير الأمور؟

أجبت: في الحقيقة أنا لا أعرف أي شيء عن الحب.

- هذا حقيقي، لقد نسيت.

- ذهبت لرؤيته، فهو في «البارما» حاليًا. يريد أن يمكث هناك الآن، لا يريد أن ينزل.

قالت لارا: أعلم، رجل الجبل الأخير.

مكتبة

- لا أعرف كيف يمكنني أن أساعده.

- انسَ الأمر. لا يمكنك أن تساعد شخصًا لا يريد المساعدة. اتركه ليمكث حيث يرغب.

قالت هذا، ثم نظرت إلى الساعة، تبادلت نظرة مع زميلتها التي تقف عند طاولة البيع، ونهضت لتعود إلى عملها. لارا النادلة. تذكّر كيف كانت تسهر على الأبقار تحت الأمطار، فخورة، ثابتة، بمظلتها السوداء.

قلت: سلامي لأنيتا.

قالت هي: تعالَ لتزورها قبل أن تكمل العشرين من عمرها.

ثم احتضنتني بقوة أكثر من بداية اللقاء. كان هناك شيء في ذلك الحضن لم يظهر في كلماتها. بعض التأثر، ربما، أو نوع من الحنين. رحلت عند توافد أوائل المتزلجين للغداء، بالخوذات والبِذَل المتكاملة والأحذية الكبيرة البلاستيكية، كأنهم رجال فضاء.

وصل الثلج فجأة، وبكثرة حتى نهاية ديسمبر. في يوم احتفال «عيد الميلاد» هبط الثلج حتى في ميلانو. بعد الغداء أخذت أنظر إلى خارج النافذة، الشارع العريض لطفولتي، وبه سيارات قليلة، تعبر بتردد، بعض منها يتزحلق عند إشارة المرور ولا ينجح في التوقف إلا في منتصف طريق عبور المشاة. هناك أطفال يلقون بالكرات الثلجية.

t.me/ktabpdf

أطفال مصريون ربما لم يروا قط الثلج في حياتهم. وبعد أربعة أيام هناك طائرة ستقلني مرة أخرى إلى كاتماندو، إلا أنني لم أكن أفكر في نيبال الآن، ولكن أفكر في برونو. كان يبدو لي أنني الوحيد الذي يعرف أنه هناك فوق.

أتت أمي بالقرب مني عند النافذة. دعت صديقاتها للغداء وكنّ يجلسن على المائدة، رؤوسهن خفيفة بعض الشيء، في انتظار الحلو. كان هناك جو فرح في البيت. توجد المغارة التي تبنيها أمي كل أعوام بالأعشاب التي جمعتها من «غرانا»، ومفرش المائدة أحمر اللون، والنبيذ، والصحبة الجيدة. حسدتها مرة أخرى على موهبتها مع أصدقائها. لم يكُن لديها أي نية لأن تكبر في السن تعيسة ووحيدة.

قالت: في رأيي لا بد أن تحاول مرة أخرى.

أجبت: أعلم ذلك، ولكنني لا أعلم إذا كان ذلك سيغير أي شيء.

فتحت النافذة وأخرجت إحدى يدَي للخارج، وانتظرت حتى يتساقط الثلج على كفي، كان مبللًا وثقيلًا، ثم بدأ يذوب بمجرَّد أن يلمس جلدي، ترى كيف سيكون الثلج على ارتفاع ألفي متر.

وهكذا في اليوم التالي ابتعت سلاسل الثلج على الطريق السريع وزوجي أحذية جليد من أول محل في الوادي، ودخلت في صف السيارات التي تصعد من ميلانو وتورينو. تقريبًا كانت كل السيارات عليها ألواح التزحلق على حوامل السقف. في أعقاب عديد من

مكتبة

فصول الشتاء قليلة الثلج، هرع المتزحلقون إلى الجبال كمن يهرع لافتتاح مدينة ملاهٍ جديدة. لم تدخل ولا سيارة منها في الطريق المؤدي إلى «غرانا»، وكانت تكفيني بعض المنعطفات لكي لا أرى أحدًا على الإطلاق، ثم بمجرَّد أن انحنى الطريق في ما وراء الصخرة، دخلت مرة أخرى إلى عالمي القديم.

يوجد ثلج متراكم أمام الإسطبلات وأمام مخزن التبن المصنوع من جذوع الأشجار. يوجد ثلج على الرافعات وعلى الأسقف الصفيح للأكواخ، على عربات اليد، وأكوام السماد، يملأ الثلج الأطلال وتقريبًا يخفيها. في البلدة أزال أحدهم الثلج من الطريق الضيق بين المنازل، ربما كانا الرجلين نفسهما اللذين رأيتهما فوق أحد الأسطح، يلقيان الثلج إلى أسفل من هنا وهناك. رفعا رأسيهما ولم يلقيا عليَّ أي تحية. تركت السيارة بعد ذلك المكان بقليل، حيث توقفت كاسحة الثلج، أو ربما استسلمت، وتركت المساحة الكافية لنفسها لتستدير، ثم عادت إلى الوراء. وضعت القفازين لأنني منذ بعض الوقت وأنا أشعر أن أصابعي بدأت تتجمد. وضعت حذاءَي الثلج فوق حذائي، وتسلقت جدار الثلج القاسي الذي يغلق الطريق، ثم عبرت إلى الجهة الأخرى، حيث الثلج الطازج.

استغرقت أكثر من أربع ساعات لأصعد على المعبر، الذي عادةً في الصيف يتطلب أقل من ساعتين. حتى بأحذية الثلج كنت أغوص حتى ركبتي. أسير حسب الذاكرة متتبعًا الخط الذي تشكله

t.me/ktabpdf

الهضاب والمنحنيات، من ممر أكثر وضوحًا بين الصنوبريات المغطاة بالثلج، دون أي أثر لأتبعه، ولا أي نقطة إرشاد معتادة على الأرض. غطى الثلج بواقي أسلاك مصعد الثلج، والجدران المحطمة، وكتل الصخور الآتية من المراعي، وجذوع اللاركس البالغة من العمر مئات الأعوام، ولم يتبقى من النهر سوى فجوة بين مرتفعين ارتفاعها متوسط من شطآنه، عبرته من نقاط اخترتها عشوائيًا بقفزة في الثلج الطازج، وسقطت إلى الأمام على يدي بلا إصابات. على الجانب الآخر بدأ المنحدر يزداد حدة، وفي كل ثلاث أو أربع خطوات أتزحلق إلى الخلف، وأنا آخذ انهيالًا جليديًّا معي، ثم كان عليَّ أن أستخدم يدَيَّ أيضًا، وأن أغرز حذاء الجليد كأنه أحذية تسلق بمسامير، وأحاول مرة أخرى بمزيد من الإصرار. فقط عند وصولي إلى مرعى برونو الجبلي أدركت تمامًا كم الثلج الذي تساقط، ارتفع حتى غطى نصف نافذة الإسطبل، ولكن تسببت دورة الرياح في إزاحة الجليد في الجانب المقابل للجبل، مكونةً ممرًا عرضه خطوة حيث توقفت لألتقط أنفاسي. كان العشب في تلك المنطقة الصغيرة جافًا وميتًا، رمادي اللون مثل الجدران الحجرية. لم يكُن هناك ضوء، ولا أي لون سوى الأبيض والرمادي والأسود، واستمر الثلج في الهطول.

عندما وصلت إلى فوق اكتشفت أن البحيرة اختفت مثل كل شيء آخر. تحولت إلى مجرَّد حوض مليء بالثلج، مجرَّد مهبط في سفح الجبل. لذلك، ولأول مرة، بدلًا من أن أدور من حوله، سرت مباشرةً في

مكتبة

وسطه تجاه «البارما». بدا لي شيئًا غريبًا السير فوق كل تلك المياه. وأنا في منتصف طريق العبور سمعت أحدهم ينادي ويقول: أوه! بيريو!

رفعت عيني ورأيت برونو بعيدًا فوق المنحنى، شكلًا صغيرًا بين صف الأشجار. لوح لي، ولكن بمجرَّد أن لوحت له ألقى بنفسه إلى الأسفل، ثم أدركت أنه لا بد أن يكون مرتديًا لوحَي تزحلق، كان قادمًا تجاهي متحركًا في زاوية مائلة، وساقيه مفتوحتين، بشكل عشواني، تمامًا كما يفعل في الصيف على حقول الثلج. فتح ذراعيه، ومد جذعه إلى الأمام، في توازن غريب. ولكن أمام أشجار اللاركس الأولى رأيته يدفع بنفسه إلى الجانب ويعتدل بحسم، متجنبًا الغابة، وعابرًا الجزء العلوي حتى الوادي الرئيسي للغرينون، وتوقف هناك. في الصيف في ذلك الوادي يجري نبع صغير، ولكن الآن الوادي متسعًا مليئًا بالثلج يهبط مباشرةً وبلا أي عوائق حتى البحيرة. قيّم برونو انحناء المسافة الباقية له، ثم وجه المزلاجين تجاهي وانطلق بإصرار. وفي الوادي اتخذ على الفور سرعة كبيرة. لا أعرف ما يمكن أن يحدث له إذا تعرقل وسقط هناك في الوسط، إلا أنه ظل على قدميه، هابطًا بقوة في الحوض النهري، ورويدًا رويدًا أبطأ على الثلج المسطح، حتى وصل إليَّ بالقصور الذاتي.

كان متعرقًا ومبتسمًا وقال وهو يلهث: هل رأيت؟

t.me/ktabpdf

رفع أحد المزلاجين، عمره تقريبًا ثلاثين أو أربعين عامًا، ويبدو من بقايا الحرب. قال: ذهبت إلى «غرانا» لأحضر جاروفًا، ووجدته في مخزن عمي. كنت أراهما هناك منذ زمن، ولا أعرف لمن كانا.

- ولكن هل تعلمت الآن؟

- منذ أسبوع. هل تعرف ما أكثر الأمور صعوبة؟ لا يجب أن تنظر مطلقًا إلى شجرة تشعر أنك ستصطدم فيها، لأنك لو فعلت هذا ستجد نفسك تمامًا في وسطها.

قلت: أنت مجنون.

ضحك برونو، وضرب بيده على كتفي. كانت لحيته طويلة رمادية وعيناه مشتعلتين بالنشوة. لا بد أنه فقد وزنًا، لأن ملامحه بدت لي أكثر حدة من أي وقت.

قال: أوه، أعياد ميلاد سعيدة. ثم أضاف: تفضل، تفضل.

كأننا تقابلنا بالصدفة ونحتاج إلى أن نذهب لنشرب نخب هذه المصادفة السعيدة. رفع المزلاجين وحملهما على ظهره، قاد الطريق أمامي على المنحنى، على طول أثر لا بد أنه قام بحفره في أثناء تجاربه في التزحلق.

شعرت بالأسى على منزلنا الصغير في الصخرة عندما رأيته محاطًا بأسوار من الثلج بارتفاعه. أنزل برونو بالفعل الثلج من على السقف،

مكتبة

وحفر حوله خندقًا لصرف المياه. وعندما دخلت إلى المنزل بدا لي أنني سقطت في نفق. وجدته دافئًا، مُرحبًا، أكثر امتلاءًا وفوضى من المعتاد. كانت النافذة مسدودة الآن، ولا يمكن رؤية أي شيء سوى الخطوط البيضاء خلف الزجاج، ولم أكد أنزع ملابسي وأجلس على المائدة حتى سقط شيء على ألواح السقف، وتسبب في ضوضاء عنيفة كأنه ارتطام. وعلى الفور نظرت إلى فوق خوفًا من أن يسقط على رأسي.

أخذ برونو يضحك وقال: هل وضعت الدعامات جيدًا في تلك المرة؟ الآن سنرى إذا كان السقف سيتحمل، أليس كذلك؟

وكانت تصل أصوات ارتطام مثلها باستمرار، ولم يكُن هو ينتبه إليها. وعندما اعتدت عليها أنا الآخر بدأت ألحظ تغييرات في الحجرة. وضع برونو أرفف أكثر، ثبتها على الجدران بالمسامير وملأها بكتبه، وملابسه، وأدواته، ومنحه مظهرًا لم يكُن له بينما كنت أعيش أنا فيه، ذلك الذي لمنزل يسكنه أحد بالفعل.

سكب كوبين من النبيذ وقال لي: يجب أن أعتذر لك، يؤسفني ما حدث المرة السابقة. أنا سعيد لأنك عدت، كنت قد فقدت الأمل في هذا. نحن ما زلنا أصدقاء، أليس كذلك؟

قلت: بالتأكيد.

وبينما بدأت في الاسترخاء أشعل مزيدًا من النيران في المدفأة. خرج بوعاء وعاد به مليئًا بالثلج، وبدأ يذيبه ليعد البولينتا. سألني

t.me/ktabpdf

إذا كنت أرغب في بعض اللحم للعشاء، وقلت له إنني بعد كل هذا المجهود على استعداد لأن آكل أي شيء. أخرج بعض قطع شاماواه حفظها في الملح، نظفها بعناية ووضعها في الإناء مع زبد ونبيذ. عندما غلت المياه في الوعاء وضع بداخله حفنة من الدقيق الأصفر، وأخرج لترًا آخر من النبيذ الأحمر ليصحبنا ونحن في الانتظار، وبعد الكوبين الأولين، وبينما تنتشر رائحة اللحم البري في المنزل، بدأت أشعر بأنني بخير مرة أخرى.

قال برونو: كنت أشعر بالغضب، وكنت غاضبًا أكثر لأنني لم أستطع أن ألوم أحدًا. واقع الأمر أنني أنا المخطئ، لم يخدعني شخص آخر. ولكن ما الذي جعلني أفكر في ذلك المشروع؟ أنا لا أعرف شيئًا عن النقود. كان لا بد أن أعيش في منزل صغير كهذا، وأحضر فوق أربع بقرات وأعيش هكذا من البداية.

أخذت أستمع إليه، وأدركت أنه فكر كثيرًا، وعثر على الإجابات التي يبحث عنها. قال: لا بد للمرء أن يفعل ما علمته الحياة أن يفعله. ربما عندما يكون شابًا جدًّا، من يدري، يمكنه أيضًا أن يختار تغيير طريقه. ولكن في لحظة ما، لا بد للمرء أن يتوقف ويقول: حسنٌ، أنا أستطيع أن أفعل هذا، ولكن هذا لا أستطيعه. هكذا سألت نفسي: وأنا؟ أنا قادر على الحياة في الجبل. سأعيش هنا بمفردي، وسأتمكن من هذا.

مكتبة

ليس هذا بالشيء الهين، ألا تعتقد هذا؟ ولكن يبدو أنني كنت لا بد أن أصل لسن الأربعين لأكتشف أن الأمر يستحق.

كنت منهكًا، وبدأت أسترخي من حرارة النبيذ، وحتى إن لم أعترف بهذا، كان يعجبني أن أسمعه يتحدث هكذا. هناك شيء مطلق في برونو طالما سحرني، شيء من الصدق والنقاء يبهرني فيه منذ أن كنا صبية. وكنت تقريبًا، في ذلك المنزل الصغير الذي بنيناه، مستعدًا أن أصدق أنه على حق، وأن الطريقة الصحيحة للحياة بالنسبة إليه هي تلك، وحيدًا في قلب الشتاء، بلا أي شيء سوى بعض الطعام، ويديه وأفكاره، وحتى إذا كانت هذه طريقة غير إنسانية بالنسبة إلى آخرين.

أنقذني الجبل من ذلك الحلم الخيالي. في وقت متأخر، بينما نتناول العشاء، سمعت صوتًا مختلفًا عن تلك الارتطامات المعتادة على السقف. بدأ كأنه زئير طائرة أو عاصفة بعيدة، ولكن سرعان ما أصبح قريبًا، صاخبًا، ثم دويًّا تسبب في اهتزاز الأكواب على المائدة. نظرنا أنا وبرونو كلٌّ منا إلى الآخر، وفي تلك المرة رأيت أنه لم يكُن أكثر استعدادًا لهذا مني، ولا أقل خوفًا. وبعد هذا الدوي، سمعنا صوتًا آخر، صوت انفجار في هذه المرة، لشيء ما يصطدم ثم ينفجر، وعلى الفور بعد ذلك قلت كثافة الصوت. عندئذٍ بدأنا ندرك أن الانهيار الجليدي لم يعبر فوقنا، ولكنه كان بالقرب منا. شيء آخر سقط، ثم شعرنا بآخر، سقطة أضعف، ثم عاد الصمت فجأة كما كُسر فجأة من قبل. عندما توقف كل شيء خرجنا لنحاول أن نرى ما حدث، ولكن

t.me/ktabpdf

كان الوقت ليلًا، ولم يكُن هناك قمر، ولم يكُن هناك شيء نراه سوى الظلام. عندما عدنا إلى الداخل لم يشعر برونو برغبة في مزيد من الحديث، ولا أنا. ذهبنا للنوم، ولكن بعد ذلك بساعة سمعته ينهض، ألقى بمزيد من الخشب في المدفأة، وسكب لنفسه شرابًا.

عندما خرجنا من النفق، في الصباح، وجدنا أنفسنا في الضوء الذي يلي انهيارات الثلج الطويلة. في ظهرينا الشمس ساطعة، والجبل أمامنا يسطع على الحوض النهري. على الفور رأينا ما حدث، أطلق الوادي الرئيسي للغرينون، ذلك الذي نزل برونو عن طريقه قبل بضع ساعات، انهيالًا بدأ على ارتفاع ثلاثمائة أو أربعمائة متر لأعلى، من النقطة الأكثر حدة من المنحدر. وفي أثناء تسارع الثلج حفر بعمق، إلى حد أنه خلع الصخرة السفلى، وجذب معها رمالًا وحجارة.

أصبح الوادي، الآن، يبدو كجرح داكن اللون، فقد سقط الانهيال، من على ارتفاع خمسمائة متر، في الحوض النهري، فاكتسب قوة عظيمة إلى حد أنه دفع جليد البحيرة إلى القاع، وكان ذلك هو الضجيج الثاني الذي سمعناه. الآن في عمق الوادي لم يعد هناك الامتداد الناعم للجليد، ولكن كتلة من الثلج المتسخ وكتل من الجليد، مثل الأبراج. تطير غربان الجبل فوقه وتقف هناك حوله. لم أستطع أن أفهم ماذا يجذبها. كان مشهدًا بشعًا وساحرًا في الوقت ذاته، ولم نكن بحاجة إلى أن نقول شيئًا لنقرر أن نذهب إلى أسفل وننظر عن كثب.

مكتبة

كانت الفرائس التي تتقاسمها الغربان هي الأسماك النافقة. أسماك سلمون صغيرة فضية حبست في قلب الصراع الشتوي، وبرزت من عمق المياه السوداء والمكثفة التي كانت تنام فيها، وأصبحت على فراش من الثلج. من يدري إذا كان لديها الوقت لتدرك ماذا حدث. لا بد أن الأمر كان مثل انفجار قنبلة، ومن الألواح المقلوبة والمتهشمة رأيت أن جليد البحيرة كان سُمكه أكبر من نصف متر تقريبًا. أسفله، بدأت المياه تتجمد من جديد، ولكن كانت مجرَّد طبقة هشة، وشفافة، وداكنة، تشبه ذلك الصقيع الذي رأيته في الخريف. بعض الغربان يتشاجر على سمكة سلمون بالقرب منا، وفي تلك اللحظة شعرت بأنني أمام مشهد طمع لم أحتمله ففرقتها ببضع خطوات وركلة، وكان كل ما تبقى وراءها في الثلج كتلة وردية.

قال برونو: دفن سماوي.

سألته: هل رأيت شيئًا كهذا من قبل؟

أجاب، باديًا عليه التعجب: لا، بالتأكيد لا.

سمعت صوت طائرة هليكوبتر تقترب. لم يكُن هناك أي سحابة في السماء ذلك الصباح. ومع أول دفعات الحرارة من الشمس بدأت كتل من الجليد تسقط من كل المناطق البارزة على الغرينون، ومن كل مجرى بدأت الانهيالات الصغيرة تنفصل، كأن الجبل بدأ يتحرر من ذلك الثلج القابع عليه. تطير طائرة هليكوبتر فوق رأسينا، لم تدرك

t.me/ktabpdf

وجودنا وتجاوزتنا، وعندئذٍ أدركت أننا كنا على بعد بضعة كيلومترات من منحدرات التزلج لمونتي روزا، في يوم السابع والعشرين من ديسمبر، في صباح أحد الأيام المشمسة والثلج الطازج. يومًا رائعًا للتزلج. ربما من هناك فوق كانوا يراقبون الطريق. وتخيلت من أعلى صفوف السيارات، ومواقف السيارات المزدحمة، والمباني المخصصة التي تعمل بأقصى طاقة لها بلا أي توقف، وأنه هناك، على الطرف القريب، في الجزء المغطى بالظلال، يوجد رجلان يقفان أسفل انهيار صخري تحيط بهما أسماك ميتة.

- سأرحل. قلتها للمرة الثانية في بضعة أسابيع. مرتان حاولت ومرتان استسلمت.

قال برونو: أجل، يبدو هذا قرارًا صائبًا.

- يجب أن تأتي إلى الأسفل معي.

- مرة ثانية؟

نظرت إليه. شيء ما خطر له جعله يبتسم.

قال: منذ متى ونحن أصدقاء؟

- أعتقد العام القادم سنكمل ثلاثين عامًا.

- ألم تحاول أن تنزلني من هنا لمدة الثلاثين عامًا الماضية؟

ثم أضاف: يجب ألا تقلق عليّ. هذا الجبل لم يؤذني قط.

مكتبة

أتذكر بعض الأشياء القليلة الأخرى عن ذلك الصباح. كنت مهزوزًا وحزينًا جدًّا لأستطيع التفكير بوضوح، وأتذكر أنني كنت أتعجل الساعة التي فيها سأترك البحيرة والانهيال خلف ظهري، وأنني بعد ذلك بقليل، في الوادي العميق، بدأت في الاستمتاع بالنزول. وجدت آثاري من اليوم السابق واكتشفت أنني بحذائي الجليدي يمكنني أن أهبط بقفزات كبيرة أيضًا في المناطق الأكثر حدة، نظرًا إلى أن الثلج الطازج كان يثبتني. بل كلما زادت حدة المنحنى، استطعت أن ألقي بنفسي وأتركها تنطلق. توقفت فقط مرة واحدة، وأنا أعبر النهر، لأنني فكرت في شيء، وكنت أودّ أن أرى إذا كان حقيقيًّا. نزلت بين الضفتين المجمدتين، وحفرت في الثلج بالقفازين، وبمجرَّد أن عثرت على الجليد، جليد هشّ وشفَّاف، وتمكنت من كسره بلا مجهود، اكتشفت أن تلك الطبقة تحمي عرقًا من المياه. لم تكُن تُرى ولا تُسمع من المعبر، ولكن نهري ما زال يجري أسفل الثلج.

كشف شتاء 2014 بعد ذلك في جبال الألب الغربية أنه أكثر شتاء هطلت فيه الثلوج في نصف القرن الأخير. وفي محطات التزحلق، كان ارتفاع الثلج يصل إلى ثلاثة أمتار في نهاية ديسمبر، وستة أمتار في نهاية يناير، وثمانية أمتار في نهاية فبراير. وفي نيبال، وأنا أقرأ تلك المعطيات، لم أستطع أن أتخيل كيف كان منظر ثمانية أمتار من الثلج في الجبال العليا. فهي كافية لكي تدفن الغابات، كانت أكثر بكثير من تلك الأمتار التي يمكنها أن تدفن منزلًا.

t.me/ktabpdf

وفي أحد أيام شهر مارس كتبت لي لارا أن أتصل بها في أقرب فرصة. قالت لي بعد ذلك هاتفيًا أن لا أحد يمكنه العثور على برونو. ذهب ابنا عمه ليريا إذا كان بخير، ولكن لم ينزح أحد الثلج من أمام البارما منذ وقت طويل، واختفى المنزل أسفل الثلج، وتمكنا من تمييز الحائط الصخري بصعوبة. طلب ابنا العم المساعدة، وجاءت قوة للنجدة بواسطة الهليكوبتر وحفرت حتى وصلت إلى السقف. صنعوا ثقبًا في الألواح وعندئذٍ توقعوا، كما يحدث أحيانًا مع رجال الجبل المسنين، أن يجدوا برونو في فراشه، مريضًا أو ربما تجمد حتى الموت، إلا أن أحدًا لم يكُن في المنزل، ولا حتى حوله، بعد هبوط الثلج الأخير، كانت تظهر آثار أقدام. سألتني لارا إذا كانت لدي أي فكرة، لأنني آخر من رآه، وقلت لها أن يبحثوا في المخزن إذا كانت زلاجات الثلج موجودة. لا، لم تكُن تلك أيضًا هناك.

بدأت قوات الإنقاذ الألبية بتمشيط المنطقة بالكلاب، وهكذا كنت أتصل بها كل يوم لمدة أسبوع لأعرف الأخبار. ولكن كان الثلج كثيرًا جدًّا فوق الغرينون، ومع بداية الربيع يبدأ أسوأ فصل بسبب الانهيالات. في مارس عانت جبال الألب كثيرًا، وبعد أحداث هذا الشتاء حيث ارتفعت فيها نسبة الوفيات على الجانب الإيطالي من الجبل حتى وصلت إلى اثنين وعشرين، لم يهتم أحد كثيرًا برجل جبل اختفى في عمق الوادي فوق منزله. لم يكُن يبدو لي ولا حتى للارا أن هناك أهمية للإصرار على البحث؛ فإنهم سيعثرون

مكتبة

على برونو عند ذوبان الثلج. سيبرز من مجرى ما في عز الصيف، وستكتشفه الغربان أولًا.

سألتني لارا على الهاتف: هل تعتقد أن هذا ما أراده؟

كذبت وقلت: لا، لا أعتقد.

– أنت كنت تستطيع أن تفهمه، أليس كذلك؟ كان كل منكما يفهم الآخر.

– أتمنى هذا.

– لأنني في بعض الأحيان كان يبدو لي أنني لم أعرفه على الإطلاق.

عندئذٍ، سألت نفسي، من الذي عرفه غيري على تلك الأرض؟ ومن عرفني غير برونو؟ وإذا كان ما بيننا سيُحفظ كَسّر، سرًا تقاسمناه، ماذا سيتبقى منه الآن لو أن أحدنا لم يعُد موجودًا.

عندما انتهت تلك الأيام، وأصبحت المدينة مكانًا لا يُحتمل، قررت أن أذهب لأتجول في الجبال وحدي. الربيع فصل رائع على جبال الهيمالايا. يسيطر اللون الأخضر لحقول الأرز على جوانب الأودية، وبعد ذلك بقليل في أعلى تزهر غابات الرودندريات، ولكنني لم أرغب في أن أذهب إلى أي مكان عرفته، ولا أن أعيد صعود طريق يحمل أي ذكرى، وهكذا اخترت منطقة لم أذهب إليها قط، ابتعت الخريطة ورحلت. منذ فترة طويلة لم أشعر بحرية وفرحة الاكتشاف. وكان يحدث لي أن أترك المعبر وأصعد منحدرًا، وأصل إلى تجويف

t.me/ktabpdf

صخري فقط بسبب فضولي لاكتشاف ماذا يوجد من هناك، وأن أتوقف دون أن أتوقع في قرية تعجبني، وأن أقضي ظهيرة كاملة بين آبار أحد مجاري المياه. كانت هذه هي طريقة التجول في الجبال الخاصة بي أنا وبرونو. فكرت بأنها ستكون، في الأعوام القادمة، طريقتي في أن أحفظ سرنا، وكان يخطر ببالي أنه هناك منزل، منزل فوق البارما، بثقب في سقفه، وأن هذا لن يساعده كثيرًا على الصمود، ولكنني كنت أشعر أنه لم يعد يفيد في شيء، وأفكر فيه كذكرى بعيدة.

تعلمت من أبي، منذ فترة طويلة بعد أن توقفت عن أن أتبعه على المعابر، أنه، في بعض الحيوات، توجد جبال يستحيل العودة إليها. وفي حيوات، مثل حياتي وحياته، لا يمكن العودة إلى الجبل، مركز كل الجبال الأخرى، وإلى بداية قصتنا، ويصبح الطواف حول الجبال الثمانية هو كل ما يتبقى لمن، مثلنا، فَقَدَ، على الجبل الأول والأعلى، صديقًا له.

مكتبة

telegram @ktabpdf

telegram @ktabrwaya

تابعونا على فيسبوك جديد الكتب والروايات

مكتبة

فونتاني 2014– 2016

هذه القصة مهداة إلى الصديق الذي أوحى إليَّ بها،

وهو يقودني حيث لم يكُن طريق،

وأيضًا إلى الإيمان والحظّ اللذين حفِظَاها منذ البداية

خالص محبتي

الجبال الثمانية

أجمل الملاجىء تقبع في الذاكرة

ليست الجبال هي فقط حيث القمم، والجليد والمغامرات ولكنها أيضًا أسلوب حياة: متى يترك المرء مسافة، متى يتراجع، متى يتقدم المسير ومتى يلتزم الصمت.

قال أحدهم: لا يجب أن نترك لأبنائنا الانجازات والأحداث التي غيرت التاريخ فحسب، ولكن يجب أن نسجل لهم أيضًا تلك الحكايات اليومية، تلك التفاصيل الصغيرة التي تشرح لهم كيف عشنا. وفي هذه الرواية، البسيطة والعميقة في آن، يقدم لنا كونيتّي تلك التفاصيل الصغيرة، تفاصيل صداقة امتدت لثلاثين عامًا بين من عاش في المدينة وتجول حول العالم، ومن لم يتحرك من قريته الجبلية الصغيرة.

«استطاع كونيتّي أن يصور النشوى والحزن المصاحبين للوصول إلى القمم الرائعة، ليقودنا إلى أن ندرك ضآلة الدور الذي نلعبه في بانوراما الحياة».

– جريدة الغارديان الإنجليزية.

مكتبة ٣٨٤

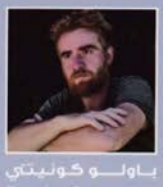

باولو كونيتي
Paolo Cognetti

وُلد في ميلانو عام 1978. بدأ أول تجربة للكتابة له وهو في سن الثامنة عشر، درس الرياضيات وكان يهوى تسلق الجبال وقام بعد التخرج من مدرسة السينما في ميلانو بالعمل على إخراج أفلام وثائقية اجتماعية وسياسية وأدبية.

بدأ كروائي عام 2004 بمجموعة قصصية «كتيب الفتيات الناجحات» ثم عام 2007 مجموعة قصصية ثانية «شيء صغير على وشك الانفجار»، و«الفتى البري» عام 2013. وقام أيضًا بتأليف العديد من الأفلام الوثائقية منها سلسلة من تسعة أجزاء عن الأدب الأمريكي. وفاز بعدة جوائز أدبية عن أعماله.

ألف «الجبال الثمانية» عام 2016، وفازت بجائزة «ستريغا»، وهي من أهم الجوائز الأدبية الإيطالية لعام 2017. والتي تُرجمت وبيعت في أكثر من 30 دولة.

ISBN: 978-9953-65-016-6
9 789953 650166
دار الخيال
www.daralkhayal.com